الانحراف الجنسي

في عصر الحروب الصليبية

(1095 - 1291م/ 489 - 690هـ)

صورة الآخر الفرنجي

أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن رشد



الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية
التأليف: أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي / د. أشرف صالح محمد سيد
موضوع الكتاب: دراسة تاريخية
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد الملازم: 14 ملزمة
مقاس الكتاب: 24x17
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2017/27390
الترقيم الدولي: 978-977-278-657-2





دار البشير للثقافة والعلوم


elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com


01152806533 - 01012355714

مقدمة الكتاب

تعتبرُ الحروب الصليبيّة فصلًا رائعًا من فصول الرّواية الضخمة التي تمثل الحياة البشرية، فقد أضفتْ مِسحة أخلاقية ودينيّة على الاتحاد بين القوة العسكرية والإخلاص الديني، كما أنّها عالجت الذروة من الجراءة والتقوى، وهوت إلى أحطّ مدارج الخزي والعار، وقد تنطوي أيضًا على نوازع المصلحة الشخصية، فالنوازعُ الدينية لم يكن الغرضُ منها سوى شراء الخلاص بثمنٍ بخس، بينما ترمي النوازع الدنيويّة إلى اقتناء الثروات وامتلاك الأراضي.

والواقع أنّ الكتابة التاريخية عن عصر الحروب الصليبيّة تدورُ في نطاق الرّجال ومعاركهم وصراعاتهم في الأغلب الأعمّ، فتعدّدت الدراسات الخاصة بالجانبين السياسيّ والحربي، سواء لدى المسلمين أو الصليبيّين، وندرَ الاهتمام بالجانب الاجتماعي، وكثيرًا ما وجدَ الجانبُ الأخير ضمنَ دراسات مسحيّة عامة عن تاريخ الحروب الصليبية، واشتملَ على صفحات قليلةِ العدد على الرّغم من الأهميّة الواضحة لذلك الجانب؛ من أجل تحليلِ ظاهرة الحروب الصليبيّة من خلال البناء الاجتماعي لكلٍّ من الطرفيْن المُتصارعين.

لقد ندر وجودُ دور المرأة من خلال المادّة التاريخيّة التي وصلت إلينا من ذلك العصر، كما أنّ موضوع السلوك الجنسي في المجتمع الصليبي يُعَدّ من البحوث التي تحتاجُ إلى معالجة موضوعيّة دقيقة؛ نظرًا لأهمية الموضوع ودقّته، وقلّة المصادر الخاصّة به، وتناثر المعلومات في الكتب.

ومِن مُنطلق أنّ «التاريخ الجنسي» اتجاهٌ حديث في الدّراسات التاريخيّة في الغرب الأوروبي والأمريكي خاصّةً، فإنّ الكتاب الذي بين أيدينا في تناوله لموضوع «الانحراف الجنسي داخل الكيان الصليبي» يكشفُ لنا عن قسمٍ منَ التاريخ الواقعي للصليبيّين، وليس كما حرصتْ كتبُ الحوليّات المبكرة على تصويرهم أنّهم أطهار وجندُ المسيح ولا تحرّكهم سوى الزاوية الدينية، فهُمْ عمليًّا كانوا أشخاصًا عاديّين تحرّكهم ذات الدوافع والمشاعر التي حرّكت غيرهم. إنّ دراسة الكيان الصليبي الدّخيل على المنطقة من الدّاخل ومن خلال الأمراض الاجتماعية التي استشرتْ فيه؛ يمثّل أمرًا على جانبٍ كبير من الأهمية من أجل معرفة العوامل الداخلية التي مهّدت لضعْفِه، ثمّ انهياره في النّهاية.

تتبع صفحاتُ الكتاب التاريخَ الجنسي للصليبيّين بدءًا من اشتراكِ البغايا في الحملات الصليبيّة على الشرق بقصد التّرفيه عن الجندِ المشاركين في هذه الحملات؛ حيث التصقتْ روح الميوعَةِ والانْحلال الخلقي بالصليبيّين منذ بداية قُدومهم إلى بلاد الشام، فانْغمسوا في كثيرٍ من الانحرافات التي اعتادوا عليها، وكان للخطايا الجنسيّة مثل (الزنا، الدّعارة، اللّواط، الشّذوذ الجنسي) وشيوعها داخل المجتمع الصليبي دوافعُ وأسبابٌ اجتماعية، واقتصادية، وعسكرية، ودينية.

لقد سادت حياةُ الفساد والمجونِ طبقاتِ المجتمع الصليبي المختلفة، وعلى الرغمِ من سموّ مكانة الطبقاتِ الاجتماعية العليا؛ إلّا أنّها انْهمكتْ في الملذّات، وتناسَى أفرادُها منزلتَهم وعلوَّ مكانتهم في المجتمع، فارْتكبوا الموبقاتِ دون حرصٍ، أو خوفٍ من سوء عاقبة ما يفعلون. لذا يبرزُ الكتابُ مظاهرَ الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة، وطبقة رجال الدين، وطبقة التجار، كما يلقي الضوءَ على العلاقات الآثمَة، والاغتصاب، وإدمانِ بيوت الدّعارة في طبقة الفرسان والجنود، أضفْ إلى ذلك الشواهد التاريخية

الدّالة على انحرافِ طبقةِ العلماء والطلّاب، وطبقة العامّة؛ حيث كان الشرقُ اللاتينيّ مَرتعًا خِصبًا للفسق والشّرور.

كان تأثيرُ الحروب الصليبيّة من الناحية الاجتماعية واضحًا في بلاد الشام أكثرَ منه في أي منطقةٍ أخرى في العالم العربي، إذْ أنّ البنية السكانية وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيَميّ والأخلاقي قد اهتزّت كثيرًا نتيجة الاستيطان الصليبي الذي عاش فوقَ تراب هذه المنطقة حواليْ قرنين من الزمان. فقد تأثر المجتمعُ الإسلامي والعربي بسلوكِ الصليبيّين الجنسي خاصّةً مع مخالطتهم لأخلاقيّات الصليبيّين بكلّ ما فيها من حسنات وسيئات، لذا تعرضُ صفحات الكتاب ما سجّلته بعضُ المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث عن الانحرافات الجنسيّة للمسلمين في إطارِ الموضوعيّة والحياديّة التاريخية.

كانت الدّعارة في عصر الحروب الصليبيّة من أكبرَ وأشهرَ صور الانحراف الجنسي وقتئذ، ويتناول الكتابُ عكا، وأورشليم القدس، بصفتهما من أهمّ المدن التي اشتهرت بالدّعارة في الكيان الصليبي. وأمامَ هذا السيل الجارف من الانحرافات الجنسيّة التي عمّت كلّ طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبية؛ كان لا بدّ للكنيسة الغربيّة أن تقوم بدورٍ مهمٍّ للحدّ من هذا الانحطاط الأخلاقي الذي وصل إليه أبناءُ الغرب الأوروبي في المدن الصليبيّة في بلاد الشام. وقد اتخذتِ الكنيسة عدّةَ إجراءات للحدّ من ذلك الانحراف متسلّحة في ذلك بسلطتها الدينية على طبقات المجتمع المختلفة.

يشير الكتابُ إلى أهمّ هذه الإجراءات، والتي تمثّلت في عقد المجامع الدينية، وقرارات وعِظات رجالِ الدّين، وقرارات وقوانين الهيئات الدينية العسكرية، بالإضافة إلى دورِ الدولة ممثّلةً في الملوك والأمراء وقادة الجيوش، وكذلك دور بعض عناصر المجتمع في العمل على الحدّ من هذا الانحراف الجنسي.

لقد كان للانحرافات الجنسيّة أثرٌ كبيرٌ على الحركة الصليبية، تناول الكتابُ تلكَ الآثار من اضطراباتٍ سياسية، وشائعات جنسيّة، والسبايا الصليبيّات، وانحطاط مكانة رجال الدّين، والأطفال غير الشرعيّين نتاج العلاقات المُحرّمة، وزيادة عدد المطلقات بسبب الخيانة الزوجية، وكثرة عدد المومِسات، والنتاج الأدبي في تلك الفترة الذي أخذ طابعَ الألفاظ المبتذَلَة الدّاعية إلى الرّذيلة والفسق. وقد دلّ ذلك كلّه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه ذلك المجتمعُ الذي سقط- بالفعل- من الدّاخل قبل سقوطِه على أيدي قادة حركة الجهاد الإسلاميّ من الخارج.

وهكذا، ألقتْ صفحاتُ الكتاب الأضواءَ الكاشفة على ذلك الجانب من حياة الصليبيّين خلالَ فترة وجودهم في بلاد الشام، في محاولةٍ لجمع شتات ما توفّر في المصادر والمراجع عنِ السّلوك الجنسي للآخر الفرنجي، نأملُ أن تمثّل إضافة إلى الإنتاج الفكري العربيّ في مجال التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبيّة[1].

والله تعالى من وراء القصد.

المؤلفان[2]
أسيوط في «ذو الحجة» ١٤٣٨هـ
القاهرة في «تشرين الثاني» ٢٠١٧م

---

(١) المادّة العلمية في مقدمة الكتاب بالرجوع إلى: أرنست باركر (١٩٦٧، ص١٥٢). قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص١٩٩). محمد مؤنس عوض (٢٠٠٥، ص١٢٩ - ١٦٦). نورمان ف. كانتور (٢٠٠٩، ص٤١٣). نبيلة إبراهيم أحمد (٢٠١٣، ص٨٩).

Jacques de Vitry (1896، P.64).

(2) Prof. Dr. Imam El-Shafiai: alyaatv@yahoo.com (Al-Azhar University).

Dr. Ashraf Salih: ashraf-salih@hotmail.com (Averroes university).

المدخل

«أكثرهم.. زناة، داعرين، راهبات مُومِسَات،
نساءٌ تركْنَ أزواجَهن للعيش في بيوت الدّعارة..
دنّسوا الأراضي المقدسة بأفعالٍ شائنة»

يعقوب الفيتري

المدخل

يتناول هذا المدخلُ بالعرض، تعريفَ الانحرافِ الجنسي وبعضَ صوره، ثمّ موقف المسيحية والعصور الوسطى من الشئون الجنسيّة والمرأة، ثمّ من بعد ذلك نتعرّض لاشتراك المرأة- وتحديدًا البغايا- في الحملات الاستعمارية الأوروبية على الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى.

إنّ اللّذة الجنسية[١] التي تصحب الجماعَ ليست إلّا أثرًا ماديًّا عارضًا كأثرِ الجوع والعطش عندما يُغريان الإنسان بلذّة الأكل أو الشرب، فاللّذة الجنسيّة خلقت لخدمة الإنجاب وتحقيقِ نوعٍ من التّلازم بين الجنسين للمشاركة في رعاية النّسل، غير أنّ المتعة الجنسيّة تضخّمت تضخمًا سرطانيًّا على حسابِ الإنجاب عبْرَ العصور التاريخية المختلفة[٢].

إنّ قطاع اللّذة- خاصّةً في العصر الحديث والمعاصر- هو أحدُ القطاعات التجارية في المجتمع، ويؤدى خدمةً أساسيّة هي (الترفيه) وإشباع الملذّات بطريقة غير شرعيّة، ويندرجُ تحت قطاع اللّذة الراقصات، ومهرّجو السيرك، والمضيفات في الملاهي الليلية، و(العوالم)، والبغايا، وتجّار المخدرات[٣].

والواقع أنّ الغريزة الجنسيّة طاقةٌ موجودة لدى البشر لتؤدي وظيفة حيويّة، ولكنْ نتيجة لبعض العوامل تتّجه هذه الطاقة الجنسيّة اتجاهاتٍ مخالفةً للمألوف، ويظهر ما يُعرف بالانحراف الجنسي الذي يتفشّى بين الرّجال والنساء على حدّ سواء.

---

(1) See: Barbara Keesling (2011 ، 244 pages).

(٢) نجية إسحاق عبد الله (١٩٨٤، ص٣٣).

(٣) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩، جـ٢/ ص٢٩٧).

مفهوم الانحراف الجنسي:

إنّ أصل كلمة الانحراف في اللّغة مأخوذ من (حرف) يقال: حرف الجبل أي أعْلاه المحدب، ويُقال: فلان على حرفٍ من أمره، أي على ناحيةٍ منه، وتحريف الكلِم عن موضعه يعني تغْييره[1]. أمّا عن مفهوم (الانحراف) في الاصطلاح فهو: الخروجُ عن المعايير الاجتماعية، أو الأهداف العُليا للمجتمع، سواء من جانب الأشخاص أو النظم الاجتماعية أو التنظيمات المجتمعية. وبناءً على هذا التعريف فإنّ الانحراف ينطوي على الفعل، وانعدام الفعل في الوقت نفسه، والمقصود بانْعدام الفعل عدمُ أدائه في اللّحظة المناسبة، إذْ أنّ السلبية واللامبالاة والفتور يعتبرُ مِن مظاهر الانحراف الذي ينطوي على انْعدام الفعل. وأمّا الخروجُ عن المعايير الاجتماعية؛ فهو الذي يمثل سلوكًا معينًا على مستوى المعايير الاجتماعية[2].

أمّا الجِنْسُ، بالكَسْرِ: أعمُّ من النَّوعِ، ومنه المجانسة، والتّجنيس، وهو كلّ ضَرْبٍ من الشيء. وفي المُعجم الوسيط: هو اتِّصالٌ شهوانيّ بين الذّكر والأنثى. والجنسُ هو «الحالة التي يكون عليها الفردُ من حيث أنه ذكرٌ أو أنثى، أو أنه غير مؤكّدِ الأنوثة، أو الذّكورة».

بناءً على ما سبق؛ يمكن تعريف الانحراف الجنسي بأنّه: الخروجُ الفردي أو الجماعي عن المعايير الدينية والاجتماعية التي تنظّم العملية الجنسية.

ولعلّه من الأهمية بمكان قبل الحديث عن الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة التعريفَ ببعض صورِ هذا الانحراف الجنسي، كي تكتملَ الصورة جيدًا في

(١) ابن منظور (٢٠٠٣، مادة حرف).
(٢) سامية محمد جابر (٢٠٠٠، ص٢٨٥).

ذهن القارئ، فالمقصودُ بالانحراف الجنسي ليسَ الشذوذ (اللواط/ المثليّة) أو الدّعارة وزنا المحارم، ولكنْ يُقصد به- أيضًا- في عصر الحروب الصليبيّة التعدّدُ في الزواج؛ حيث تحرّم تعاليم الكنيسة ذلك.

أولى صور الانحراف الجنسي كانت الدّعارة أو العُهر، جاء في لسان العرب الدّعر: بمعنى دخَن فلمْ يتّقد وهو الرّديء من الدّخان، والدّعارة الفسقُ والفجور والخبث، والمرأة: داعرة،[١] والعُهر: مِن عهَرَ عهورًا وعهارة، وعاهرَها عهارًا: أتاها ليلًا للفجور، ثمّ غلب على الزنا مُطلقًا، والعاهرُ هو الزّاني، أو هو الذي يتبع الشرّ زانيًا كان أو فاسقًا، والعُهْر: الزّنا[٢].

أمّا عن المعنى الاصْطلاحي للدّعارة (luxury)- خاصّةً في المعاجم المسيحيّة- فهي الرغبة في اللّذة اللّحمية أو التمتّع بها خلافًا للنظام، وهناك عدة أنواع للدّعارة، منها: الدّنس، والفسق، والرذيلة المخالفة للطبيعة[٣]. ومن الألفاظ المرادفة للدّعارة لفظ البِغاء (Prostitution) وهو مأخوذٌ في العربية من بغتَ المرأة بغاءً أي زنَتْ، والبِغاء مصدرُ باغت بِغاء إذا زنَت، وخرجت المرأة تُباغي أي تُزاني، والبِغاء الفُجور،[٤] وكلمةُ البغاء في العربية تقابلها في العربية كلمة (زينون)، وكانت البَغِيُّ[٥] شخصيةً مقبولة، وإن كانت محتقرةً في المجتمع العبراني القديم[٦].

---

(١) لسان العرب، (مادة دعر).
(٢) لسان العرب، (مادة عهر).
(٣) صبحي حموي اليسوعي (١٩٩٨، ص٢١٣).
(٤) لسان العرب، (مادة بغي).
(٥) البَغِيُّ: الفاجرة تتكسّب بفجورها، (قاموس المعاني، ٢٠١٧).
(٦) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩، ج٢/ ص٢٩٧).

أمّا عن مفهوم البِغاء في الاصْطلاح فهو: علاقةٌ جنسيّة غير مشروعة، تقوم بين رجلٍ وامرأة بقصد الحصولِ على فائدةٍ ماديّة أيّا كان نوعُها. وقيل: هو الاتّصال الجنسي مقابل أجر ودونَ تمييز، وقيل: بأنه كلّ مَنْ تتنازل عن نفسها للعديد من الرجال. ولا يقتصر البغاء على المرأة وحدها، بل هناك مجتمعات يوجد بها بِغاء غيري، تمارسُه الإناث، وبِغاء مثلي تمارسه الذّكور[١]. وقيل بأن البغيَّ هي مَنْ تقوم بإشباع الرغبة الجنسيّة لعملائها نظيرَ أجر تتقاضاه، لذا يرى بعض الدارسين أنّ البغاء نشاط اقتصادي وحسب، وأنّ «البغيّ» إن هي إلّا عاملة جنس (sex worker)،[٢] وأنّ البغاء قدرٌ يلازم البشرية، ولا سبيل لها إلى الخلاص منه طالما بقيت[٣].

ومِن الألفاظ التي تطلَق على مَنْ تمتهنُ مهنة الدّعارة أو البِغاء، لفظ (مُومِسٌ) وهي كلمة عربيّة فصيحة جاءت بصيغة المفرد على زنة (مُفعل) وتجمع على مُومِسَات، وموامس، و مَوامِيسُ، وميامس، وهي مشتقّة من الومس، وهو احتكارُ الشيء بالشيء حتّى يتجرّد[٤]. يقول معروف الرّصافي (ت. ١٩٤٥م) يصفُ فتاة مرّت به: (تمشي العرضني في جلابيبها.. مشية إحدى المومسات القُحاب). مشي العرضني: أي لم يستقم في مشْيه، وإنّما سار في ميلٍ واعْتراض، والمومسات جمعُ مومس، وهي: البغيّ، والقحاب: جمع قحبة: وهي المومس، وأصل القحبة السّعلة وهي من الكنايات؛ لأنّ المومس تسعل كأنّها تدعو إلى نفسها بذلك[٥].

---

(١) نجية إسحاق عبد الله (١٩٨٤، ص٢١- ٢٤).

(٢) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩، ج٢/ ص٢٩٧).

(٣) نجية إسحاق عبد الله (١٩٨٤، ص٤٠).

(٤) أحمد مختار عمر (٢٠٠٨، ج٣/ ص٢٤٩٨).

(٥) معروف الرصافي (١٩٥٣، ص٤٥١- ٤٥٢).

ومن صور الانحراف الجنسيّ في عصر الحروب الصليبيّة (الزنا)، سواء كان في بيوت الدّعارة أو من خلال ما يتمّ بين الرجل والمرأة في أي مكان أو توقيت آخر. والزّنا في العهد القديم (التوراة) هو سوءُ سلوك المرأة المتزوّجة سواء كان الزواج مقرّرًا معقودًا فقط أو مُكتملًا، أي حتّى لو كانت مخطوبةً وكُتب كتابُها.[١] ويعرف الزّنا في المعاجم المسيحيّة بأنه علاقة جنسيّة مع زوج شخصٍ ثالث، كما أنّ الخيانة لله والعودة إلى الأوثان وإلى الآلهة الغريبة كثيرًا ما تُصوّر بصورة الزّنا.[٢]

ويعرف الزّنا في القانون الكنسيّ بأنّه: العيش كزوجيْن ويكون أحدُهما نذرَ نفسَه للعفّة، ولكنّهما لم يلتزمان بقواعد نذر العفّة، وليس بالضرورة أن يسكنا تحت سقفٍ واحد باسْتمرار، بل تكفي أنْ تكون هناك علاقات جنسيّة متكرّرة مع ذات الشخص، أصبحت علنيّة وأحدثت فضيحةً بين المؤمنين.[٣] وعلى الرّغم من أن التعريفات الآنفة الذّكر يُفهم منها أنّ الزنا قاصرٌ على مَنْ يرتكبُه من المتزوجين فقط، فإنّ هناك أيضًا ما يُعرف بـ الفسق (Fornication) وهو علاقة جنسيّة يقوم بها بالتراضي أشخاصٌ عازبون لا يقيّدهم وثاق درجة، أو نذر عفّة، أو قرابة[٤].

وهناك أيضًا ما يُعرف بـ الدّنس (Spot) وهو نتيجة الخطيئة في الخاطئ، والخطيئة هي قولٌ أو فعل أو رغبةٌ تخالف الشريعةَ الأزليّة، والخطيئةُ الرئيسة التي لها مفعولٌ خطير واسع المدى سبعٌ: (الكبرياء، والبخل، والدّعارة، والحسد، والشراهة، والغضب، والكسل)[٥].

(١) الخوري بولس الفغالي (٢٠٠٩، ص٦٢٣).
(٢) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٢٤٩).
(٣) قوانين الكنائس الشرقية (٢٠٠٥، ص١٥٩٤). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦، ص ١٠٦).
(٤) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣٥٤).
(٥) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٢١٦، ص٢٠٣ – ٢٠٤).

ومِن صور الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة أيضًا تعدّد الزّوجات،[١] فقد شجب العهدُ الجديد (الإنجيل) الطلاق، كما شجب اشتهاءَ امرأة القريب، واعتبره كأنه زنا، كما رفض تعدّد الزوجات، قال بولس: «الزّناة لا يدخلون ملكوت الله»، كما ندّد بولس بزنَا الأقارب حين تحدّث عن رجل يعيش مع خالته، أو زوجة أبيه، وهذا أمرٌ تحرّمه الشرائع،[٢] ويدخل في هذا الأمر صورةٌ أخرى من صور الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة وهو «زنا المَحارم».

ومِن صور الانحراف الجنسي أيضًا (اللَّوْطُ) وهو مِن لاطَ الحوضَ بالطين لوطًا: طيَنه، ولاطَ فلان بالحوض أي طلاه بالطين وملَسه به، ولوَطه بالطين: لطَخه. ولاطَ الرجل لواطًا ولاطَ، أي فعل ما كان يفعل قومُ لوطٍ من مباشرة الذُّكور،[٣] وهو حبّ الاتصال الجنسي بشخصٍ من الجنس نفسه خاصّةً بين الرّجال.

موقفُ المسيحية والعصور الوسطى من الشئون الجنسيّة:

يقبل الفكرُ العبراني الجنسَ كجزءٍ طبيعي في الحياة، ويحثّ على الزواج بشدّة،[٤] وفي العهد القديم (التوراة) شُجب الزنا في الوصايا العشر واعْتُبر عملًا يسيء إلى حقّ القريب، وقد جعلَ الزنا من بين المحرمات التي تجعل الإنسان دنِسًا بحسب الشّريعة، فاعتبر الزنا خطيئة يعاقب الله الإنسانَ بسببها، وفي الشرق القديم كلّه صار الزنا خطيئة ذات بُعد ديني.[٥]

---

(١) تعدد الزوجات (Polygamy): كان منتشرًا قبل السيد المسيح في العالم كله، حتى في الدّين اليهودي. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص١٤٨).
(٢) الخوري الفغالي (٢٠٠٩، ص٦٢٤).
(٣) لسان العرب، (مادة لوط). قاموس المعاني (٢٠١٧، معنى لوط في معجم المعاني الجامع).
(٤) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦٢).
(٥)الخوري الفغالي (٢٠٠٩، ص٦٢٣).

على الرّغم من كلّ هذه التعاليم الواردة في التوراة بتحريم الزنا، فإنّ (Astarte) عشتاروت إلهةَ النّبات والخصب، رديفة عشتار البابلية انتشرت عبادتُها الفاسقة (البِغاءُ المُقَدَّسُ) في الشرق كلّه، ولا سيّما في فلسطين؛ حيث كان لها تأثير خطير في بني إسرائيل،[1] حيث لعبت النساء دورًا هامًّا في البِغاء المُقَدَّس،[2] وهو الذي كان يمارَس في ظلّ المعابد الكنعانيّة، بل وصل حتى إلى هيكل أورشليم (بيت المقدس)، وكان البِغاء يمارس في شعب إسرائيل كما في البلدان المجاورة، وهو لا يشجب على المستوى الأخلاقي، بل على مستوى المصلحة الشخصيّة[3].

وقد وردَ في العهد القديم فقراتٌ لا تحرّم البِغاءَ في حدّ ذاته، وإنما تُحرّم على العبرانيّين أن يدَعوا بناتِهم يعملْنَ بهذه المهنة، وهناك فقراتٌ تحرّم على الكهنة الزواجَ من عاهرات، وهو تحريمٌ ليس عامًّا أو مطلقًا، وإنّما مقصور على أفراد معيّنين وتحتَ ظروف معيّنة، ويحرّم التلمود البغاءَ بين اليهود تمامًا، وهناك أجزاءٌ كثيرة من التّلمود تنعتُ البِغاء بكلّ الصفات السلبيّة، وتبيّن عقوبة مَنْ يعمل بهذه المهنة البغيضة[4].

أمّا عن آراء آباء الكنيسة عن الجنس، فما تزالُ هذه الآراء محلَّ جدلٍ كبير حتى اليوم، فيتّفق جميعُ آباء الكنيسة على أنّ للاتصال الجنسي غرضًا واحدًا فقط، هو إنجابُ الأطفال، وهُم يؤمنون إيمانًا قاطعًا بأنّ إشباع الرغبة الجنسيّة بحدّ ذاتها خطيئة، كما أنّها نتيجة الانحلال الخلقي لدى الإنسان، ويعبر القديس جريجوري عن هذا المبدأ بقوله:

---

(١) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣٢٧).

(٢) إبراهيم الحيدري (٢٠١١).

(٣) الخوري الفغالي (٢٠٠٩، ص٢٦٧).

(٤) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩، ج٢/ ص٢٩٨).

«حين لا يكون حبّ إنجاب الذريّة، بل حبّ المتعة هو الذي يحكمُ عملية الاتّصال الجنسي؛ فإنّ الأزواج يرتكبون أمرًا يجعلهم يبكون ويحزنون بسببه». إنّ الدّين المسيحيّ أباح لهم ذلك، ولكنّه حذّرهم من أن يكون الاتّصال الجنسيّ بقصد المتعة، وفي رأي كثيرٍ من العلماء البروتستانت لا يمكن أنْ نجدَ في الإنجيل تحقيرًا للحبّ الجنسي والزّواج الذي نادى به آباءُ الكنيسة[١].

وتمسّك آباء الكنيسة بأنّ الطّهر والنّقاء هما الحالة المُثلى للرجال والنساء، وأنّ السيدة مريم أمّ المسيح- عليهما السلام- كانت عذراء، وأنّ الكنيسة هي عروسُ المسيح العذراء، ومِن ثمّ فإنّ الحالة المُثلى هي الإحجامُ عن الاتصال الجنسي، بل وحتّى عن الزواج؛ لذا يقول القديسُ أمبروز: «إنّ أولئك الذين لا يتزوّجون كالملائكةِ في السماء»،[٢] وهو ما يُعرف بالإمساك الجنسي (Continence) وهو إمساكٌ اختياريّ مؤقت، أو إمساكٌ دائم عن العلاقات الجنسيّة[٣].

جاء على لسان القدّيس بولس نفسِه ما يفيد منه إباحة الزواج لرجال الدين، فالمسيحيّة لم تحرّم الزواج على رجال الدّين، ولكنها فضّلت لهم حياةَ العزوبة، فقد حرصتِ الكنيسة على مبدأ عزوبة رجال الدّين في تشريعاتها، وطلبت من جميع القساوسة أنْ يطردوا مِن منازلهم مَنْ يحللْنَ لهنّ من النساء، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوّجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزوجاتِهم بشرط أن يعاملهن كأخواتٍ ولا يعاشرنهنّ

(١) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦١- ١٦٣).
(٢) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦٢).
(٣) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٦٥).

كزوجات، والواقع أنّ البابويّة لقيت في ذلك العصر معارضةً شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ من رجال الدّين، ومن بعض بعيدي النظر الذين خشوْا عاقبة انتشار الزنا، والزواج العرفي بين رجال الدّين[١].

إنّ موضوع عزوبيّة رجال الكنيسة أدّى إلى كثير من الرذائل لأنّه مخالف في الواقع للطبيعة البشريّة، فكان لرجالِ الدّين مغامراتٌ جنسيّة غير مشروعة تفوق بكثيرٍ مفاسدَ غيرهم من غير رجال الدّين.[٢] وقد وضعت الكنيسة العديدَ مِن التشريعات التي تعمل على الحدّ من انتشار الانحراف الجنسي خاصّةً في المجتمع الأوروبّي، فقد وجدت الكنيسةُ بعد القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)، ضرورةَ مصادقتها على الزّواج حتى يصبح شرعيًّا، وفرضت حضور أحدِ القسس حفلَ الزّواج، أمّا السنّ المألوفة للزواج فهو سنّ البلوغ، فقد كان الثانية عشر للبنتِ والرابعة عشر للولد، وهناك بعضُ الحالات الاستثنائية خاصّةً إذا وجدت حقوقٌ ملكية[٣].

رفعت مبادئ المسيحية من مكانة المرأة، كما قدّستها المسيحية على أساس أنّها السيدة مريم العذراء والدة السيد المسيح- عليهما السلام-، ولكنّ نظريات الكنيسة كانت بوجْهٍ عام معادية للمرأة باعتبارها حواء التي أخرجت آدم- عليه السلام- من الجنّة، ولذلك غالتْ بعضُ قوانين الكنيسة في إخضاع المرأة، فقد نظر رجال الدّين إلى المرأة على أنّها شرٌّ وإغْواء، وكارثة، وخطرٌ، وفتنة؛ ولكنّها أيضًا عنصرًا مرغوبًا.

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١٥- ١٧).
(٢) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٣٩).
(٣) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦- ٢٨٧).

في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى، تكوّنت نظرياتٌ تنادي بأنّ «المرأة بوابة الشيطان، وطريقُ الشرّ، ولدغة الحيّة. وفي كلمة موجزة، المرأة موضوع خطير»،[١] بل إنّ آباء الكنيسة استكثروا أن تكون للمرأة روحٌ علويّة، فبحثوا في ذلك، وأوشكوا أن يلحقوها بزمْرةِ الحيوان الذي لا روحَ له بعد فناءِ جسده[٢].

وإذا كانت المرأةُ هي حواءَ التي خسرَ بسببها الجنس البشري جناتِ عدن، وأنّها أداةُ الشيطان التي تقود الرّجال إلى الجحيم؛ فقد أصبحتْ في نظر البعض في منزلةٍ أقلّ من منزلة «رقيق الأرض»،[٣] وساد الاعتقادُ في العصور الوسطي أن المرأةَ تخضع للرّجل بحكم ضعفها الجسمي والعقلي، ورغم ذلك نادى القانونُ الكنسيّ بوجوب حماية الرّجل للمرأة، وكما أنّ الله مبدأ كلّ شيء ومنتهاه؛ فإنّ الرجل مبدأ المرأة[٤].

كان السادةُ الإقطاعيون في العصور الوسطي الأوروبيّة ينظرون للنساء باعتبارهنّ أدواتٍ للمتعة الجسديّة وإنجاب الأطفال لا غير،[٥] وفي الوقت نفسه ظهرت في أوروبا بعضُ الأفكار الدينية المتطرّفة الخاصة بالجنس وعلاقة الرجل بالمرأة، فقد كان المذهب الكاثاري (الألبجنسي Albigenses) يمنع من أكل أيّة لحوم أو حتى البيض الذي نتجَ

(١) راجع: اسمت غنيم (١٩٨٣، ص١٥- ١٦).

(2) Friedrich Heer (1962 ، PP. 264 – 265).

(٣) الفلاح أو القن في العصور الوسطى كان يتبع الأرض أينما ذهبت، فإذا بيعت مساحة من الأرض من أمير إلى قرينه، بيعت بمَنْ عليها من الفلاحين، ومن هنا جاءت تسميتهم برقيق الأرض. انظر: أشرف صالح محمد، عمرو عبد العزيز منير (٢٠١٨).

(٤) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٩).

(٥) زينب عبد المجيد عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٤).

عن اللّقاء الجنسي، وكانت المرأة الحاملُ بالنسبة لهم شخصًا مَنبوذًا، وفي الوقت نفسه كانوا يتمتّعون بحرية واسعة في أسلوب حياتِهم، لاسيما في شئون الجنس[1].

كان أحدُ الملامح الأصليّة لاتجاهات الناس الجنسيّة قبل اندلاع الحروب الصليبية؛ يتمثّل في أنهم محكومون بردودِ الأفعال تجاه الخطيئة وتقديرهم لعواقبها، ولم يكن أيّ جانب من السلوك الإنساني والتفاعل الاجتماعي مُحصنًا ضدّ وصمة الوقوع في براثن الرّذيلة، وأولئك الذين كانت حياتهم موجهةً عمدًا في بيئة اجتماعية وأنظمة بشكلٍ صارم- مثل القساوسة العُزاب والزّهاد والرّهبان والرّاهبات- هُم فقط الذين كان يمكنُهم أن يأمنوا في تجنّب بعض السقطات التي لا تحصى في الوجود اليومي.((٢))

لقد أجمعَ مَنْ كتبوا حول الموضوعات الأخلاقيّة في العصور الوسطى على أنّ ممارسة الجنس شيء نجس، عملٌ آثمٌ يدنّس الجسد والروح معًا،((٣)) وهكذا كان مِن الصعب أن يكون الجنسُ بأي شكل على وفاقٍ مع المُثل العُليا المسيحيّة، وحتى في الزواج، كان الجماع يشوبه- دائمًا- نحوٌ من خطيئة الشهوة الجنسيّة. ولكنّه في الوقت نفسه كان لزامًا

(١) موريس كين (٢٠٠٢، ص١٢٨).

اكتسب الألبجنسيون لقبهم مِن تكاثر عددهم في المنطقة المحيطة ببلدة (ألبي) في جنوب فرنسا، وكان هؤلاء يستخدمون العهد الجديد (الإنجيل) كأساس لأفكارهم، إلا أن تلك الأفكار كانت منحرفة. إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص٢٦٠). وللمزيد عن المذهب الكاثاري، راجع:

Weber ، N. (1907). Costen (1997 ، pp.59 -78). Nicholson (2004 ، pp.56 - 57 ، 164 - 166). Cross & Livingstone (2005 ، p.303). Lock (2006، pp.162 - 164).Barber (2014، p.78).

(٢) جوناثان ريلي سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص٥٧).

(3) Mary Douglas (1966 ، p.3 ، 130 ، 132). Pierre J. Payer (1980 ، vol. 6 ، Pp.370 - 371). Jean-Louis Flandrin (1982 ، Pp.102 - 105.

على الزوجين إقامةَ علاقات جنسيّة عند الحاجة. مع الامتناع عن الجِماع لفترات قصيرة برضاء الطّرفين اتّباعًا لتعاليم القدّيس بول، فضلًا عن ذلك فقد تضاربتِ الأقوال في كتب الغفران إبّان بداية العصور الوسطى حول إلزامِ المتزوّجين بالابْتعاد عن الجِماع خلال فتراتٍ هامّة من العام الكنسي. أمّا الأشخاص الذين يؤدون كفارةً مثل الحجّاج على سبيل المثال، فهؤلاء كان يجبُ عليهم الامتناع التامّ عن الجنس(١).

الواقع أن العصور الوسطى كانت- بوجهٍ عام- أكثر تسامحًا في مسائل الحياة الجنسيّة عن كثيرٍ من العصور التي سبقتها، أو التي جاءت بعدها، فلم يكن هناك أحدٌ من أهل تلك العصور- مع استثناء القساوسة والرّهبان والرّاهبات- يرغب في كبْتِ نزعاته الجنسيّة، إنّما كان ينفث عن هذه النزاعات بشكلٍ مَستور فيه الكثير من الرّياء والمواربة، فإذا ما أفلح الشخصُ في ذلك أمكنه الاستمتاعُ بهذه اللّذائذ الجسديّة كما يرغب ويُريد، في حين كان رجالُ الدّين يريدون القضاءَ على هذه النّزعات، ويعتبرونها رجسًا من عمل الشيطان(٢).

لقد طرأ على الحياة في العصور الوسطى الكثيرُ من التغيّرات والتطورات البعيدة الأثر، وإذا أردنا أن نصفَ تلك العصور وصفًا دقيقًا متميّزًا؛ فلا نجد أحسن وأدقّ من قولنا إنّها كانت في جوهرها عصر التملق والرياء والمظاهر الكاذبة، وهذا ينطبق على العلاقات السياسية كما ينطبق بشكل أدقّ على العلاقات الجنسية. فقد كان كلّ شيء في ظاهر الأمر يتركّز حول مبدأ الولاء والإخلاص، فنظامُ الإقطاع كان يعتمد- كلّ الاعتماد- على ولاء

(١) حسن عبد الوهاب (١٩٩٧، ص١٧١).

James A. Brundage (1985 ، p.57).

(٢) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٤١).

وإخلاص التابعِ أو رفيق الأرض لسيّده صاحبِ الأرض، وإن كان يحملُ في قرارة نفسه ضغنًا مريرًا لصاحب الأرض. والحياة الزوجية بدورها تعتمدُ على الإخلاص الزوجي، ذلك الإخلاصُ الذي لم يتركْ موْضعًا لأيّة علاقة جنسيّة أخرى غير شرعية، وإن كان كلّ من الزوجين يهفو إلى رفيقٍ آخر، وإنْ لم يفصح عن ذلك جهرًا وعلانية.

غير أنّ هذا التسامي بعقيدة الولاء والإخلاص، كان له ردُّ فعلٍ آخر يتّصف هو أيضًا بالتّسامي، ولكنه سموٌّ من نوع آخر عجيب، أي سموٌّ بالخيانة الزوجية والارتفاع بها إلى مستوى رفيع، فهي ليست عارًا، ولكنّها فنٌّ جميل مادام الشخص الذي يمارسها يراعي تقاليدَ المجتمع المتأدّب، وعنده الاستعداد لانْتضاء السيف بل والموت في سبيل مَنْ يحبّ إذا اقتضى الأمر ذلك. ومِن عجبٍ أنّ الألفاظ المستعمَلة في قانون الأدب والأخلاق الفاضلة مثلَ: الشرف، والطهر، والفضيلة قدْ استُخْدمت بعينها في ميدان الفسق والفجور والخيانة الزوجيّة؛ إذْ كانت هذه الألفاظ وأمثالُها تدور على ألسنة الأبطال الذين غدَروا بزوجات الرّجال الآخرين، واتّخذوا منهنّ عشيقات ومحظِيّات.

لقد كانَ منَ النّادر أن يتزوّج فارسٌ من فرسان العصور الوسطى قبلَ أن تكون له غزواتٌ ومعاركُ مشهودةٌ في ميدان الفسق والفجور، وتمرّسٌ في فنّ إغراء الزوجات، وأن يكون قد خرج من تلك المعارك العديدة التي خاضها بتذكارات تشهدُ بانتصاراته في هذا الميدان العجيب، ميدان الجنس، وإلّا عُدّ من الفرسان الخاملين الذين لا يستأهلون، ولا حتى مهماز الجواد الذي يمتطونه. لقد كان الفسقُ والفجور والزنا عبارة عن تسلية اجتماعية بين أهلِ الطبقة العليا[١].

(١) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٤٢).

اشتراكُ البغايا في الحملات الصليبيّة على الشرق:

قام البابا (Urban II) أوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩م/ ٤٨١ -٤٩٣هـ)[١] بالدعوة للحروب الصليبيّة في مجمع كليرمونت سنة (١٠٩٥م/ ٤٨٨ه)، مستغلًّا رغبة الأوروبيّين في الغفران؛ فأعطاهم الكثيرَ من الامتيازات، وأمّن لهم طريق الخلاص عن طريق القَسَم لكلّ مَنْ شاركوا في الحملة الصليبيّة[٢]. وعندما انتشرت أنباءُ ما أعلنه أوربان الثاني في كليرمونت في أرجاء الغرب الأوروبي؛ أخذ الرّجال والنساء من جميع الطبقات ومِن جميع المهن والحرف شارةَ الصليب، وفقد أوربان السيطرةَ على مسألة الأفراد[٣].

منذُ البداية، فهِمَ الرّجال والنساء الذين شَعُروا أنهم محبوسون في عالمٍ من الرّذيلة لا يمكنهم الفرارُ منه فهماً كاملًا؛ أنّ الحملة الصليبيّة توفّر لهم فرصة البدايةً من جديد،[٤] فقد انفصل الزوجُ عن زوجته، والمرأةُ عن بعْلها، وفارقَ الآباء أبناءهم، والأبناءُ آباءهم، ولم يستطعْ أي رباطِ محبّة أن يحول دونَ هذه الحماسة، كما غادر كثيرٌ من الرهبان أديرتهم[٥]. كما أنّ المرأة التي ترسل زوجها العزيز-حسب الاعتقاد السائد حينئذ- في مثل هذه الرحلة بملء إرادتها، شريطةَ العيش في الوطن عيشةً فاضلة بإجماع الكلّ؛

---

(1) See: The Oxford Dictionary of Byzantium (1991 ، Vol.3 ، Pp. 2143 - 2144).

راجع: كلود كاهن (١٩٩٥، ص٧٧ - ٩٠).

(2) D. S. Chambers (2006 ، p. 12).

راجع: كلود كاهن (١٩٩٥، ص٧٧ - ٩٠)

(٣) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص٧٤).

(٤) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص١٦٠).

(٥) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص١٠٦).

تكونُ قد شاركت بهذا نصفَ ثوابه، فإنّها سوف تُصلي من أجلهما سويًّا هنا، وهو سوف يذهب ويحاربُ من أجلهما سويًّا هناك(١).

وكان مألوفًا منذ الحملة الصليبيّة الأولى أنْ يصاحب النساء أزواجَهن، لكن دوافع الصليبيّات كانت أي شيء فيما عدا الناحية الروحية، وأنّ وجودهن في الجيش الصليبي كان مثيرًا للفوضى والاضطراب، وجذبَ نساء يحيط الشكّ بسلوكِهنّ،(٢) ذلك أن كثيرًا ممّنِ اشتركوا في الحملات الصليبيّة لم يأتوا إلى الشرق لتكفير الذّنوب، لكنهم جاءوا مُرْغمين هروبًا من العقوبات التي فُرضت عليهم بسبب ما ارْتكبوه من جرائم، ومِن ثمّ غدتِ الإمارات الصليبيّة بشكلٍ عام ومملكة بيت المقدس الأولى والثانية- مملكة عكا- تستقبل كلّ عام الآلافَ من الوافدين ممّنْ حكمت عليهم المحاكمُ الأوروبية بالنفي إلى الساحل الشامي بدلًا من عقابهم في أوروبا،(٣) ولكن سيكون من المفيد أنْ نفترض أنه بسببِ أنشطة النّساء كغسل الملابس أو الطهي أو ممارسة البغاء، فهؤلاء النّساء لم يكنْ لديهنّ دوافع دينية عند الانْضمام إلى جيش الحملة الصليبية(٤).

إنّ هذا التناقض في سلوكيّات الصليبيّين يوازيه تناقضٌ آخر في انْتماءاتهم الاجتماعية وأفكارهم ودوافِعهم، فقد كانوا خليطًا غريبًا من المغامرين والأتقياء، من الحجّاج واللّصوص، من الجنود وشذّاذ الآفاق، من النّبلاء والفلّاحين، من المثاليّين والهاربين من العدالة، كانوا رجالًا ونساءً وأطفالًا وشيوخًا من شتّى الطبقات ومختلف المشارب، تحرّكهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدّوافع(٥).

---

(١) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص١٩٦- ١٩٧).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٨١).

(٣) محمد فوزي رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٥).

(4) Cristoph. T. Maier (2004، pp. 69 – 70).

(٥) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩، ص٧١).

وفدتْ من الغرب الأوروبي إلى الشام أعدادٌ كبيرة من الأوباش، وفئرانُ أرصفة الموانئ، ومتسكّعوا الشواطئ، ولصوصُ الأرض والبحر، والشّحاذون، والمَشَعْوذون، وأراذلُ أوروبا[١].

في بداية الحركة الصليبيّة، كانت البابوية حريصةً على ألّا تخرج النساء في الحملات دونَ صحبةِ أزواجهن، وكذلك لا يخرج الرّجال المتزوّجون بلا إذن زوجاتهنّ،[٢] لكنّ هذه القيود تركت أثرًا سلبيًّا على أعداد المشاركين في الحملات، فقامتِ البابوية بإلغاء هذا الشرط حتى صارت تحذّر الرّجال من السماع لإغواء زوجاتهم للتقاعد عن الوفاء بالنّذر الصليبي. وعلى ذلك، فقد جاءت الحملات الصليبيّة إلى الشرق وفيها النّساء على كلّ الأشكال متزوجات، وغير متزوجات، طاهرات عفيفات، وداعرات محترفات، ونساء ذات وضع مُبْهم، ممّا أسهم في توفير مناخ الانْحراف لكثيرٍ من العفيفات فتحوّلن إلى الغواية، ويبدو أنّ الأمر صار مشهورًا للعالم أجمع حتّى شاع مثلٌ شعبيّ ألماني يقول «يذهبْن حجاجًا ويعدْن فجارًا»[٣].

كانت الحملات الصليبيّة سببًا في زيادة البغاء زيادة خارقة، كان في وسع الأتقياء من المحاربين أن يحتملوا الابتعادَ عن زوجاتهم، رغم ما فيه من الألم، بيْدَ أنّ الزهد الجنسي لعدة سنوات أمرٌ لا يُطاق بحال ما،[٤] وقد لجأ دعاة الحروب الصليبيّة والمنظمون لها إلى جلبِ أعدادٍ من النساء من غرب أوروبا وجزر البحر المتوسط إلى بلاد الشام؛ لسدّ حاجةِ

---

(١) محمود الحويري (١٩٧٩، ص٤٩).

(٢) حسام حلمي يوسف (٢٠٠٧، ص٢٨١).

(٣) فوشيه الشارتري (١٩٩٠، ص٤٩ – ٥٥). حسن عبد الوهاب (١٩٩٧، ص١٧٣). محمد فوزي رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

(٤) ريتشارد لوينسون (١٩٦٥، ص١٩٢).

المجتمع الصليبي في الشرق، ومحاربة الأمراض الاجتماعية التي فشتْ في ذلك المجتمع،[١] وإذا قمنا باستعراض نوعية وأعداد النساء المشاركات في الحملات الصليبيّة على الشرق العربي الإسلامي، سوف نجدُ أنّ عددَ البغايا في كلّ الحملات لم يكنْ بالقليل،[٢] ومن الإحصاءات المدوّنة في سجلّات الحملات الصليبيّة أنه لزم لها في سنة واحدة ثلاثة عشر ألفًا من المومسات،[٣] ممّا ساعد على الانحراف الجنسي في كلّ طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام، وغيرها.

يقول ابن كثير: وأمداد الفرنج تصلُ من البحر من كلّ وقت حتى إنّ نساء الفرنج ليخرجنَ بنيّة القتال، ومنهنّ منْ تأتي بنيّة راحة الغرباء، لينكحوها في الغربة، فيجدونَ راحةً وخدمة وقضاءَ وطرٍ، فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة، حتى إنّ كثيرًا من فسقَةِ المسلمين تحيّزوا إليهم من أجلِ هذه النسوة، واشتهر الخبرُ بذلك.[٤]

في الحملة الصليبيّة الأولى (الشعبيّة)[٥] نجد أن البابا أوربان الثاني قد اتفق مع رؤساء الحملة المسئولين على كيفية تنظيمِها، والأشخاص الممنوع إلحاقهم بها، مثل النساء غير المتزوجات، والمسنّين من الجنسين، وأصحاب العاهات، لكنّ بطرس الناسك[٦] ضربَ

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٨٩، ع٣٧١، ص٤٦).

(2) Suzanne Helen Corry (1997، P.78).

(٣) ريتشارد لوينسون (١٩٦٥، ص١٩٣).

(٤) علي محمد الصلابي (٢٠٠٨، ص٦٣٤).

(٥) راجع: محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص٧١ – ٧٢).

(٦) بطرس الناسك (Peter the Hermit): واعظ الحملة الصليبيّة الأولى، ولد في إميان سنة ١٠٥٠م، وتوفي في ٨ يوليو ١١١٥م، كان قصيرًا داكنًا، ولم يكن حاضرًا عندما أعلن البابا أوربان الثاني عن الحملة الصليبيّة الأولى، لكنه بعد ذلك بوقت قصير كان يدعو إلى الحملة الصليبيّة في جمهور المتحمسين في شمال فرنسا. انظر:

New Catholic Encyclopedia (2003، Vol. 11/ p.207).

بتعليمات البابا عرضَ الحائط، وخرج من اللورين في فرنسا مع عصابته المؤلّفَة من خمسة عشر ألفَ شخص، بعدما حدّد مركز التّجمع في كولونيا،[1] فاستطاع بطرس الناسك بفضل ما أوتيه من قوة الخطابة وقدرةٍ على الإقناع؛ أنْ يحثّ الكثيرين على الانخراط في الحملة الصليبيّة الشعبية بأسرع ما يمكن، فكان معه أساقفة، ورؤساء أديرة، وعامّة الشعب، والأشراف؛ بالإضافة إلى الأشرار، والزّناة، والقتلة، واللّصوص.[2] فإنّ كثيرًا من شتّى الأوباش قد الْتحقوا بالعسكر الصليبي، لا لكي يكفّروا عن الخطايا، بل لكي يقترفوا خطايا جديدة.[3]

وكان جيشُ (وليم النجار) في الحملة الصليبيّة الشعبيّة يتألّف من ذلك الخليط المُعتاد من المغامرين والمُعْدمين من الرّجال والنّساء والشيوخ والأطفال، فقد كانت هذه المجموعة من الرّجال الخَطَأَة والنساء والأطفال الذين رأوا في الحملة الصليبيّة مجرّدَ رحلة للمتعة.[4] وكان «والتر المفلس» (Walter San Savoir) فارسًا نبيل المولد، وكان جيشه يضمّ عددًا من النساء والأطفال،[5] فكلّ الجماهير الشعبية من الفلاحين واللّصوص والقتلة وقُطّاع الطرق، وكلّ المسيحيّين حتى العنصر النسائي سارع للمشاركة في هذه الحملة[6].

---

(١) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٩٤).

(2) August Krey (1921 ، pp. 48- 52).

(٣) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص٥٧).

(٤) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩، ص١٣٤- ١٣٥).

(٥) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩، ص١٢٨). وراجع:

Edgington ، Susan B. (2007 ، P. 41). Jonathan Riley-Smith (2005 ، P. 27).

(٦) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص٩).

أمّا في الحملة الصليبيّة الأولى (النظامية)،[١] فإنّ عددًا كبيرًا من الفرسان اصطحبوا معهم عقائِلَهم، فريمون كونت تولوز،[٢] صحبته زوجتُه، وجاء أيضًا مع بلدوين زوجتُه وأطفاله، وكلّ هؤلاء السيدات جلبنَ معهنّ وصيفات، ولا شكّ أنه كان مع الجيش عددٌ كبير من النساء الوضيعات والشّريفات والمُنحرفات. وكانت نسبةُ غير المحاربين الدّائمين من النساء والشيوخ والأطفال لا تتجاوز- بحالٍ من الأحوال- ربعَ القوّة بأكملها.[٣] فعندما زحف الصليبيّون إلى نيقية- عاصمة سلاجقة الروم- كان عددُهم ثلاثمائة ألفَ مقاتل، بدون تعداد النّساء والأطفال[٤].

كان عددُ النساء الشريفات والمُنحرفات في الحملة الصليبيّة الأولى الشعبيّة والنظاميّة يفوق أيّ عددٍ آخر من النساء المشتركات في الحملات الصليبيّة الأخرى، فقد ذكر ألبرت فون آخن بأنّ الأتراك في إحدى الجولات أسَروا حوالي ألفَ امرأة صليبيّة، وأخذوهنّ معهم إلى بلاد غريبة.[٥] بل إنّ وليم الصوري (١١٣٠- ١١٨٦م/ ٥٢٤ - ٥٨٢هـ) يذكرُ عددًا يفوق ذلك بكثير ينُمّ عن ضخامة النّسوة المشتركات في الحملة الصليبيّة الأولى، فيقول عن تفشي الطاعون بين الصليبيّين إثرَ فكّ الحصار عن مدينة أنطاكيا:

---

(١) راجع: محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص٧٥ – ٨٧).

(٢) هو ريمون الرابع السانجيلي قائد قوات بروفانس ولانجدوك في الحملة الصليبيّة الأولى، وهو أقوى سادة فرنسا الإقطاعيين، فهو يحوز ثلاث عشرة كونتية في بروفانس ولانجدوك. راجع: ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص١٢٨).

(٣) ستيفن رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص٥٠٤).

(٤) أوتو أسقف فريزنغ (١٩٩٧، ج٢٨/ ص٣٢٩). عن دور النساء الأوروبيّات في الحملة الصليبيّة الأولى على الأرض المقدسة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، راجع: جلال حسني سلامة (٢٠١٤، ص٢٧٣٣ -٢٧٤٨).

(٥) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص٢١٤).

«تفشّى هذا الطاعون أكثر ما تفشّى في النساء على وجْه الخصوص، حتى لقد هلكَ منهنّ فيه ما يقربُ من خمسين ألفَ امرأة في أيّام قلائل»،[1] فإذا كان عددُ النساء المتوفّيات في هذا الطاعون نحوَ خمسين ألفَ امرأة، فممّا لا شك فيه أنّ مَنْ قُتلنَ في ساحات الحرب ومَنْ تبقّى منهنّ كان يفوق هذا العددَ بكثير.

وهناك مَنْ يرى أنّ ذلك التقدير لعدد النساء اللاتي متْنَ بسبب ذلك الطاعون مبالَغ فيه كثيرًا، ويمكن أنْ نقدر عددَ جميع النساء المشاركات في الحملة الأولى– بما فيهنّ اللاتي لقين حتفهُنّ بسبب ذلك الطاعون– بخمسين ألفًا. وهو عدد معقول، وذلك إذا قدّرنا أن عددَ المشاركين في الحملة جميعًا ما بين المائة والستين ألفًا والثلاثمائة ألفًا. ونفترض أنّ الرّجال الذين اصطحبوا نساءهم هم المقتدرون فقط على تحمّل تكاليف رحلةٍ طويلة وشاقّة، وهُم الفرسان الذين يقدّر عددهم وليم الصوري بسبعين ألفًا. إنّ مشاركة المرأة بنسبة حوالي الربع في الحملة الصليبيّة تعطي إشارةً واضحة إلى عِظَم مشاركتها آنذاك في حملة عسكريّة بعيدة ومحفوفة بمخاطر كثيرة[2].

أمّا في الحملة الصليبيّة الثانية،[3] فقد انضمّ إلى الجيش الألماني والفرنسي الكثيرُ من زوجات البارونات وبناتهم وخدمهم، كما لحق بهم أَرْهَاط من الصعاليك والفقراء والأولاد والحجاج، كما حصل في الحملة الأولى.[4] فقد كان الجيش الصليبي في الحملة الثانية مثيرًا للفوضى والاضطراب، وجذب نساء يحيط الشكّ بسلوكهنّ، واقتدى بملك

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٩).
(٢) جمال محمد الزنكي (٢٠٠٨، ص١٩).
(3) See: William of Tyre (1943 ، Vol.2 ، Pp.163 - 194).
(٤) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٢٩٥).

فرنسا لويس السابع عددٌ كبير من النّبلاء الذين اصطحبوا معهم زوجاتهم، وكان لا بدّ من وجود الجواري بينهنّ، ممّا ضاعف عددُ النساء في المعسكر الصليبي الذي كان ينبغي أن تسوده الطهارة، وقد جلب ذلك العارَ على الجيش الصليبي،[١] غير أنّ الذين قدموا إلى الأرض المقدسة- في الحملة الصليبيّة الثانية- لم يجلبوا إلّا عددًا قليلًا من النساء بالمقارنة مع عددِ الرّجال في جيش الأمراء الغربيّين[٢] في الحملة الصليبيّة الأولى بشقّيها الشعبي والنظامي.

إنّ المتتبّع السريع للحملات الصليبيّة المتوالية يلاحظُ- بوضوح- كثرةَ النساء سيّئات السّمعة الذين صاحبوا تلك الجيوش خاصّةً الحملة الصليبيّة الثالثة التي صحبها عددٌ كبير من النساء سيّئات السمعة للتّرفيه عن المقاتلين، وهو أمرٌ عرفَهُ كلّ مَنْ عاصر الحملة.[٣] يقول الأصفهاني عن قدوم البغايا من أوروبا في وقت أحداث الحملة الصليبيّة الثالثة: «وصلت في مركبٍ ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسَنَة، متحلّية بشبابها وحُسنها، فوصلنَ وقدْ سبلنَ أنفسهنّ، وذكرنَ أنهنّ قصدنَ بخروجهنّ تسبيلَ فروجهنّ، وأنهنّ لا يمتنعنَ عن الغرباء، ورأينَ أنهنّ لا يتقربنَ بأفضلَ مِن هذا القربان، وتفرّدنَ بما ضربْنَه من الخيم والقباب، وانضمت إليهنّ أترابُهنّ من الحِسان الشواب، ونفقنَ سوق الفسوق، وعرض الإمتاع بالمتاع، وسمحنَ بالسّلعة لذوي الإعْواز، وشفين غليلَ العشاق، وزعمْنَ أنّ هذه قُربة ما فوقها قربة، ولا سيّما فيمنِ اجتمعتْ عنده غُربة وعُزبة».[٤] ويقول المؤرخ أبو شامة: وخرجتِ النساء للإسهام في الحملة الصليبيّة الثالثة فمنهنّ مَنْ خرج وقد لبسنَ

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٨١).

(٢) يعقوب الفتري (١٩٩٨، ص٩٧).

(٣) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٩).

(٤) الأصفهاني (٢٠٠٣، ص٢١٢- ٢١٣).

الدّروع، وكنّ في زيّ الرّجال للاشتراك في المعارك بأنفسهنّ؛ لاعتقادهنّ أن ذلك عبادة، ومنهنّ مَنْ خرجنَ لإسعاف الغرباء، وإسعادِ الصليبيّين بتسبيلِ أنفسهنّ للاستمتاع بهنّ حتى لا يتسرّب الملل إلى نفوس المحاربين[١].

ومِن بين مَنْ خرجوا للحرب في الحملة الصليبيّة الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤م)، بلدوين كونت فلاندرز، وهينولت وزوجته الكونتيسا ماريا، أخت ثيبوت كونت شامبانيا[٢] إلى جانب هؤلاء النسوة، فإنّ جيش الحملة الصليبيّة الرابعة قد ضمّ العديد من البغايا والعاهرات، فعند سقوط القسطنطينية على يدِ الصليبيّين في الحملة الصليبيّة الرابعة، كانت العاهرات طوالَ الوقت يقفزنَ على مقاعد كنيسة القسطنطينية، في حين كانت إحداهنّ تجلس على مقعد البطريرك وتُغني عن مباهج العِشق.[٣] واشتركتِ العاهراتُ الأوروبيّات أيضًا في الحملة الصليبيّة الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١م) على مصر، فقبلَ الهجوم الصليبي على برج السلسلة في دمياط، قام المندوب البابوي (بيلاج) بطردِ العاهرات، وأنذرهنّ بالجَلْد وتعريضهنّ للخطر؛ إذا اقتربنَ من معسكر المسيحيّين[٤].

وفي الحملة الصليبيّة السابعة على مصر أيضًا، اشترك فيها عددٌ كبير من النّساء الفاضلات أيضًا، مثل الكونتيسة (دانجوبتريكس) زوجة (شارل دانجو) ملك صقلية، وأخت ملكة فرنسا، والكونتيسة (دارتوا) زوجة (روبرت الأول) كونت ارتوا، و(جانيت دي تولوز) كونتيسة بواتييه،[٥] غير أن السيدات في الحملة الصليبيّة السابعة كنّ يشكلنَ مشكلةً خطيرة، فقد كان مسموحًا فقط في البداية للغسّالات بمرافقة الأسياد؛ حيث

---

(١) علي محمد الصلابي (٢٠٠٨، ص٦٣٤).
(٢) جودفري فلهاردون (١٤٠٣هـ، ص٤٧).
(٣) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص٢٢٣).
(٤) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص١٣٤).
(٥) مجهول (١٩٨٩، ص٢٠٥).

كان لا غنى عنهنّ، وكان من المفضّل أن يكنّ مُتقدمات في السنّ، حتى لا يثرنَ شهواتِ الرجال، ولكن هذا لم يمنعْ سيدات كثيرات من كلّ المستويات من الانضمام لهم، فالنقودُ السّهلة تسمحُ بالخوض في كلّ المخاطر.(١) بعد فترة البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م/ ٥٩٥ – ٦١٣هـ)،(٢) ما زالت النساء يشكلنَ جزءًا من القوّات الصليبيّة. ويكشف تحليلٌ لقائمة ركّاب حاملة لنقل السّفن التي كانت في طريقها للانضمام إلى قوات لويس التاسع إلى بلاد الشام في سنة (١٢٥٠م/ ٦٤٨ه)؛ أنّ من بين (٤٥٣) راكبًا كانت هناك نحْو (٤٢) امرأة، أي حوالي (٩ ٪) من النساء، ولا نعرف ما هو وضع هؤلاء النساء بالضبط، وما هو الدور الذي اعتزمنَ القيام به؟(٣).

وعندما قاد الصبي الألماني (نيقولا Nicholas) حملةَ الأطفال من كولجن (Cologne) كانت حملتُه الصليبيّة تشتمل على الرّجال والنساء والأطفال والرّضّع، لكن الأغلبية كانت من الشباب، هذا فضلًا عن الأشرار من الرّجال والنساء الذين التحقوا بالحملة،(٤) فمنْ بين العشرين ألفًا الذين انْضمّوا إلى نيقولا، كان يوجد بعضُ النساء والبنات والشباب والخدم من الجنسين، وأبناء النّبلاء، كما انضمّ إليهم عددٌ من ذوي السّمعة السيئة من المشرّدين والعاهرات(٥).

وعندما قام الصبيّ الفرنسي ستيفن (Stephen) في سنة (١٢١٢م/ ٦٠٩هـ)، بالدّعوة إلى الحملة الصليبيّة، وأنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي، تبعهُ

(١) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٢٦٢).

(2) See: Kelly (1996 ، Pp.186 - 188).

(3) Cristoph. T. Maier (2004 ، p.73).

(4) Dana. c. Munro، (Apr.1914 ، Vol. 9، No.3 ، p.520).

(٥) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ج٢/ ص١٧٥).

حشدٌ كبير من الأطفال، وكانت هذه العُصبة تتكوّن من الصبيان والفتيات مع بعض الشباب، وكبار السن، كما انضمّ إلى المسيرة أيضًا بعضُ الفاسقين والعاهرات(١).

ولّما أظهر يعقوب أستاذ هنغاريا(٢) دعوتَه في فرنسا سنة (١٢٥١م/ ٦٥١هـ) لحملة صليبية جديدة، هجرَ رعاةُ الغنم والأبقار من الشباب والصبية والفتيات على السواء قطعانَهم دون استئذان من أهاليهم، وتجمّعوا تحت راية السيدة العذراء- راية يعقوب هنغاريا- وانضمّ إليهم اللّصوص والعاهرات والخارجون على القانون والرّهبان المرتدّوين(٣).

هذا، ولم يقتصر قدوم الداعرات من أوروبا على توقيت إرسال الحملات الصليبيّة إلى الشرق، بل استمرّ تدفقهم بأعدادٍ كبيرة طوال مدّة الوجود الصليبي في الشرق العربي. فقد لجأ الصليبيّون إلى جلب النساء من الغرب لحلّ مشكلات عديدة مثل مشكلة اللّواط (السَدُومِيَّة)(٤)، غير أن نوعية النسوة لم تكن فوق مستوى الشبهة، فبدلًا من الزواج بالعُزّاب احترفوا البِغاء، وثبّطنَ المقاتلين الصليبيّين عن القيام بواجبهم بدلًا مِن أن يكونوا مجرّد وسيلة ترفيه عنهم(٥).

---

(1) Dana. c. Munro، (Apr.1914 ، Vol. 9 ، No.3 ، p.520).

وراجع: عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٥، ص٢٨٢ – ٢٨٩).

(٢) كان يعقوب راهبًا مرتدًّا جاء من هنغاريا، وكان يُعرف باسم (أستاذ هنغاريا)، وكان زاهدًا نحيلًا في نحو السّتين من العمر، وله تأثير قوي، وقادرٌ على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية والألمانية واللاتينية. راجع: سهيل زكار (١٩٩٥، ج٤/ ص١٢٠).

(٣) سهيل زكار (١٩٩٥، ج٤/ ص١٢١).

(٤) السَدُومِيَّة (Sodomy): ممارسة الشذوذ الجنسي بطريق الشرج أو مع الحيوان. انظر: Schwartz ، Howard (2007 ، p.465).

(٥) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٥).

عملت المدنُ والجزر الأوروبية المطلّة على البحر المتوسط على مدّ مدن الساحل الشامي بتلك النساء سيئة السّمعة، وعلى رأسهنّ مدينة مرسيليا، فقد صارت تلك المدينة مقصدًا لكلّ فاسد وفاسدة يريد الرحيلَ إلى الأراضي المقدسة بدعوى تطهير أنفسهم من الذّنوب والخطايا، وكان ذلك في الظاهر. ومارسوا ما ألفوه من أعمال الدّعارة سرًّا.[١] ومن ثمّ فقد شاركت نساءٌ كثيرات في الحملات الصليبيّة ورفَهنَ عن المقاتلين، وقد وجد القادة صعوبات جسيمة في كبت النشاطات الجنسيّة لقوة الحملة، وهم لا ينجحون إلّا في فرض قيود مؤقتة، ولكنه لم يكنْ لها هيمنةٌ على الصليبيين، ولم تُحُلْ دون اشتراك النساء في حملات لم يُحسب لهنّ حساب فيها[٢].

إنّ المشروع الصليبي جذب إليه- من خلال الإغراءات الماديّة- أعدادًا غفيرة من أبناء الغرب الأوروبي، ولذلك شارك فيه الفرنسيون والإيطاليون والألمان والإنجليز والسويديون، والدنماركيون وغيرهم، وهُمْ على خلاف بين بعضهم البعض في مناطق بلادهم الأصلية على الأرض الأوروبية، مثل العداء بين الفرنسيين والإنجليز، وكذلك بين الإيطاليين والألمان وغيرهم.[٣] واستطاع المهاجرون الصليبيّون أن ينقلوا إلى مجتمعهم الجديدِ في بلاد الشام وفلسطين تقاليدَهم وعاداتهم وثقافتهم الأوروبية، ومهْما تعدّدت العناصر الاجتماعية الأوروبية التي استقرّت في هذه المناطق الصليبيّة في منطقة الشرق العربي الإسلامي في أعقاب الحملة الصليبيّة الأولى والفترات التالية لها؛ فإنّ هذه العناصر الصليبيّة استطاعت أنْ تنشئ نمطًا من المجتمع الأوروبي[٤].

(١) يوشع براور (٢٠٠١، ص٢٤٠). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦، ص١٣٣).
(٢) ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص٦٧).
(٣) محمد مؤنس عوض (٢٠٠١، ص٤٤).
(٤) يوشع براور (٢٠٠١، ص٦٠٠).

إنّ الحروب الصليبيّة، وإنِ اصطبغت بالصّبغة الدينية، إلّا أنّ الدّين لم يكن الدّافع الأساسي لقيامها،[١] وإنّما كان قناعًا لتغطية العدوان، ولعلّ من أبرز الأدلة على فساد الدّافع الديني وزيفِه، هو حياة اللّهو والفجور التي كان يحيى فيها الفرنج الوافدون إلى الشرق، ومنابع الحركة الصليبيّة عامرة بالأمثلة التي تشهدُ بذلك، فقد انغمسوا في الملذّات مع الأوروبيّات اللائي أحضروهنّ من الغرب، وأقاموا معهنّ في المستعمرات التي أسسوها في فلسطين.[٢]

لم يقتصر منبعُ الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة على الدّاعرات القادمات من الغرب الأوروبي في الحملات الصليبيّة أو في فترات السّلم، بل كان ممّنْ وُلد في الشرق العربي من أصول أوروبية وشرقية مَن انْتهجَ نهجَ الانحراف الجنسي وكان مصدرًا له.

ذلك أنّ الصليبيّين الذين ولدوا في بلاد الشام وعاشوا بين المسلمين، نشأت بينهم علاقات اجتماعية متعدّدة، بل ومنهم مَنْ تزوّج من عناصر من المسيحيّات الشرقيّات،[٣] وبدأت المؤثّرات الشرقية تغزو العناصر الصليبية، بل إنّ جيلَ الأفراخ أو المولّدين[٤] الذين نتجوا عن عملية التزاوج المشار إليها، وصف بالضعف والتخنّث، وارتكنَ إلى الدّعة والابتعاد عن ساحات القتال[٥].

---

(١) راجع: عبد الله الربيعي (١٩٩٦، ص٧٩-١٢٢).

(٢) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٩، ص٩١-٩٢).

(٣) يعرف هذا الأمر بالزواج المختلط (Mixed Marriage) وهو زواج يُعقد بين مسيحيين ينتميان إلى كنيستين مختلفتين. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٤٤٤).

(٤) يطلق على هؤلاء اسم البولان (Poulains) وهم المولدون تمييزًا لهم عن الصليبيّين الذين يجيئون ثمّ يرحلون، وبما أن البولان هو ابن الفرس (المُهر)، فإن فرنج الأرض المقدسة هم أبناء الجيل الأول من الصليبيّين الذين استقروا في المملكة اللاتينية في الشرق. راجع: ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص١٥٦).

(٥) محمد مؤنس عوض (٢٠٠١، ص٥١).

الجديرُ بالذكر، أنّ الأرض المقدسة صارت منفًى وعقابًا لكلّ خارج على القانون في أوروبا، فمَنْ يُحكم عليه بالإعدام أو السجن لفترة طويلة تُستبدل عقوبتُه بالنّفي إلى الأرض المقدسة، فصارت مدينة عكا- على سبيل المثال- في النصف الثاني من القرن (الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري)؛ مستودَعًا للنفايات البشرية للمجتمع الأوروبي، ومِن ثمّ انتشرت العديدُ من الأمراض الاجتماعية،(١) ومنها الانحراف الجنسي بكلّ صوره.

يقول المؤرخ يعقوب الفيتري ملخّصًا أحوال الأوروبيّين القادمين للأراضي المقدسة، وما هم عليه من فسادٍ أخلاقي وانحرافٍ جنسي بشتّى صوره: «أكثرهم رجالٌ خطرون، مجرمون أشرار، ولصوص، وزناة، داعرون، مغنيون، ممثلون، مدمنو خمر، لاعبو نرد، رهبان مرتدّون، راهبات مُومِسَات، نساء تركنَ أزواجَهنّ للعيش في بيوت الدّعارة، ورجال هربوا من زوجاتهم الشرعيّات وحصلوا على غيرهن، شعبٌ مثل هذا في الغرب قاطعًا البحر الأبيض المتوسط، غيّروا مناخهم ولم يغيّروا شخصياتهم، وقد دنّسوا الأراضي المقدسة بجرائم لا تُحصى وأفعال شائنة»(٢).

---

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١١).

(٢) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٣٤ – ١٣٥). فقد انتشرت الدّعارة في صفوف الصليبيين، ولا نغفل أنّ من رجال الكنيسة مَنْ كان يؤجر أماكن العبادة من أجل أعمال الدّعارة لما كان يدرّ عليهم ذلك من أرباح طائلة، وأنّ البابوية بُحّ صوتها لإيقاف ذلك دون جدوى. انظر: محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص١٣٣).

الفصلُ الأول

أسبابُ الانحراف الجنسي

«امتلكوا روحَ الدّعارة، وكانوا يسارعون إليها، بل إنّ الأزواج والزّوجات اعتادوا على إشعال رغباتهم الجنسيّة المتبادَلة من أجل الحصول على المال»

المستشار والتر
رئيس قضاء مدينة أنطاكية

الفصلُ الأول
أسبابُ الانحراف الجنسي

التصقتْ روحُ الميوعة والانحلال الخلقي بالصليبيين منذ بداية قدومهم إلى بلاد الشام، فانْغمسوا في كثيرٍ من الانحرافات التي اعتادوا عليها، وكان للخطايا الجنسيّة (الزنا، الدعارة، اللواط، الشذوذ الجنسي،...) وشيوعها داخل المجتمع الصليبي؛ دوافعُ وأسبابٌ يتناولها هذا الفصلُ بالعرض والتحليل.

الأسبابُ الاجتماعية

تختلف العاداتُ والتقاليد في كلّ مكان حسب تنوّع البلدان، ففرنسا لها عادات معيّنة وكذلك إنجلترا، ومصر، والهند.. كلّ لها عادات أخرى،[١] لذا هناك العديدُ من العادات الاجتماعية التي تؤثر في سلوكيات كلّ بلد دون البلدِ الآخر، وقد أدّى ذلك إلى أفعالٍ مخالفة لا يألفها البعضُ مثل الانحراف الجنسي بشتّى صوره.

ويشكّل البغاء[٢] أحدَ أشكال الانحراف الجنسي، ويزكّي التساهل الاجتماعي هذا الانحراف بشكلٍ ضِمني،[٣] ومن دوافع البغاء سوءُ التنشئة الاجتماعية، وانحطاطُ القيم والمعايير الأخلاقية السائدة وفسادُها، إلى جانبِ فساد البيئة الاجتماعية المباشرة.[٤]فقد انتشرت في المجتمع الصليبي روحُ الميوعة والانحلال الخُلقي، ففتحت أبواب الغواية

(١) فوشيه الشارتري (١٩٩٠، ص٢٢٨).

(2) See: Flowers، Ronald B. (1988، P.5).

(٣) فاطمة أزرويل (٢٠٠١، ص٧٠).

(٤) نجية عبد الله (١٩٨٤، ص٥٤).

التي جرّت أبناءه نحو الرذيلة والانحطاط،[١] فهم جنسٌ ملعون لا يألفون لغير جنسِهم على حدّ تعبير أسامة بن منقذ (ت. ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)[٢] عند حديثه عن كراهية إحدى جواري الفرنجة العيشَ بين المسلمين[٣].

فقد تعدّدت أسباب الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة ما بين أسبابٍ اجتماعيّة واقتصاديّة وعسكريّة وسياسيّة ودينيّة، وقد بدأنا بالحديث عن الأسباب الاجتماعية للانحراف الجنسي على أساسِ أنّ هذا الانحراف هو سلوكٌ اجتماعي بالدّرجة الأولى، فضلًا عن أنّ الأسباب الاجتماعية للانحراف الجنسي في عصرَ الحروب الصليبيّة كانت هي الأقوى والأبرز. كما يجبُ التنويه إلى أنّ بعض هذه الأسباب كان سببًا في بعض صور الانحراف الجنسي، وليس الانحراف الجنسي ككلّ. ويمكن إجمالُ الأسبابِ الاجتماعية للانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة في النقاط التالية:-

١- انتشارُ الإباحيّة:

الإباحيّة (license) هي كلّ تراخٍ في الأخلاق، ولا سيّما في مجال الطهارة أو الحشمة،[٤] فكانت الإباحيّة منتشرةً في المجتمعِ الأوروبي الغربي بكلّ صورها، ولم يتخلّوا عنها عندما أتوْا إلى الشرق العربي الإسلامي واستقرّوا فيه، وخاصةً الإباحيّة الجنسيّة وعدم رفض أيّ صورة من صورها[٥].

---

(١) دندل جبر (١٩٨٧، ص٦٥). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٠٨).

(٢) هو أسامة بن منقذ بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ، من المعدودين من شجعان الشام، ولم يزل بنو منقذ مُلاك شيزر، وقد جمعوا السيادة والمفخرة. انظر: أبو شامة (١٩٩٧، ج٢/ ص٤٣٢).

Farhad Daftary (2004 ، Pp.181 - 182).

(٣) أسامة بن منقذ (١٩٣٠، ص١٣٠).

(٤) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣).

(٥) عن الحياة الجنسيّة في العصور الوسطى، راجع: أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٢٩ - ١٦٢).

ففي أوروبا، كان يُعهد إلى رجال الدّين في العصور الوسطى بفضّ بكارة المرأة قبل زفافها، وكان المخصيّون من رجال الدّين يقومون بهذه المهمّة، فقد كان من عادة المسيحيّة في تلك العصور أن يُخْصوا بعضَ أولادهم ويوقفونهم على خدمة الكنيسة فلا يتزوّجون، وكانت العادة آنذاك أن تُحملَ العروس إلى إحدى الأدْيرة ليفترغها راهب، وظلّ فضّ الأبكار[١] من قِبل رجال الدّين المخصيّين في أوروبا ساريًا حتى القرن السابع عشر الميلادي.[٢] يقول أسامة بن منقذ عن الإباحيّة عند الصليبيّين في بلاد الشام: «وليس عندهم شيء من النّخوة والغيرة، يكون الرجلُ منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجلٌ آخر يأخذُ المرأة ويعتزل بها ويتحدّث معها، والزوج واقفٌ ناحيةً ينتظر فراغَها من الحديث، فإذا طوّلت عليه خلّاها مع المتحدّث، ومضى»[٣].

ومن الشواهد التاريخية الدّالة على الإباحيّة حتى بين الأرمَنِ في الشرق، أن بلدوين الأوّل وجدَ ضالته- في الحملة الصليبيّة الأولى- في مدينة الرّها التي توجّه إليها؛ حيث تبنّاه صاحبها الأرمني المُسن (ثورس Thoros) وأشركه معه في الحكم، ولم تمضِ فترة طويلة حتى اغتالَ الأرمنُ حاكمَهم هذا، ويتّهم بعض المؤرخين بلدوين بأنّه له يدٌ في مصرعه، وأنه اشْترك مع زوجة "ثورس" في تدبير المؤامرة ليخلو له الجوّ، ثمّ تزوّج منها بعد ذلك لكي يضْفي على حكمِه في البلاد صبغةً شرعيّة.[٤] ويمكن إرجاعُ هذه الأحداث إلى الإباحيّة التي تمّت في حفل تبني حاكم مدينة الرّها لبلدوين الأول، إذْ تجرّد

(١) بِكَارة: (اسم) جمع بَكْرُ. البَكَارَة: عُذْرَةُ الفتاة. غِشاء البَكارَة: (التشريح) نسيج رقيق يُغطِّي الفتحة التناسليّة في الأنثى، يتمزّق عند أوّل اتِّصال جنسيّ، أو بدخول أي جسم يخترقه.

(٢) عبد السلام الترمانيني (١٩٨٤، ص٢٢٠).

(٣) أسامة بن منقذ (١٩٣٠، ص١٣٠). شفيق محمد عبد الرحمن (٢٠١٢، ص١٥٦ – ١٥٧).

(٤) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٨، ص٢٢٦).

بلدوين من الملابس حتى وسطه، بينما ارتدَى ثورس قميصًا بلغَ من الاتّساع أنْ دخل فيه بلدوين، وأخذ كلّ من الوالد الجديد والابن الجديد يحكّ صدرَه في صدر الآخر، وكرّر بلدوين هذا الاحتفال مع الأميرة زوجة ثورس،[١] وذلك إظهارًا للبنوة.[٢] فهذه الإباحيّة التي تمّت بين زوجة حاكم الرّها وبلدوين كان لها أكبرُ الأثر في التقارب بينهما، والذي انتهى بالخلاص من الزّوج المُسنّ بهذه الطريقة البشعة.

ومن صور الإباحيّة التي أدّت إلى كثرة الانحراف الجنسي بكلّ صوره، كثرة الاختلاط بين الرّجال والنساء حتى في مواضعِ النّوم، فقد كانت الواحدةُ من سفن البندقية تحملُ- أيام الحروب الصليبيّة- ما يقربُ من ألف راكبٍ، وكان هؤلاء الرّكاب مكدّسين بعضُهم فوق بعض،[٣] فكانت أماكنُ النوم مشتركةً حتى في نُزل الحجّاج، بحيث ينام على السرير الواحد ثلاثةُ أفراد، ممّا ساعد على انحدار الأخلاق، ونشرِ الرذيلة، ومِن ثمّ غدتْ نُزلهم أو الخانات التي يقيمون فيها مشهورةً بسوء السّمعة[٤].

وكانت من صور الإباحيّة التي أدّت إلى الانحراف الجنسي، كثرةُ الاختلاط بين الرّجال والنساء في الحمّامات العامة، وعلى الرغم من قلّة الحمّامات العامة في العصور الوسطي في أوروبا؛ لأنّ الكنيسة اعتبرتها مِن بؤر الفساد داخل المدينة، لكنْ عندما تعرّف الصليبيّون على حمّامات البخار في الشرق، أدخلوها إلى منازلهم رغم معارضة الكنيسة.[٥] فقد تأثّر الفرنجة بالمسلمين في دخول الحمّامات العامة التي كانت مُنتشرة آنذاك، وكانت هذه

(١) رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص٣٠٧).
(٢) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٠٤).
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١١٥).
(٤) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٣).
(٥) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٩). أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٥٣ - ١٥٤).

الحمّامات تتيح الفرص للتلاقي والتعارف بين المسلمين والفرنجة، بيْدَ أنّهم لم يكونوا يتحرّجون من إدخال نسائهم معهم للاستحمام فيها، كما كانوا يدخلونها عراة، وينكرون على المسلمين شدّ المآزرِ عليهم[١].

ومِن الشّواهد التاريخية على الإباحيّة في الحمّامات الصليبيّة في بلاد الشام ما رواه ابنُ منقذ- وهو ممّنْ عاش بين الصليبيّين- عن ذلك بقوله: «كان عندنا رجلٌ حمّامي يقال له (سالم) من أهل معرة النعمان، في حمّام لوالدي، قال: فتحت حمّامًا في المعرة أتعيّشُ منها، فدخل إليها فارسٌ منهم- أي من الصليبيّين- وهُم ينكرون على مَنْ يشدّ في وسطه المئزر في الحمّام- أي يحبّون كشف العورة تمامًا- فمدّ يدَه فجذب مئزري من وسطي ورماه، فرآني وأنا قريبُ عهدٍ بحلق عانتي، فقال: سالم، فتقرّبت منه، فمدّ يدَه على عانتي، وقال: سالم، جيد! وحقّ ديني اعملْ لي كذا، واستلقَى على ظهره، وله مثلُ لحيته في ذلك الموضع- أي في عانته- فحلقْتُه فمرّ يدَه عليه فاستوطأه، فقال: سالم، بحقّ دينك اعملْ للداما (والداما بلسانهم الستّ) يعني امْرأته، وقال لغلام له: قل للداما تجيء، فمضى الغلام وأحضرها وأدخلها، فاستلقتْ على ظهرها، وقالٍ: اعملْ كما عملتَ لي، فحلقتُ ذلك الشّعرَ وزوجُها قاعدٌ ينظرني، فشكرني ووهبني حقّ خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلافِ العظيم: ما فيهم غيرةٌ ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلّا مِن النّخوة»[٢].

هذه الرواية تمثّل قمّة الإباحيّة التي كان عليها المجتمع الصليبي في بلاد الشام، فهذا الصليبي لم يكتفِ بحلق عانته،[٣] بل أمرَ الحمّامي بحلق عانة زوجته أمام عينيه، والعجيب

---

(١) شفيق محمد عبد الرحمن (١٩٩٦، ص٣٥٠).

(٢) أسامة بن منقذ (١٩٣٠، ص١٣٦).

(٣) العَانَةُ: الشَّعر النابت في أَسفل البطن حول الفرج.

أنها استلقتْ على ظهرها بكلّ سهولة، ولم تبدِ أي اعتراض أو حياءٍ من الحياء الغالب على بنات حوّاء في كلّ عصر ومصر، وطالما أن المرأة الصليبيّة تفعل ذلك أمامَ العامة فلا مانع لديها من أن تقيم أي علاقة جنسيّة كيفما تشاء، وفي أي مكان.

وقد ذكر ابن منقذ روايةً أخرى تؤكّد على هذه الإباحيّة في المجتمع الصليبي في الحمّامات العامة في مدينة أخرى أيضًا، فقال: «وممّا يقارب هذا أنني دخلت الحمّام بمدينة صور، فجلست في خلوةٍ فيه. فقال لي بعضُ غلماني في الحمّام: معنا امرأة. فلمّا خرجت جلست على المصاطب، وإذا التي كانت في الحمّام قد خرجتْ وهي مقابلي قد لبستْ ثيابها وهي واقفةٌ مع أبيها، ولم أتحقّق أنها امرأة. فقلت لواحدٍ من أصحابي: بالله، أبصر أهذه امرأة هي؟ وأنا أقصد أنْ يسأل عنها، فمضى وأنا أراه، ورفعَ ذيلها وطلَع فيها، فالتفتَ إليّ أبوها وقال: هذه ابنتي، ماتت أمّها، وما لها مَن يغسلُ رأسها، فأدخلتها معي الحمّام غسّلت رأسها. قُلت: جيد ما عملت، هذا لك فيه ثواب»[1].

وهذه الرّواية أيضًا تدلّ على مدى الإباحيّة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام، فبغضّ النظر عن دخول البنت مع أبيها الحمّام، واطّلاعها- على أقلّ تقدير- على عورته، على اعتبار أنه لم يغسل لها إلّا شعرها نظرًا ليتْمها؛ فإنّ غلام أسامة بن منقذ قد رفع ثيابَ المرأة واطّلع على عورتها ليتأكّد من أنها أنثى، ولم يترتب على ذلك أيّ نهي أو زجر من المرأة أو والدها، وما فعل ذلك إلّا لتأكّده من أنّ هذا الفعل من الأمور العاديّة بين الصليبيّين، فلا شك أنّ هذه الإباحيّة كانت من أكبر الأسباب لنشر الرذيلة والانحراف الجنسي بين الصليبيّين.

---

(١) أسامة بن منقذ (١٩٣٠، ص١٣٧).

هذا، ولم تتوقّف الإباحيّة على السلوك العام للصليبيّين في الحمّامات والشوارع العامة، بل تعدّتها إلى حدّ التسامح وعدم الغيرة من الرجل الصليبي في العلاقات الجنسيّة المباشرة التي تقوم بين زوجته وآخر، يقول أسامة بنُ منقذ عن ذلك: «وممّا شاهدتُ من ذلك أني كنت إذا جئتُ إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له (معز)، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دارٌ لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتّجار، يأخذ في قنَينة من النبيذ وينادي عليه ويقول: فلان التاجر قد فتح بتيَة من هذا الخمر، مَنْ أراد منها شيئًا فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه من النبيذ الذي في تلك القنَينة. فجاء يومًا ووجد رجلًا مع امرأته في الفراش، فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟ قال: كنت تعبانًا ودخلت أستريح. قال: فكيف دخلتَ إلى فراشي؟ قال: وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه. قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ فقال: وحقّ ديني إن عدتَ فعلت كذا تخاصمتُ أنا وأنت. فكان هذا نكيره ومبلغَ غيْرته».(١) وبهذه الإباحيّة أخذت النساء الصليبيات الضوء الأخضر كي يفعلن ما يحلوا لهنّ من علاقات جنسيّة خارج إطار الزوجيّة.

ولعلّه من الأهمية بمكان أنْ نذكر بأنّ الإباحيّة لم تتوقّف على الصليبيّين في هذا العصر، بل شاركهم فيها أيضًا المغول- المعاصرون للصليبيّين- خاصةً في بلاد الصين. يقول (Marco Polo) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤م) عن مدينة ياتشي الصينية: «ولا يعدّ الأهالي أنّهم أضيروا، إذا اتّصل رجال آخرون بزوجاتهم، شريطةَ أن يكون الفعلُ بإرادة المرأة»(٢).

(١) أسامة بن منقذ (١٩٣٠، ص١٣٦). فايزة عبد الرحمن حجازي (٢٠١٢، ص٤٥٦).
(٢) ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص١١٤).

ويقول ماركو بولو أيضًا عن ولاية التّبت،[1] وما بها من إباحيّة: «هناك عادة مخزية تنتشر بين شعبِ هذه المناطق، حيث يكرهون الزّواج من الشابات مادُمْن عَذْراوات، ولكنْ يشترط على عكس ذلك أنْ تكون لهنّ علاقات سابقة مع كثيرٍ من أفراد الجنس الآخر، وأنّ المرأة التي لم تحظَ بصحبة الرّجال امرأةٌ عديمةُ القيمة، وتبعًا لذلك، مجرّد أنْ تصل قوافلُ، وينصب التّجارُ خيامَهم لقضاء اللّيل، تحمل الأمهاتُ ذوات البنات اللائي بلغنَ سنّ الزواج بناتِهنّ إلى ذلك المكان، وتقوم كلّ واحدةٍ منهنّ بالتوسّل إلى الغرباء لقبول ابنتها والاسْتمتاع بصحبتها لأيّ منهم ما دامَ موجودًا في المنطقة المجاورة»[2].

٢ – ملابسُ النساء الخليعة:

من الأسباب الاجتماعية الهامّة التي أدّت إلى الانحراف الجنسي عصرَ الحروب الصليبية، الملابسُ الخليعة التي كانت ترتديها النساء الأوروبيّات والتي كانت تعمل بدورها على إثارة غرائز الرّجال[3].

إنّ الصليبيّين لبسوا الزيّ الأوروبي، واتبعوا التقاليد الأوروبية في الملابس والأزياء، فلم ترْتَدِ النساءُ الصليبيّات السراويل، ولم يكن السروالُ جزءًا من ملابسهنّ، ذلك لأن الرأي العام الصليبي كان يعارض ارتداءَ الصليبيّين الملابسَ الشرقية.[4] كما أجبرت حرارةُ الشرق كلًّا من الرّجال والنساء على ارتداء ملابسَ فضفاضة.[5] وكان هناك

(١) التّبت (Thebeth): هو القطر الواقع على الجانب الشمالي لجبال الهمالايا، وهو تحت الحكم المباشر للدالاي لاما. ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص٢٧١/ حاشية رقم١).

(٢) ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص١٠٦).

(٣) عن ملابس المرأة في الغرب الأوروبي، راجع: اسمت غنيم (١٩٨٣، ص٧٦ – ٧٨).

(٤) يوشع براور (٢٠٠١، ص٦٢٠).

(٥) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٥٧).

اختلاطٌ صريح بين الجنسين من الذكور والإناث، وانكشافٌ لعورات النساء وخروجهن سافرات شبه عاريات في الأسواق والطرقات، وارتيادهُنّ لتجمّعات الرجال، فكانت ملابسُ النساء العارية تدعو إلى فتنةِ الرجال، كما كانت المرأةُ الصليبيّة تتمتّع بالجرأة، ولم تكنْ تلتزم بطاعة زوجها[١].

كانت النساءُ في الغرب الأوروبي، ومن قبْل قدومهن إلى الشرق العربي الإسلامي يستخدمنَ العطور الفوّاحة، والملابس الراقية، وأدواتِ التجميل، وممّا لا شكّ فيه أنّ خدودهن الملوّنة، وعيونَهنّ المحدّدة باللّون الأسود، امتزجتْ مع حريتهنّ واستقلالهن، ووفّرت أساسًا مؤدّاه أن الخلل الأخلاقي كان شائعًا، مثلًا في أكوتين بجنوب فرنسا. وعلى عكس معاصراتهنّ في الشمال الفرنسي، رفضتْ نساء أكوتين عزلهنّ، أو حبسهنّ سرًّا في الأديرة، وعندما كان يتمّ ضبطهنّ مع عشيق لم يكنْ يتمّ حبسهنّ أو قتلهن. على حين كان اقترافُ النساء الزنا مقيتًا بالفعل، بيْدَ أنه لم يكنْ ملعونًا بقسوة أيضًا، وفي أمور الجنس والدّين كانت توجدُ درجةٌ من التحرّر والتّسامح في أكوتين، واحترامٌ كبيرٌ للفرد[٢].

تعمّدت المرأة الأوروبية في هذه المرحلة إلى تقصير أثوابها بعضَ الشيء حتى تُظهر حذاءها وجانبًا من ساقها، وفي هذه المرحلة أيضًا بدأتِ النساء تلبسنَ ملابسَ تكشف عن جانبٍ من صدورهنّ، الأمرُ الذي أصدر من أجله رجالُ الدّين مواصفاتٍ لملابس المرأة، واستخدم النساءُ أيضًا المساحيق ولبسنَ الشعور المُسْتعارة، واهتمّت المرأة بزينة وجَمال بشرتها، ولذلك كانت تضعُ الكثير من وسائل التجميل مثلَ لبنِ الخيول،

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٠ – ١١٣).
Geoffrey De Vinsauf (2001 ، P.4).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٣).

ومسحوقِ البقول، وغير ذلك لتجميل بشرتها،[١] وندرَ وجودُ امرأة مُحتشمةٍ في الإمارات الصليبيّة[٢].

إلى جانب الملابس الخليعة التي كان يرتديها عامّة الأوروبيّين وخاصتهم في أوروبا ذاتها وفي بلاد الشام، والتي أدّت بدورها إلى إثارة غرائز الرّجال وانحرافهم الجنسي؛ كانت هناك ملابسُ صليبية أشدّ خلاعة وسفورًا من ذلك، وهي ملابس السّاقطات، ومَنْ يحترف الدّعارة من الصليبيّات.

يقول المؤرخ المجهول عن وصفه لملابسِ الساقطات في مدينة صور: «إن ملابسَ الراقصات الساقطات: أكمامُهنّ مشدودةٌ بشرائط أحكمنَ لفّها لتبرز من أجسادهنّ ما يثير شهوة النّاظرين، ويرتدين العباءات ظهرًا لوجه، ويجعلْنَها حول أوساطهنّ وبين أذرعهنّ، وبذلك فإنّ الثياب التي كان مفروضًا أن تُغطّي الأجزاء الخلفيّة من أجسادهنّ كانت في غيْر موضعها. لقد كانت عباءتُهنّ حول بطونهنّ وليس لظهورهنّ، وكنّ يضعنَ حول أعناقهن عقودًا مرصّعة بنجوم برّاقة، وكنّ يدرنَ حاملاتٍ في أيديهنّ الأطباق بدلًا من السيوف»[٣].

غيرَ أنّ الخلاعة في الملابس لم تتوقّف على النساء فقط، بل هناك مِن الشواهد التاريخية التي تذكر بأنّ الخلاعة في الملابس طالت بعضَ رجال أوروبا في ذلك العصر، وذلك عن طريقِ مشاركة الدّاعرات في ملابسهن، وهذا بدوره ترتّب عليه انتشارُ نوعٍ خاص من الانحراف الجنسي، وهو (السَدُومِيَّة/ اللّواط) أو ما يُعرف حديثًا بظاهرة «المثليّة

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٣٠٥).

(2) Norman Daniel (1975 ، P.202).

(٣) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٥٣- ١٥٤). وراجع: حبيب زيات (١٩٤٩، ع١، ص٥).

الجنسيّة» (Homosexuality).[1] يقول المؤرخ روجر أوف ويندوفر مؤكّدًا على ذلك من خلال حديثه عن أحدِ كُهّان إنجلترا: «غيرَ رداء الكاهن واستبدله بثوبٍ عاهرة، حيث ألبسَ نفسَه بثوبِ امرأة، لونُه أخضر، مع رداءٍ من اللّون نفسه، ووضع قُبعة على رأسِه»[2].

ليتَ الأمرَ توقّف عند هذا الحدّ، بل كانت من عادتهم النوم دونَ ملابس في الغالب، وهذا من الأمور التي تثيرُ الغرائز الجنسيّة، وإلى ارتكاب الرّذائل دونَ شكّ. ومن الشواهد التاريخية المؤكّدة لذلك، عندما كان الملك لويس التاسع في طريق عودته إلى فرنسا عقب فشلِ الحمْلة الصليبيّة السابعة على مصر، اشتعلت النارُ في مخدع الملكة (مرجريت) زوجة الملك لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠م)، فاستيقظت الملكة ورأتْ مخدعَها كلّه مشتعلًا، فوثبتْ مِن فراشها عارية من كلّ شيء[3].

وربما يظنّ ظانّ بأنّ التجردَ من الملابس أثناءَ النوم من عادة الملوك فقط وقتئذ، فقد وردَ أيضًا ما يفيد بأنّ التجرّد من الملابس نهائيًّا، بل وفي الشوارع العامة، وليس فقط في غُرف النوم كان له وجود؛ فقد تسرّب الهوسُ والجنونُ الديني إلى معظم الفئات، ويذكر أحدُ المعاصرين (من رجال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري) أنّ آلافًا من النساء- في أوروبا- جريْنَ عرايا عبر القرى والمدن لائذاتٍ بصمتٍ عميق[4].

---

(١) المثليّة الجنسيّة، من المِثْل، تعني الانجذاب لأشخاص من جنس مماثل، ولذلك هي تدلّ على وجود عواطف أو ممارسات جنسيّة بين أفراد من نفس الجنس.

Room، Adrian (1986 ، p.84). Statt ، David A. (2004 ، p.93).

(٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٣٨١).

(٣) جوانفيل (١٩٦٨، ص٢٧٩).

(٤) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ص١٥٧).

هذا، وإذا كانت الإباحيّة الصليبيّة قد ماثلهم فيها بعض سكان كوكب الأرض مثل بلاد التتار في إقليم الصين - كما ذكر آنفا- فإن الخلاعة في الملابس قد تفوق فيها الصليبيّون عن غيرهم من شعوب الأرض. يقول ماركو بولو عن ملابس نساء التتار: «فضائل الحشمة والعفة في زوجاتهم إنما هي أجدر بالثناء، نظرًا لأنه يباح للرجال اتخاذ أي عدد يرغبون فيه من النساء»[1].

ومن العجيب أيضًا، أن نجد بعض المؤرخين الصليبيّين مَنْ يعيبون على أهل الشرق من المسلمين والمسيحيين الشرقيّين لأنهم يعملون على الحشمة بين نساءهم، ويعتبرون الحشمة من الأمور التي يلامون عليهم. يقول يعقوب الفيتري عن طائفة السريان في بلاد الشام: «وحبسوا نساءهم تبعًا لعادة المسلمين، وأجبروهن على التدثّر بالملابس هُنّ وبناتُهن، بحيث لا يمكن رؤيتهنّ».[2] إنّ من العجيب أيضًا، أن يصدرَ هذا الكلام من يعقوب الفيتري، فهو فضلًا عن كونه مؤرّخًا، كان من رجال الدين، وكان الأجدرُ به أن يحُثّ على الحشمة والطهارة لا أنْ يلوم عليها. كما تدلّ روايته هذه على أنّ الملابس الخليعة وما يمكن أنْ تدفع به من انحرافٍ جنسي بإثارة غريزة الرجال، كانت في المقام الأول بفعل نساءِ الصليبيّين، وأنّ دور نساء الشرق في ذلك- إنْ كان قد وجد- عبارة عن خيطٍ رفيع في ثوب الخلاعة الصليبيّة.

٣ - حفلاتُ الرّقص والمُجون:

كان يتمّ تصوير الموسيقى العلمانية والموسيقيّين العلمانيّين في أوروبا من قِبَل الكنيسة باعتبارهم فرصًا خطيرة للخطيئة،[3] فكانت الموسيقى والحفلات الراقصة من الأسباب

(١) ماركو بولو (١٩٩٥، ج١/ ص١٤٠).
(٢) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٠٩).
(٣) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص١٩٨).

التي أدّت إلى الانحراف الجنسي نظرًا لما كان يسودُ هذه الحفلات من مُجون وخلاعة وعربدة تؤدي في نهايتها إلى ممارساتٍ جنسيّة بشتى صورها.

كان الرقصُ في الميادين والشوارع من الأمور المألوفة في العصور الوسطى رغم أنّ الوعّاظ من رجال الدّين كانوا يحرّمونه، وقد رأى المعتدلون إباحةَ الرقص في حفلات الزّواج والمناسبات، وقال البعض: إنّ الرقص من أعمال الرّياضة البدنيّة إذا كان في حدودِ الأدب، ولكنّ البعض رأى أنّه بدعة من أعمال الشيطان، أمّا الكنيسة فلم ترضَ عنه لأنّها وجدت فيه إغراءً بالفساد. والواقع أنّ الرقص انتشر في أوروبا خاصةً في فرنسا وألمانيا، وابتُدعت أنواعٌ كثيرة مارسوها في المواسم الزراعية أو الاحتفال بالنّصر، أو لتفريج الكروب إذا نزلت بهم كارثة، وكان معظمُ الرقص يدورُ بالنهار لعدم وجود الإضاءة اللّيلية[1].

وقد صوّر أحدُ المؤرخين رقصاتِ الفتيات في لندن بقوله: «كانت أفروديت تقود رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتزّ تحت الأقدام المتطايرة»،[2] وعندما تكوّنت الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، أضحى من وسائل تسلية كبار الصليبيّين استخدامُ الفتيات الراقصات[3].

وكانت حفلاتُ الزفاف الصليبيّة يسودُها المُجون والخلاعة وانتشار المفاسد بين الرّجال والنساء، يقول ابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ/ ١١٤٥ - ١٢١٧م) عن إحدى هذه الحفلات الماجنة التي شهدها بنفسه (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م): «زفاف عروس شاهدناه

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٣٠٢).

(٢) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص١٠٥).

(٣) محمود الحويري (١٩٧٩، ص٢٤٣).

بمدينة صور في أحدِ الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميعُ النصارى رجالًا ونساءً، فخرجت العروسُ تتهادى بين رجلين يمْسكانها من يمين وشمال، كأنّهما من ذوي أرحامها، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيّات، يتهاديْنَ في أنفس الملابس، والآلات اللّهوية قد تقدّمتْهنّ، والمسلمون وسائر النصارى من النّظار يتطلّعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك»[١].

ومن الشواهد التاريخية الدّالة على الحفلات الماجنة التي كانت سببًا في الانحرافات الجنسيّة بين الصليبيّين في أروقة هذه الحفلات، في الحملة الصليبيّة الثالثة تخلّى الفرنسيون في مدينة صور عن حياة الجهاد وانغمسوا حتى الأذقان في اللّهو والفجور وسماع الأغاني تنشدُها على مسامعهم النسوةُ الساقطات، وانصرفوا إلى ولائم الفجور حتى ليقرّر شاهدُ عيان أنهم كانوا لا يُشاهدون إلّا في صحبة الرّاقصات اللائي يطلعن في ملابسهن الخليعة المثيرة والدّالة على حياة الإثم التي يتقلّبن فيها ويعشْنَها[٢].

لم يكتفِ الصليبيّون بهذه الانحرافات الجنسيّة التي سادت حفلاتهم الصاخبة، بل قاموا بتأليف الأغاني التي تدعو إلى اغتصاب النساء. فقد قام (هنري الثالث) دوق (بريجنديا) في الحملة الصليبيّة الثالثة بنظْم أغنية يتغنّى بها بين العامة، وما كان لمثْل هذه الأغنية ذات الكلمات الوقِحة المَعِيبة أن ينشدها العامّة جهرًا، وما كان ينبغي لمثْل هذه الألفاظ الفجّة التي شاعت على ألسُنِ الرّعاع أن تقُمْ لو كان لمؤلفها أدنى إحساس بالأدب، لأنّها تشير إلى رجال همّهم اغتصاب النساء وتُشيد بذكْرهم[٣].

---

(١) ابن جبير (١٩٨١، ص٢٥١). فايزة عبد الرحمن حجازي (٢٠١٢، ص٤٥٤).
(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٥٣).
(٣) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص٢٢٥).

٤ – المحفّزاتُ الجنسيّة:

من الأسباب التي أدّت إلى الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة كثرةُ المحفّزات الجنسيّة المتمثّلة في الأطعمة المثيرة للشهوة، وكذلك إفراط الصليبيّين في تناول الخمور، وما يمكن أن يترتّب على ذلك من غيابٍ للعقل وفعلِ المنكرات بكلّ صورها.

شرب الأهالي الجعّة والنبيذ والأنواع الأخرى مثلَ خمور التفاح والكمّثرى عوضًا عن الماء، لذلك كثرت الحاناتُ في أوروبا التي تقدّم الجعّة لرخص ثمنها، حتى إنّهم شربوها بعد فطورهم، ووجدت المعاصرُ الخاصة بالخمور في الأديرة والقصور ومنازل الأغنياء. وكان أهلُ شمال أوروبا يفضّلون الجعّة التي لا يزيد ثمنُها عنْ ثمن الخبز، أمّا الأغنياء في كلّ أنحاء أوروبا وأهل جنوب أوروبا فكانوا يفضّلون النبيذ. وقدّمت فرنسا أفخر أنواعه، وتغنّى بمديحِه المغنّون في الأغاني الشعبيّة(١).

في بلاد الشرق العربي الإسلامي، أفرط الصليبيّون في تناول الخمور، ممّا ساعد في انتشار رزيلتَيِ الزّنا والدّعارة، وساعد على ذلك انتشارُ صناعة الخمور والنبيذ في بلاد الشام، ويلاحظ أنّ كثرة شربِ الصليبيّين للخمور أفقدَهم التّحكم في تصرفاتِهم وسلوكياتهم، فجعلهم ذلك يفقدون حياءهم ويرتكبون الموبقات، فكانت الخمور تجعل الفردَ غير مُسيطرٍ على نفسه، كما كانت تساعدُ في تأجّج الشهوة الجنسيّة(٢).

ومن الشواهد التاريخيّة على أثر الخمور في انتشار الانحراف الجنسي، في سنة (١٢٠٠م/ ٥٩٧هـ)، أثناء زيارة ملك إنجلترا (الملك جون) لإقليم أكوتين، تزوّج

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٣٠١).

(٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢٣). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٢).

الملك جون بشكلٍ غير متوقّع من زوجة جديدة اسمها (إيزابيلا) وراجت أقاويل أنه أسكَرَها وضاجعها، وكانت في الثانية عشر من عمرها[١].

وكان الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني (١١٨٥ – ١١٩٥م/ ٥٨١- ٥٩٢هـ) مولعًا بالخمر والنساء، وأحاط نفسه بالمغنّيّين والمهرجين،[٢] وكان من مصائب لندن في عهد الملك هنري الثاني، السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود.[٣] وقد شهد على أثر الخمور في الانحراف الجنسي أحدُ ملوك الحملات الصليبيّة أنفسهم، وهو الملك لويس التاسع، فقد كان يشعشع الخمرَ بالماء بقدرٍ يتلاءم مع قوة الشراب وتأثيره، وكان يقول: إنّه لما يقدح في كرامة الرجل الفاضل أن يمسي صريعَ الشراب»[٤].

في الحملة الصليبيّة الثالثة، كان الرّجال الفرنسيون يمضون لياليهم في حفلات الشراب، ولا يعرف النومُ سبيلَه إلى أجفانهم، فإذا احتدمت حميّا الشراب وألجمت الخمر شاربيها؛ تأجّجت فيهم رغبةٌ جامحة إلى الفتيات، فيسعون إليهن ويطرقون أبوابهنّ، فإنْ وجدوها مغلقةً في وجوههم أو سبقهم إليهنّ غيرهم، همّوا بتحطيمها وانطلقوا يسبّون ويتفوّهون بألفاظٍ نابية وعبارات ينزعج من سماعها كلّ رزينٍ وعاقل.[٥] وهذه الرواية التاريخيةُ خيرُ دليلٍ على أثر الخمور في الانحرافات الجنسيّة التي قام بها الصليبيّون.

هذا، ولم تكن الخمور هي المحفّز الجنسي الوحيد الذي أدّى إلى انحراف الصليبيّين الجنسي، بل كان للإسراف في تناول الطعام والشراب أثرًا في ذلك؛ لأنّ شهوة البطن من الطعام والشراب تتبعها شهوة الفرج، وهذا يؤدي إلى إشباع الرغبة بأيّ طريقة كانت.

(١) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٣٩٤).
(٢) إسمت غنيم (١٩٨٢، ص٣٧).
(٣) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص١٠٤).
(٤) جوانفيل (١٩٦٨، ص٣٣).
(٥) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٥٤).

لقد استمتع الرّجال والنساء- من الصليبيّين- بكلّ ما وقع تحت أيديهم من ملذّات وترف،[١] وذلك على الرّغم من بيان رهبان العصور الوسطى العالية والمتأخرة، بأنّ الشّرهَ في الأكل وليس الإفراط في مضاجعة النساء، هو الذي يعتبر خطيئة كبرى.[٢] ويبدو أنّه وجدت في عصر الحروب الصليبيّة بعضُ المحفّزات الجنسيّة بالفعل، لكنّ المصادر التاريخية المعاصرة لم تبيّن لنا نوعية هذه المنشّطات.. هل كانت من الأطعمة، أم من غيرها؟ يقول وليم الصوري عن أسباب الانحراف الجنسي للملك بلدوين الثالث (Baldwin III) ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢م/ ٥٣٩ - ٥٥٧هـ): «وكان بلدوين الثالث مقتصدًا كلّ الاقتصاد في تناول المنشّطات الجسدية، فقد كره الإسرافَ في الطعام والشراب»[٣].

كانت مائدةُ الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني، عبارة عن غابات من الطيور وبحارٍ من الأسماك، وأنهارٍ من الخمر، وجبالٍ من الخُبز.[٤] يقول يعقوب الفيتري عن أثر الإسراف في الطعام والشراب في إثارة الغرائز الجنسيّة عند العامة من الصليبيّين: «عندما أكلوا حتى شبعوا؛ ارتكبوا الفسق، وهرْولوا طوائف إلى مواخير الزّانيات، وكانوا كالخيْل، يصهلُ كلّ واحد منهم على امرأةِ صاحبه»[٥].

٥- عدمُ التكافؤ في الزواج:

من الأسباب الاجتماعية الهامّة التي أدّت إلى الانحراف الجنسي بين الصليبيّين بنطاق واسع، عدم التكافؤ بين الأزواج؛ حيث كانت ترتبطُ ببعض الزيجات ظروفٌ معينة تؤدي

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٧).
(٢) نورمان . ف . كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦٤).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٢٣٣).
(٤) اسمت غنيم (١٩٨٢، ص٣٧).
(٥) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص٩٩ - ١٠٠).

إلى إتمام هذا الزواج دون أن يكونَ هناك أي توافق في العمر أو الشكل بين الزوجيْن، فيؤدي ذلك إلى الانحراف الجنسي بين الأزواج، خاصّةً وأنّ تعاليم آباء الكنيسة تحرّم التعدّد بين الأزواج، والبعضُ الآخر يُحرّم الطلاق بين الزوجين، فأدّى عدم التكافؤ هذا إلى إشباع الرغبة الجنسيّة خارج إطار الأسْرة، سواء في الطبقة الحاكمة أو طبقة العامّة.

هناك ظاهرة تركتْ أثرًا كبيرًا على التواجد السياسي للصليبيّين في الشرق سواء في عهد مملكة بيت المقدس الصليبيّة أو في مدينة عكا، وتمثّلت هذه الظاهرة في زيادة عدد الإناث عن عدد الذكور في الطبقة الحاكمة، ممّا جعل ملوك الصليبيّين يتدخّلون بشكلٍ مباشر في قضية تنظيم زواج الوريثات والأرامل في الأسرة الحاكمة بشكل واضح، ممّا فتح المجالَ أمام استقدام أزواج لوريثات العرش من قبرص وأوروبا، حتى قرابة الربع الأخير من القرن (الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري)[١].

ومن الأمور التي عملت على عدم التكافؤ بين الزوجين، أنّ الكنيسة وضعت قيودًا على الزواج منها: ألّا يكون للطرفين جدّ مشترك خلال أربعة أجيال، خشية أن يؤدي زواجُ الأقارب إلى ضعف النسل داخل الأسرة، أو لأنّ الكنيسة كانت تعملُ على عدم تكدّس الثروة داخل العائلة الواحدة، ولكنّ الكنيسة تغاضت كثيرًا عن هذا الشرط خاصةً داخل الأسرة الريفية[٢].

ومن الشواهد التاريخية الدّالة على أنّ عدم التكافؤ بين الزوجين من الأسباب الاجتماعية الهامّة في الانحراف الجنسي؛ أنّ الملك بلدوين الثاني كان مهمومًا بمشكلة الوراثة في مملكة بيت المقدس؛ حيث بعثَ في سنة (١١٢٨م/ ٥٢٣هـ) إلى ملك فرنسا يفوّضه أن يختار لابنته الكبرى (ميلساند Melisend) زوجًا مناسبًا يستخلفه على تاج مملكة بيت المقدس

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص١٨٩).
(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٧).

من بعده، وبالفعل استجاب ملك فرنسا (لويس السادس Louis VI) ورُشح لتلك الزيجة (فولك أنجو Fulk Anjou) الذي وصل إلى الشرق في سنة (١١٢٩م/ ٥٢٤هـ)، حيث تزوج بميلساند، وأصبح ملكًا لبيت المقدس في سنة (١١٣١م/ ٥٢٦هـ)، بعد وفاة بلدوين الثاني. ومع أن بلدوين الثاني كان قد مهّد الطريق لفولك، إلا أن العقبات التي شغلت الملك "فولك" جاءت من قبل زوجته الملكة ميلساند، ومن (هيو الثاني Hugh II) سيد يافا، فالملكة الشابة لم تكنْ تبادل زوجَها الحب، وكانت هائمة بهيو الثاني سيد يافا، ومن جانبه كان هيو الثاني في ذروة شبابه، ويبدو أن علاقته كانت فاترة بزوجته العجوز (إيما Emma) ابنة أخت البطريرك (أرنوف مالكون Arnulf Malecome) بينما كانت علاقته الغرامية متوهّجة بالملكة ميلساند(١).

كانت ميلساند في نصف عمره تقريبًا، وكانت جميلة، وعلى الرغم من شعبية فولك بين نبلاء القدس، كانت هي قليلة الاهتمام به، فهو قصير القامة، عادي المنظر، أحمر الشعر، لكن كان هناك مَنْ تهتمّ به، وهذا الشخص هو ابن عمها هيو دي لابويسيت سيد يافا، وكان تقريبًا في سنّ ميلساند، وشأنه شأن ميلساند كان قد تزوج وكانت شريكة حياته تكبره كثيرًا، وظلّ الشابّان بعد زواجهما على صلةٍ وثيقة كما كانا من قبْل، فانتشرت الأقاويل الفاضحة(٢). فكان صغرُ سنّ الملكات اللائي سقطنَ في تلك الفضائح بالإضافة إلى حالة الجفاء التي كانت بينهنّ وبين أزواجهن؛ من الأسباب التي ساعدت على انتشار تلك العلاقات الآثمة بينهن(٣).

---

(١) محمد عبد الله المقدم (٢٠٠٩، ص٢٦١).

(٢) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص٨٣- ٨٤).

(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٢٠).

ومن أسباب عدم التكافؤ بين الزوجين عدمُ اقتناع أحدهما بالشكل العام للآخر على الرغم من موافقته على الزواج منه، فأدّى ذلك إلى إقامة علاقات آثمة خارج إطار الأسرة لتعويض ذلك، على الرغم من أنّه كان يُنظر دائمًا للحب العفيف باعتباره مبررًا للزنا[١].

ومن الشواهد التاريخية الدّالة على ذلك، ما حدث مع بطرس الناسك، كان بطرس الناسك رجلًا قَمِيئًا- صغير الجسم، وحقيرًا- ليس فيه ما يجذبُ النّظر إليه،[٢] داكنَ اللّون، ذا وجهٍ طويل نحيل، أشبه ما يكون في قبحه بوجْهِ الحمار الذي يمْتطيه، حقيرَ المنظر.[٣] كانت صفاتُ بطرس الناسك هذه هي التي دفعت زوجتَه للتمرّد عليه والارتماء في أحضان الآخرين، الأمرُ الذي أحدث شرخًا عميقًا في نفسه، فترك زوجتَه وأولاده، وهامَ على وجهه في فيافي فرنسا، وانقطعَ للزّهد والتعبّد، فبلغته دعوة البابا أوربان الثاني لحرب المسلمين فتطوّع تلقائيًّا للدعوة لهذه الحملة[٤].

هناك رغبة عند المرأة في إرضاء ميْلها الطبيعي إلى شخصٍ معيّن تجد فيه من صفات الفتنة ما يُغريها به، وهناك المرأة الغَلِمةُ التي تسعى إلى أيّ رجل لإشباع لذّتها،[٥] فلا شك أنّ عدم التوافق بين الرجل والمرأة في العملية الجنسيّة ربما يدفعُ بالنساء والرجال إلى تحقيق هذه الغريزة الطبيعية خارج إطار الأسرةِ بكلّ تأكيد.

وقد نهجَ هذا النهجَ الملكُ لويس التاسع ملك فرنسا، فقد أمضى الملك لويس التاسع الليالي الثلاث الأولى التي تلت عقدَ زواجه من (مارجريت دي بروفانس) في التعبّد

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٢).

(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٩٠).

(٣) ستيفن رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص١٧٩).

(٤) تيسير بن موسى (د.ت، ص٥٤).

(٥) نجية عبد الله (١٩٨٤، ص٣٥).

في الكنيسة الملكية، ولم يدخل حجرةَ زوجته إلّا في الليلة الرابعة.[١] وبعد إتمام الزواج كانت الملكة (مارجريت) تعاني من الكبت الجنسي، ولا تستطيع أن تلتقي بزوجها لويس التاسع إلّا في أضيق الحدود، وهذا في حدّ ذاته ربما يدفعها إلى إشباع غرائزها الجنسيّة خارج إطار الأسرة.

كانت الملكة (بلانش) والدة لويس التاسع تعامل زوجتَه الملكة مارجريت معاملةً شديدة للغاية، حتى إنّها لم تكن تطيق أن ترى ابنَها في صحبة زوجته، ولم تكنْ تسمح له بالذهاب إلى جناحها إلّا إذا تأخّر الوقت ليلًا، وحان وقتُ نومها، وكان الحُجّاب إذا رأوا الملكة بلانش قادمة إلى حجرة ابنها ضربوا الأبواب بعصيّهم، فيُهْرَع الملك إلى حجرته، حتى إذا جاءتِ الملكة الأمّ وجدت ابنَها في غرفته.[٢] فهذه الرواية تبيّن مدى سيطرة الأم على ابنها حتى في علاقته مع زوجتِه، وما يمكن أن يترتّب على ذلك من كبت جنسي لدى الزوجين، ربما يدفع أحدهما إلى تحقيق رغباته بطرقٍ أخرى.

ومن الشواهد التاريخية القويّة على عدم التوافق بين الزوجين في المسائل الجنسيّة وما ترتّب على ذلك من علاقات آثمة خارجَ نطاق الزوجية؛ ما تمّ بين إليانور دوقة أكوتين،[٣] وزوجها الملك لويس السابع ملك فرنسا. كان والد إليانور وليم العاشر أمير أكوتين شاعرًا ونصيرًا للشعراء وزعيماً لهم، وكان بلاطُه في مدينة (بوردو) صالونًا للشّعراء والظرفاء، وقد تربّت إليانور في هذه الأجواء لتكون ملكةً للآداب والفنون،

(١) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٢٣٣).

(٢) جوانفيل (١٩٦٨، ص٢٦٤).

(٣) الملكة إليانور، ابنة الكونت بواتو وليم العاشر أمير أكوتين، توفيت سنة ١٢٠٤م. انظر: بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٣٠٥).

واتّصفت إليانور بالثقافة وحرية الحديث والخيال الشعري والهيام بالحبّ الذي لا حدودَ له. وفي سنة (١١٣٧م/ ٥٣٢هـ)، بلغت إليانور الخامسة عشر فتزوّجت لويس السابع ملك فرنسا، وكان زواجًا سياسيًّا، ابتغى لويسُ من ورائه ضمّ مقاطعة أكوتين، وقد دام هذا الزواج خمسة عشر عامًا اهتمّ خلالها لويس بشئون دولتِه، واهتمّت هي بمرَحِها وجمالها وتحرّرها، والاهتمام بالشعراء[١].

كانت إليانور تردّد أنها تزوّجت من راهبٍ لا من ملك، وأنها كانت تتطلّع إلى الزّواج من دوق نورماندي أنسب إلى طباعها.[٢] لكنْ على أيّة حال؛ لقد ضاق لويس السابع بعبثِ زوجته بعد أن صبّ عليها كثيرًا- نظرًا لعلاقاتها العاطفية والجنسيّة كما سيرد ذكره مفصّلًا فيما بعد- كما أنّه قد ضاق ذَرْعًا بلسانها السليط، بعد أنْ ملأت قصصَها أصقاع أوروبا، وأصبحت عرضةً لسخرية رجال الدين، وارْتاحت إليانور كثيرًا، واعتقدت أنّ الملك سوف يطلّقها، ولكنّه لم يفعل، فطلبت هي الطلاقَ بحجّة اتصالها بصلة القرابة مع الملك لويس وحصلت عليه، وعادت إلى ولايتها أكوتين، وإلى عاصمتها مدينة بوردو لتحكمَ منها الولاية. وفي سنة (١١٥٤م/ ٥٤٩هـ)، تزوّجت رئيسة محكمة الحبّ الملكة إليانور من هنري الثاني ملك إنجلترا.[٣] هكذا كانت العلاقاتُ بين الزوجين تشوبُها في كثير من الأحيان عدمُ التوافق، فكان من الطبيعي أن تتطوّر تلك الخلافات إلى الخيانة الزوجية بين الطرفين أو كليهما على حدّ سواء، فشاع ذلك الأمرُ بين الصليبيّين[٤].

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٢).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٩٥).

(٣) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٢).

(٤) نهى فتحي الجوهري (٢٠٠٨، ص١٩٣ – ١٩٤). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٠).

الأسبابُ الاقتصادية

من الأسباب الهامّة للانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة الأسباب الاقتصادية، خاصةً في قطاع الدّعارة على وجه الخصوص، فهي تعني في مفهومها ممارسةَ الجنس بأجرٍ كما ذكر آنفًا.

حين يُستباح الجسدُ ويغدو سلعةً يستهلكها زبون يدفع مقابلًا، يتمّ انتهاك كلّ القيم الإنسانية المفترض توافرُها في العلاقة بين الرجل والمرأة، ويصبح الجنسُ مادةً للتجارة والربح مقابلَ العبث بحرْمة الجسد والروح،[١] فالبغاء أو الدّعارة وسيلة للتّكسّب تلجأ إليها المرأةُ للحصول على ضرورياتها، إنْ كانت لا تملك وسيلة أخرى للتعيّش في الحياة، فهو طريقٌ للكسب لا يحتاج إلى رأس مال أو تعليم أو تدريب[٢].

كان لارتفاع نسبة البطالة بسبب كثرة العاطلين من الصليبيّين المحليّين أو من الوافدين الأوروبيّين الذين لا حرفةَ لهم، أنْ تحوّلوا إلى ممارسة هذه الحرفة المُربحة في ذلك الوقت.[٣] والواضح أن حبّ المال كان وراء فساد الأخلاق، فمِن أقوال العصور الوسطي المأثورة: «إنّ كلّ الأمور تطوّع نفسها للمال»، ولذلك ندّد رجال الدّين بالجري وراء المال. والأمثلةُ على الخداع والاحتيال كثيرةٌ في حوْليات العصور الوسطى، وليس في ذلك أمرٌ جديد، فإنّ الإنسان في العصور الوسطى لم يكنْ يختلفُ في سلوكه العام عن الإنسان في أيّ مكان وزمان[٤].

---

(١) فاطمة أزرويل (٢٠٠١، ص٩).

(٢) نجية عبد الله (١٩٨٤، ص٥١).

(٣) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

(٤) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٥).

إنّ الأزواج والزّوجات اعتادوا على إشعالِ رغباتهم الجنسيّة المتبادلة من أجلِ الحصول على المال.[١] كان أحدُ رجال الدّين الصليبيّين يعيش في بيت صغير المساحة، ولم يكن لديه سعةٌ من المال، وكان متزوّجًا وعاجزًا جنسيًّا، فاستغلّت الزوجة تلك الظروف وامْتهنت الدّعارة، حتى خرجت عن سيطرته كرجل، وعندما افْتُضح أمرُها بعد مرور ثلاثِ سنوات من زواجِه منها قامَ بالانفصال عنها[٢].

لقد صارتِ الساقطة تحيا حياةً وصفت بأنّها أفضل من حياة ساقي الملك الفرنسي فيليب أغسطس،[٣] ولا عجبَ في ذلك، فقد كانت السلطاتُ الحاكمة تعمل على تسهيل الدّعارة والانحراف الجنسي بكلّ صوره بدافع الرغبة في الحصول على المال.

في سنة (١١٢٩م/ ٥٢٤هـ)، عقد الملك هنري الثاني ملك إنجلترا مجمعًا دينيًّا كبيرًا في مدينة لندن حول منعِ الكهنة من اتّخاذ خليلات، وكان موجودًا في هذا المجمع (وليم) رئيس أساقفة كانتربري، فمنح الأساقفة الملك الحقّ القضائي على خليلات الكهنة، ولكنّ الملك تسلّم مبالغ كبيرة من المال من الكهنة لإنقاذ خليلاتهم[٤].

ولم يكنِ المالُ هو السببَ الرئيس في ممارسة الدّعارة، بل كان السبب في بعض الانحرافات الجنسيّة الصليبيّة الأخرى، مثل مخالفة تعاليم الكنيسة في منع تعدّد الزوجات في وقتٍ واحد، أو ما يُعرف بالزّواج المحرّم كنسيًّا. فقد تعدّدت الروايات وتنوّعت حول

(1) Norman Daniel (1975، P.202).

أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٠٧).

(2) Theodosios Goudelēs (1993، P.129).

(٣) محمد رحيل (٢٠٠٩ ص٢٢٠).

(٤) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٣٩).

السبب في انفصال الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢م/ ٥٣٩ - ٥٥٧هـ) عن امرأته، فيقول البعضُ إنّ الملك أبعدها ليتزوّج من أخرى أكثر منها مالًا وأرفع مكانة، فاستطاع بذلك إصلاحَ حاله وإنقاذ نفسه من الفقر الذي أناخَ عليه وكان يرزحُ تحته[١].

هذا، ولم يكنِ المال هو السببَ الوحيد من الأسباب الاقتصادية كدافعٍ للانحراف الجنسي، بل كانت بعضُ المجاعات التي تعرض لها بعض الصليبيّين والرغبةُ في الحصول على القوتِ من الدوافع التي أدّت إلى اضطرار بعض النسوة للدّعارة. فبعد سقوطِ مدينة أنطاكية أظهرَ الصليبيّون وحشية لم تُعرف من قبل تجاه المسلمين، ولم تسلمْ منهم النسوةُ المسيحيّات أحيانًا، اللاتي كنّ يبعنَ أجسادهن لقاء بعضِ القوت[٢].

ويقول المؤرخ وليم الصوري عن النساء الصليبيّات أنفسهن أثناءَ حصار الصليبيّين في مدينة أنطاكية والمجاعة التي أصابتهم فيها: «أصبحت المدينة الآن محاصرةً من كلّ جانب، فعضّ الجوعُ بنابه أكثرَهم، ممّا حمل الجوْعى على سلوك سُبل مُخْجلة لسدّ هذا النقص، فقد تخلّت العقائل عمّا كنّ عليه من الحشمة التي كنّ قد طبعنَ عليها، أمّا العذارى فما عدن يأبهنّ بالخجل الذي كان سمة لهنّ، وينسين أنوثتهنّ، وطلعنَ بوجوه عليها غبرة، وأصواتٍ حزينة تُحرك أقسى القلوب، ورحنَ يلتمسنَ الطعام أنّى وجدْنَه، ولا يمنعهن خوفٌ من أن يراهنّ أحد»[٣].

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٥٩).
(٢) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص١٥١).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٨١).

وفي حملة الأطفال الصليبيّة بقيادة الطفل نيقولا (Nicola)،[1] بدأ الأطفال بعد فشلِ الحملة في عبور جبالِ الألب وهمْ مُتعبون ممزّقو الثياب، حُفاة الأقدام، مع قلّة ما يحصلون عليه من الطعام، فقتل البردُ منهم مئات عديدة، وقد استغلّ القوّادون عودة الفتيات الصغيرات فغرّروا بهنّ وأوقعوهنّ في شَرَكِ الرذيلة[2].

الأسبابُ العسكرية

إنّ الأزمة الشديدة التي عاناها الصليبيّون في بلاد الشام لم تكن بسبب الطعام ونُدرة الزاد، وإنّما كانت في حقيقة أمرها أزمةً في المقاتلين والرجال، ذلك أنّ الصليبيّين لم يؤسّسوا ما أسّسوه من إمارات إلّا بعد أن ضحّوا بعددٍ كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقصٍ خطير في الفرسان، في الوقت الذي كان بقاؤهم يتوقّف على القتال والحرب[3].

كانت العملياتُ العسكرية المترتّبة على الوجود الصليبي في بلاد الشام من الأسباب الهامّة غيرِ المباشرة في الانحراف الجنسي في المجتمع الصليبي. فقد أفنَتْ أوروبا في هذه المغامرة العسكريّة الاستعمارية زهرةَ شبابها من الفرسان والمقاتلين، فترتّب على ذلك ارتفاعُ عدد الإناث بالنسبة لعددِ الذكور سواء في أوروبا ذاتِها أو في الإمارات الصليبيّة في الشرق العربي الإسلامي، ونظرًا لأن تعاليم الكنيسة لا تبيح تعدّدَ الزوجات؛ فقد لجأت العديدُ من هؤلاء النسوة من العذارى أو الأرامل إلى سدّ حاجاتهم الجنسيّة خارج غطاءِ الزوجية الذي لم يتوفّر للعديد منهنّ بسبب قلّة عددِ الرجال.

(١) راجع: محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص٢٨٠).
(٢) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ص١٧٩).
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٨٢، ج١/ ص٢٩٦).

عندما حاصر صلاحُ الدّين الأيوبي بيتَ المقدس لتحريرها، كان هناك نقصٌ في الرّجال والمقاتلين، حتى قيل: إنّه كان في بيت المقدس عندئذ رجلٌ واحد مقابلَ كلّ خمسين من النساء والأطفال.(١) وهذا يوضّح مدى العجز الواضح في عدد الرّجال بالنسبة النساء بسبب مَنْ قُتل في الحرب خاصةً في موقعة حطين.

وفي أوروبا ذاتها كانت المدن والبلدان فارغة، ويندرُ أن تجد رجلًا بين سبع نساء إلى الحدّ الذي كانت هناك أرامل في كلّ مكان، أزواجهنّ على قيْد الحياة. تقول إحدى النساء: «اللعنةُ على الملك لويس الذي أرسل جميعَ الرّجال كي يدافعوا عن قبر المسيح، وبذلك ملأ صدري بالحزن»،(٢) فإنّ الحرب المستمرة- حروب سبع حملات صليبية على الأقل- راح ضحيتَها عددٌ كبير من الرجال، وبالتالي تقلّصت فرصُ الزواج ممّا فتح البابَ للرذيلة(٣).

هذا، وإذا كان انخفاضُ عدد الرّجال عن عددِ النساء في أوروبا وفي الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام كان سببًا في انتشار الانحراف الجنسي بين النساء؛ فقد كان لظروفِ الحرب وتنظيماتِ الجيوش الصليبيّة أيضًا سببٌ في انتشار نوع آخر من أنواع الانحراف الجنسي بين الصليبيّين؛ وهو السَدُومِيَّة (اللواط)(٤) أو يُعرف بالشذوذ الجنسي أو (المثليّة) في العصر الحديث.

إلى جانب الزّوجات اللاتي انطلقنَ يودّعن أزواجهن حاملات أطفالهنّ الرُّضع على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٨٢، ج٢/ ص٩٧).
(٢) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص٩٨ -٩٩).
(٣) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٨).
(٤) راجع: أسامة بن منقذ (٢٠٠١، ص١٣٥). سعيد عاشور (١٩٥٩، ج١/ ص٣٩٧).

أذرعهنّ[١] عند سفر الحملات إلى الشرق، فقد كثُرَ عددُ الشباب من العُزّاب الذين سافروا بعيدًا عن بلادهم وهُمْ في سنّ الزواج وبلا زوجات،[٢] فكان من عوامل تفشي الشذوذ الجنسي غيابُ القوات الرئيسة المتحاربة فترات طويلة في ميادين القتال بشكلٍ كان يحولُ بينها وبين الاستقرار اللازم لحياة الأسْرة.[٣]

الأسبابُ الدينية

على الرغم من أنّ الدّين كان يجب أن يكون وازعًا للصليبيّين في الامتناع عن الأعمال الجنسيّة المخالفة لتعاليم المسيحيّة، إلّا أن تمّ استغلال الدّين في حثّ الأوروبيّين على ارتكاب الفاحشة على الأقلّ مع أعداء المسيحيّين كالمسلمين والمسيحيّين الشرقيّين على أقلّ تقدير.

لقد داعبت خيالَ التابع الإقطاعي الشاب والعازب أحلامٌ عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجَمال الحريم.[٤] وفي سنة (١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ)، رحل البابا أوربان الثاني عن فرنسا عائدًا إلى إيطاليا؛ حيث تابع خطبَه في إلهاب حميّة الجماهير، محرّضًا إيّاها للاشتراك في الحرب ضدّ المسلمين، وقد رافقتْ دعوة البابا هذه دعايات شفهيّة وكتابيّة مزوّرة ومختلقة، قام بها بعضُ المتعصّبين، وكانت غايتُهم منها تحريضَ فرسان أوروبا الغربيّة لشنّ الحرب على المسلمين، والاستيلاء على خيْرات بلادهم التي تدرّ لبنًا وعسلًا، وعلى نساء آسيا الصغرى الجميلات، وسوى ذلك؛ من مباهجِ الحياة في الشرق[٥].

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص١١٢).
(٢) علي السيد (١٩٨٠، ص١٢٠). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٣).
(٣) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٢١٠).
(٤) يوشع براور (١٩٨١، ص٤٢).
(٥) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٩١).

تفشّت جريمة الزّنا بين الصليبيّين في زحفهم نحو بلاد الساحل الشامي، حيث اعتبر كثيرٌ من المشاركين أنّ القلمَ قد رُفع عنهم بمشاركتهم في الزّحف نحو الأرض المقدسة، وأنّ كافة جرائمهم مُعفى عنها بموجب الوعدِ البابوي. وعلى ذلك شاعَ في المدوّنات التاريخيّة الصليبيّة عن الحملة الصليبيّة الأولى أخبارُ كثيرٍ من حالات الزنا، حتى بين الرهبان والراهبات.[١] فاعتقد الصليبيّون أنّ مجرّد المشاركة في الجهد الصليبيّ من شأنه أن يغفرَ لهم خطاياهم، ويخلّصهم من الكفّارة المستحقّة على ذنوبهم،[٢] فانغمسوا في كثيرٍ من الانْحرافات التي اعتادوا عليها، ومنها الخطايا الجنسيّة، كارتكاب فاحشة الزّنا واللّواط (السَدُومِيَّة).[٣]

بل كان البعضُ يعتقد أنّ صَلاته يوم الأحد في كنيسة البلدة تكفّر ما اقترفه من إثمٍ خلال أيّام الأسبوع.[٤] وكان فرسان الغرب الأوروبي- على الجُملة- لا يفهمونَ من الدّين سوى أنه حِيازة الذخائر المقدسة،[٥] أو الهِبات التي كانوا يغدقونَها بسَخاء على الأدْيرة والكنائس تكفيرًا عن ذنوبهم، إذْ كان التّكفير عن الذّنوب أيسرَ لهم من الالتزام بالفضيلة[٦].

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل كانت بعضُ العاهرات الأوروبيّات تعتبر أنّ

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٨).

(2) See: Paul Rousset (1945، Pp.134 - 137). James A. Brundage (1969، Pp.10 - 18).

(٣) حسين عطية (٢٠٠١، ص٤٦). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦، ص١٠٧).

(٤) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦). محمد حمزة، لبنى رياض (٢٠١٥، ص٣٧٤).

(٥) هي رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. قاسم عبده (١٩٩٠، ص١٨).

(٦) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩، ص٨٥).

ممارسة الدّعارة مع العُزّاب من الأوروبيّين في الأراضي المقدسة قُربةٌ دينية لا يساويها أيّ ثواب. فقد ذكر آنفًا وصولَ مركبٍ بها ثلاثمائة امرأة إفرنجيّة مُسْتحسنة اجتمعنَ من الجزائر- جزر البحر المتوسط- وقصدنَ مِن خروجهنّ تسبيلَ أنفسهن للأشقياء، وأنهنّ لا يمتنِعْن من العزباء، ورأيْنَ أنهنّ لا يتقرّبن بأفضل مِن هذا القربان، وزعمْنَ أنّ هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيّما فيمَنِ اجتمعتْ فيه عُزبة وغُربة[١].

إلى جانب استغلالِ الدّين كدافعٍ للانحراف الجنسي، كان لضعفِ الوازع الدّيني في نفوس الصليبيّين أثرٌ كبيرٌ في نشر رذيلة الزنا والدّعارة داخل المجتمع الصليبي،[٢] يقول ألبرت فون آخن عن وصول الصليبيّين إلى مدينة صيدا في الحملة الصليبيّة الأولى: «في ضواحي صيدا فقدَ الكثيرُ من الحجاج أرواحَهم بفعل لدغ الثّعابين لهم، وتعرّف الحجاج على دواء، وهو أنّ الرجل الملدوغ يجبُ عليه فورًا أن يعاشرَ امرأة فيُشفَى ويتحرّر من الورَم»،[٣] فقد أدّى عدم تأصيل الشعور الديني إلى تيسير الأمرِ لمرتكبي الجرائم الجنسيّة.

ومن الأسباب الدينيّة للانحراف الجنسي، فسادُ الهيئة الكنسيّة التي كان من المتوقّع أن تقوم بدور الرقيب الأخلاقي في المجتمع الصليبي، فنجدُها تنحرف وتتحوّل عن غرضها الأساسي إلى جمعِ المال بشتّى الطرق حتى تأجير المنازل التابعة لهم لمحترفي الدّعارة، ممّا ساعد على انتشار تلك الحرفة على نطاقٍ واسع في المدن الصليبيّة.[٤] وكان من رجال الدّين مَنْ يقوم بتسهيل الانحراف الجنسي ومخالفة تعاليم الكنيسة لبعض

(١) أبو شامة (١٩٩٧، ج٤/ ص١٠٥).
(٢) دندل جبر (١٩٨٧، ص٧٢). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١١).
(٣) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص١٢٧).
(٤) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

القادة الصليبيّين، فقد قام البطريرك أرنولف بطريرك بيت المقدس بإغراء الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس بالزّواج من امرأةٍ أخرى في الوقت الذي كانت زوجتُه لا تزال حيّة[١].

إضافةً إلى ما سبقَ من أسبابٍ دينيّة للانحراف الجنسي عصر الحروب الصليبية، أنّ جريمة الزنا لم يكنْ لها جزاءٌ رادع، فحتّى لو ثبتت على امرأة فلم تكنْ عقوبتُها سوى النّفي بدلًا منَ الموت، فما بالنا بالمحترفات اللائي ليس لهنّ أزواجٌ يطالبون بحقوقِهم في عفافِ زوجاتِهم.[٢] يقول الرّحالة بورشارد عن رجال الدّين في مملكة الأرْمن والجورجانيّين: «عندما يموتُ الكاهن يجبُ على زوجتِه أنْ تكون عفيفة، وإذا تزوّجت مرةً ثانية، فإنها سوف تُحرق حيّة، وإذا أصبحتْ مومسًا، فلا يصيبها أيّ أذى»،[٣] أي أنّ ضعف القوانين أو عدمَ فعاليّتها في إنزال العقوبة بمرتكبي تلك الجريمة، كلّ ذلك منحَ النساءَ قدرًا كبيرًا من الحريّة لممارسة تلك الجرائم الجنسيّة البشعة[٤].

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٩٤).

(٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

(٣) بورشارد (١٩٩٥، ص١٧٨).

(٤) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٠٩).

الفصلُ الثاني

الانحرافُ الجنسي
في طبقاتِ المجتمع العُليا

«غالبًا ما يمارسُ الرّهبان في هذه الأدْيرة حياةً كلّها رفاهية ومُجون واحتساء للخمور، مع حياةٍ أخرى من حياة الفُجور»

المؤرخ بيير دوبوا

الفصلُ الثاني
الانحرافُ الجنسي في طبقاتِ المجتمع العُليا

سادتْ حياةُ الفساد والمُجون طبقاتِ المجتمع الصليبي المختلفة، وعلى الرغم من سموّ مكانة الطبقات الاجتماعية العليا، إلّا أنّها انْهمكت في الملذّات، وتناسى أفرادُها منزلتَهم وعلوّ مكانتهم في المجتمع، فارْتكبوا الموبقات دون حرصٍ، أو خوفٍ من سوء عاقبةِ ما يفعلون. لذا يبرز هذا الفصل مظاهرَ الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة، وطبقة رجال الدين، وطبقة التّجار.

الانحرافُ الجنسي في الطبقةِ الحاكمة

يركز كُتّاب التاريخ في كتاباتهم- في الغالب - على ذكْر أخبار الطبقة الحاكمة والشخصيات الشهيرة، لذا فقدْ فاضت المصادرُ التاريخيّة بالمادّة العلميّة الوفيرة عن هذه الطبقة في مختلف العصور ومختلف الأمصار، ولهذا وردتْ مادةٌ علميّة وفيرة في المصادر التاريخيّة عن الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة دون غيرها من طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبيّة.

بداية، فقد شارك بعضُ الملوك ورؤساء الإقطاع في أوروبا الكهّان في افتضاض بَكارة العذارى، فقد كانَ لهؤلاء في نظر الناس قدسيّة رجل الدّين، فكان من حقّهم أن يقضوا الليلةَ الأولى (أو حقّ التفخيذ jus primae noctis)[1] مع كلّ عروسٍ تزفّ إلى زوجها، ويسمّى هذا الحقّ (حقّ اللّيلة الأولى)، وكان من الملوك الذين مارسوا هذا الحقّ الملك

(١) إبراهيم الحيدري (٢٠١١).

(Malcom III) مالكوم الثالث (١٠٥٧- ١٠٩٣م/ ٤٤٩- ٤٨٦هـ) ملك أيقوسيا، فقد أصدر قانونًا ينصُّ على حقّه وحقّ أخلافه بفضّ كلّ عروس قبلَ أن تزفّ إلى زوجها إذا كانت مِن طبقة النّبلاء. وقد ظلّ هذا القانون ساريًا حتى ألغاه الملك (مالكوم الرابع) بتأثير من زوجتِه، واستبدل هذا الحقّ بمبلغ يدفعُه الزّوج إلى الملك، وقد درج هذا التدبير بعد ذلك فأخذ أمراءُ الإقطاع يتنازلون عن حقّهم في الليلة الأولى مقابلَ هديّة أو مبلغ يدفعه الزّوج إليهم. وفي روسيا كان للسادةِ الإقطاعيّين حقّ فضّ عرائس أتباعهم، وظلّ هذا الحقّ قائمًا خلال القرن التاسع عشر الميلادي[١].

إلى جانب هذا الانحراف الجنسي العام، كانت العلاقات الجنسيّة قبل الزواج- بوجهٍ عامّ في أوروبا- منتشرةً بحُكم غريزة الإنسان التي تتجاوز الشرائع الكنسيّة والدنيويّة،[٢] وقامت الزّوجات بممارسة الزنا مع الأقارب، وهو ما يعرف بـ»زنا المَحارم».[٣] وقد انتشرَ الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة الصليبيّة حتى من قبْل أن تطأ أقدامُهم الأراضي المقدسة، فعندما قرّر (ريموند الصانجيلي) كونت تولوز الاشتراكَ في الحملة الصليبيّة الأولى؛ عهدَ بإدارة أملاكه في فرنسا إلى ابنه غير الشرعي[٤] (برتراند)، وصحبَه في رحلته زوجتُه، ووريثه الشرعي ألفونسو.[٥]

---

(١) عبد السلام الترمانيني (١٩٨٤، ص٢٢١).

(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦).

(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٠٧).

(٤) مولود غير شرعي (illegitimate): هو المولود من شخصين لا يربط بينهما زواج. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣٤٨).

(٥) رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص٢٤٤).

عند الاطّلاع على سيَر الطبقةِ الحاكمة الصليبيّة في المصادر التاريخية نجدُ بأنّ الملك لويس التاسع ملك فرنسا، كان هو الأكثرَ التزامًا من بين كافة الملوك الصليبيّين،[1] ما عدا ذلك فقدْ شذّ من الحُكام من الرّجال والنساء مَنْ لم تكنْ له علاقةٌ جنسيّة مُنحرفة مع مختلف المستويات والطبقات الاجتماعية الأخرى.

هذا، ويمكن رصدُ الانحرافات الجنسيّة للطبقة الحاكمة في عصر الحروب الصليبيّة على النحو الآتي:

١ - بلدوين الأول (Balduinus I) وزوجتُه:

كان بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م/ ٤٩٣- ٥١١هـ) أول ملوك اللاتين في أورشليم، فحلّ رباط الزواج الذي يلتزم به الإنسانُ نحو الآخر منذ البدء، وأقفل على الملكة في أحدِ الأديرة المسمّى دير القدّيسة (حنَه Sancta Anna)،- في الناحية الشرقيّة من بيت المقدس- وأخذ الكونتيسة الصقلية[2] التي كانت تملك الممتلكاتِ الكثيرةَ وهي مطلّقة روجيري جيزاردي (Rogeri Guiseardi). إنه أمر مُنتنٌ لا يليقُ بشرفِ الملوك، بل إنه لا يكادُ يترك للضّلال أن يفسخ الإنسان الزّيجات المعقودة، أو أنْ يضاجع إناثًا غيرَ شرعيّات، أو أن يرتبط واحدٌ بكثيرات خلافًا لوصية الله والتّحريم الكنسي.[3] فقد اتّخذ الملك بلدوين الأول سنة (١١١٠م/ ٥٠٤ه) الإجراءَ اللازم لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطّلاق من زوجتِه الملكة (أردا Arda) بعد أن اتّهمها بالزنا، فطلبت أردا من زوجها السّماح لها بزيارة ولديها في القسطنطينيّة، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس، وإنّما حاولت أن تشبع نفسَها بمباهج العاصمة البيزنطيّة[4].

(١) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص٨٢).

(٢) راجع: جمال محمد الزنكي (٢٠٠٨، ص٣٣ - ٣٤).

(٣) مارينو سانوتو (١٩٩١، ص٣٠٧).

(٤) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج١/ ص٣٤٢).

فقد ادّعى الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس أنّ زوجتَه الأرمينيّة أردا- التي اقترن بها في مدينة الرّها وقتَ أن كان كونتها، قد تمّ اغتصابُها على يدِ بحّارة السفينة التي كانت تستقلّها خلالَ رحلتها من مدينة اللّاذقية إلى يافا، وأنّها ليست مثالًا للعفّة، ومن أجلِ ذلك قامَ بتطليقها في سنة (١١١٠م/ ٥٠٤هـ)[١].

إنّ الملكةَ زوجة بلدوين الأول ملك بيت المقدس، لم تكنْ مُتصاونة، بل كانت مُتهاونة في مُراعاة روابطِ الزوجيّة، فرحّبت في بادئ الأمر بممارسةِ الرّهبنة في ديرِ القديسة حنة شرق القدس، وعاشت حياةً شريفة في كلّ مظاهرها، ولكنّها حصلتْ على إذنٍ بزيارة بعضِ ذوي قرباها ممّنْ يعيشون في القسطنطينية بحجّة رغبتها في الحصول على مالٍ تبذله لتنقذَ مجتمعها الذي تعيش فيه من فقْره، فغادرتِ المملكة بهذه الحجّة، غير أنّها لم تلبث أنْ تخلّت عن حياتها الدينية، وأسلمت نفسها لحياة قذرةٍ داعرة، ولم تلقِ بالًا إلى سمعتها، ولا إلى مكانتها كملكة سابقة، فمارست الزنا مع كلّ مَن صادفته[٢].

ولم تكنْ ملكة بيتِ المقدس[٣] هي الوحيدةَ التي مارستْ مهنةَ الدّعارة في القسطنطينيّة، بل شاركها في الانحراف الجنسي أيضًا الملك بلدوين الأول نفسُه، يقول وليم الصوري عن الملك بلدوين الأوّل ملك بيت المقدس: «لم يكنْ يستطيعُ كبحَ شهواتِ البَدن، وانحدرَ فانغمسَ في الملذّات الجسدية دون أن يعفّ عن شيء منها، والحقّ أنّه لم يكن ثمّة مَنْ يدري بعاداتِه الفاجرة سوى نفرٍ قلائل من خاصّته، ممّا يعتبر شيئًا نادرًا في مثل

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٤).
(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٥٩).
(٣) عن ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري)، راجع: أسامة زكي زيد (١٩٩٥، ص١٩ - ٦٦).

هذه الأمور».[1] ذلك دونَ أن يُصرّح وليم الصوري بنوعيّة الانحرافات الجنسيّة التي كان يمارسها بلدوين الأول ملك بيت المقدس، والتي يفهم من روايتِه السابقة أنه كان يمارسُها في خفاء؛ لأنّ الكثيرين لم يكونوا على علمٍ بها.

٢- أسرة فولك دانــجو (ملك بيت المقدس):

لم تكن الانحرافاتُ الجنسيّة لأسرة فولك ملك بيت المقدس وليدةَ لحظة تتويجِه ملكًا على بيت المقدس، بل كانت سابقةً لوجوده في الحياة. فقد كان فولك الكبير- والد فولك ملك بيت المقدس- متزوّجًا من (برترادا دي مونتفرات) ولّما أنجبت له أولادَه الثلاثة هجرتْه وفرّت إلى فيليب[2] ملك الفرنجة- فرنسا- الذي نحّى جانبًا زوجتَه الشرعيّة، وجعل (برترادا) تقاسمه فراشَه، فشاطرته أشجانَه، وظلّ مبقيًا إيّاها معه رغمَ أنف القانون الكنسي، ورغم جميع مُحاولات الأساقفة وأشرافِ مملكته، بل لقد انتهى به الأمرُ أخيرًا إلى أنْ عاملها معاملةَ الزّوج لزوجته، فأنجبَ منها ولديْن هما (فلورس) و(فيليب)، وابنة هي (سيسيليا)[3].

كان فيليب ملكُ الفرنجة الذي سحرتْه الكونتيسة (برترادا) بجمالها قد انْفصل عن الملكة زوجتِه الشرعيّة التي كانت قد أنجبتْ له طفلين هُما لويس وكونستانس، وكان هذا الانفصالُ مخالفًا لقانون الكنيسة.[4] فتمثّل الانحراف الجنسي من قبل الملك فيليب في الجمعِ بين امرأتيْن في وقتٍ واحد، وهو منَ المحرّمات الكنسية، وفي اقترافِ جريمة

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٩٥).

(٢) توفّي الملك فيليب ملك الفرنجة (فرنسا) سنة (١١٠٨م/ ٥٠٢هـ). وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٧١).

(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٩١).

(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص١٨٢).

الزنا مع امرأةٍ مُتزوّجة في الأساس، بل وتمادى معها في الانْحراف إلى حدّ الإنجاب لعددٍ من الأولاد.

ولم يكنِ الانحراف الجنسي في أسرةِ الملك فولك دانجو ملك بيت المقدس قاصرًا على أمّه فقط، بل امتدّ هذا الانحراف الجنسي إلى زوجته أيضًا. كان الملك فولك دانجو في سنّ الأربعين عند تنصيبِه ملكًا على القدس، بعد وفاة بلدوين الثاني سنة (١١٣١م/ ٥٢٦هـ)، وكان يكبر زوجتَه الملكة (ماليزاند) بعدّة سنوات، وقد اضطرّت هذه للزّواج منه في سبيل مصلحة العرش، إذْ كانت قبْل زواجها به على صداقةٍ مع كونت يافا الشاب (هوج دي بويزا Hugues Du Puiset)، الذي كان من المقرّبين للملك الراحل بلدوين الثاني، ويمتّ إليه بصلةِ القرابة. وبعد زواج الملكة ماليزاند بقي هوج يتردّد عليها- بصفته رفيق صباها- وكثر تردّده، بحيث انتشرت الأقاويلُ والشائعات بحقّهما، فاهتمّ الملك بذلك، وغضبَ على الكونت الشاب وراح يكيدُ له.[1] فاشتدّت الخصومة بين فولك ملك بيت المقدس، وبين هوج كونت يافا، فقد شاعت الشائعةُ بأنّه كان على علاقاتٍ كبيرة بالملكة، ويبدو أنّه كانت هناك أدلةٌ كثيرة تؤكّد صحّة هذه الشائعة، ومِن ثمّ فقدْ حرّكت الملك غيرتُه على زوجته حتى ليُقال: إنّ نفسَه انطوتْ على كراهية سوداء كان يُضمِرها لهذا الرّجل هوج، فقد كان الكونت هوج شابًّا فارعَ الطول، مليحَ التقاطيع.[2] ولعلّ هذه الصّفات الجسمانيّة فضلًا عن اختلاط ملكة بيت المقدس في صباها بالكونت هوج؛ هي التي دفعتْها للانحراف الجنسي معه وإشباع غرائزها خارج فراش الزوجيّة.

---

(١) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٢٦٩).

(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص١١٨).

هذا، ولم يتوقّف الانحراف الجنسي في أسرة الملك فولك دانجو عند حدّ أمّه أو زوجتِه، بل امتدّ أيضًا إلى شقيقته. فقد كانت (هرمنجارد) ابنة فولك الكبير كونت تورين، وشقيقة الملك فولك ملك بيت المقدس، قد تزوّجت أولَ ما تزوّجت بوليم كونت بواتو، فلمّا هجرها وطردَها، هربت إلى كونت بريتاني الذي أحبّته وعاشت معه، وعاشرتْه معاشرة الزوجيّة، فأنجبت له ولدًا هو (كونان) كونت بريتاني الذي عُرف بالسّمين[١].

٣ – أسرة عموري الأول (ملك بيت المقدس):

تزوج عموري الأول[٢] (Amaury I) ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢- ١١٧٤م/ ٥٥٧-٥٦٨هـ) مرّتين، كانت زوجته الأولى هي (أجنس دي كورتناي Agnes) ابنة كونت الرّها (جوسلين الثاني)، وقد تزوّجها قبل اعتلائه العرش، غير أنّ رجال الدّين عارضوا هذا الزواج، وأنكروه لَمَا كان بينهما من صلةِ الدّم، ممّا اقتضى إلى التّفرقة بينهما وطلاقِهما، لكنْ بعدَ أنْ كانا قد أنجبا طفلةً عرفت باسْم (سيبسيل) وولدًا عُرف بـ (بلدوين) الذي سيقَ إليه التاج- تاج مملكة بيت المقدس- بعد موت أبيه، وقد عانى من مرض الجُذام حتى عُرف بالملك الأبرص.[٣] كانت درجةُ القرابة بينهما من الدرجة الرابعة، ففسخ العقدُ بينهما حسبما يقضي القانونُ الكنسي[٤].

كانت الخطيئة التي أخذها عليها البطرك، والتي يستحيلُ معها اعتلاؤه العرش هي زواجه من (أجنس)، فردّ عموري على البطرك أنّه سيضع نفسَه تحتَ رحمة الكنيسة

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٩٠).

(2) See: William of Tyre (1943 ، Vol.2 ، Pp.295 - 396).

(٣) مجهول (٢٠٠٠، ج١/ ص١٣١- ١٣٢).

(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٢٣).

الطّاهرة، فقال البطرك: إنّه إذا طلّق زوجته التي كان زواجُه بها زواجًا تحدّى به الربّ والشريعة؛ فإنّه يكون- حينئذ- أهلًا بتاج بيت المقدس، فلم يكنْ من عموري إلّا أنْ عاهد البطرك أنْ يطلّق زوجتَه وقريبتَه هذه، وأنه سوف يرسلُ رسالة إلى روما حولَ هذا الموضوع، ويسأل البابا أن يغفر له ما كانَ منه، ويعفو عن زلّته. وعلى هذه الصورة، كان انفصالُ عموري عن أجنس، وأعقب ذلك تتويجُ عموري ملكًا، وأصبح الآمرَ الناهي في مملكة بيت المقدس[1].

ويمكن إرجاع سبب انفصال عموري الأوّل عن زوجته أجنس إلى سبب آخر غير درجة القرابة ورغبته في تولّي عرش بيت المقدس؛ وهو مغامراتُ عموري الأوّل الجنسية خارج إطار الزوجيّة، يقول وليم الصوري عن الملك عموري الأول[2]: «إنّ عموري أطلق العنانَ لشهواتِه، فلم يكبحْ جماحَ رغائب جسده، فكمْ من نساءٍ متزوّجات أفسدهنّ، فليغفر له الربّ ما فعل، وليسامحه».

إنّ الأمر لم يتوقّف على الانحراف الجنسي لعموري الأول، بل شاركتْه في ذلك طليقتُه (أجنس) أيضًا، فبعدَ طلاقها تزوّجت من (رينو) صاحبَ صيدا ابن (جيرارد) بنفس وشيجة الحبّ التي سبق لها أنِ ارتبطت بمثْلها، وكانت أبعدَ عن الشرعيّة، وذلك لأنّ (جيرارد) والد رينو، كانت تربطه وشيجةُ الدّم والقربى بها، وترتّب على ذلك أنْ صدرَ قرارٌ ثانٍ بفسخ الزّواج[3].

---

(١) مجهول (٢٠٠٢، ص٢٢).
(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص١٨).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٤ – ٢٥).

وقد امتدّ الانحرافُ الجنسي في أسرة عموري الأول إلى شخصية أخرى من أسرته، وهي زوجتُه الثانية. فبعد أن طلّق الملك عموري الأول زوجتَه السابقة، تزوّج عموري بعد ذلك من (مارية كومنينا) بنتِ أخ الإمبراطور البيزنطي مانويل (١١٤٣ – ١١٨٠م / ٥٣٨- ٥٧٦ه) فولدت له بنتًا سمّتها (إيزابيلا) أصبحت فيما بعد ملكةً على بيت المقدس.[١] لكنْ بعد وفاة عموري الأول، كانت أرملتُه (مارية كومنينا) قد انغمرتْ في الدّنس الإغريقي من المهدِ منذ زمنٍ بعيد، ثمّ صارتْ زوجةً لرجلٍ يماثله في انْحطاط القيم الأخلاقيّة[٢].

٤ – بلدوين الثالث (١١٤٤ – ١١٦٢م)[٣]

من ملوك بيت المقدس الذين كانت لهم انحرافاتٌ جنسيّة على نطاقٍ واسع دون أن تذكرَ لنا المصادرُ التاريخية أسماء مَنْ انحرف معهم جنسيًّا الملك (Baldwin III) بلدوين الثالث، فقد كان كثير الانغماس بصورةٍ لا تتّفق وهيبتُه الملكية في ممارسة ألعابِ الحظّ كالميسر والنّرد، كما يقال إنّ استسلامه لشهوات البدن أفسدَ روابطَ الزوجيّة عند آخرين، بيْدَ أنّ ذلك كلّه كان أيام شبيبتِه، أمّا حين اشتدّ عوده وبلغ مبلغَ الرّجال فقد التزمَ بالفضائل، ويقال: إنّه لمّا تزوّج أخلص لزوجتِه كلّ الإخلاص، وتخلّى عن خطيئة بغيضةٍ مذْمومة عند الربّ كان قد مارسَها في شبابه تحتَ ظروف حرجَة، ثمّ تاب عنها بعقلٍ راجح، واستبدَلها بما هو أحسن[٤].

---

(١) مجهول (٢٠٠٢، ص٢٢).

(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج١/ ص١٥٩).

(3) See: William of Tyre (1943 ، Vol.2 ، Pp.136 - 294).

(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٢٣٣).

مِن خلال الرّواية السابقة يمكنُ إرجاع الانحراف الجنسي الذي كان يقوم به ملك بيت المقدس بلدوين الثالث إلى عدّة صور من الانحراف الجنسي، فقد أفسد روابطَ الزوجيّة عند الآخرين، وهذا يفيدُ إلى ارتكابِه للعديدِ من العلاقات الجنسيّة المحرّمة (الزنا) مع المتزوّجات، أيضًا تفيدُ هذه الرواية إلى أنّه كان يمارس جريمةَ (اللّواط) أيضًا، وهو ما يُفهم من عبارةِ تخلّيه عن خطيئة مذمومَة كان قدْ مارسها في شبابه تحت ظروفٍ حَرجة.

ويؤكّد وليم الصوري على صور الانحراف الجنسي المتعدّدة للملك بلدوين الثالث في موضعٍ آخر بقوله:[1] «على أنّ الملك منذ زواجه نبذَ ظاهريًّا جميعَ ما كان يتّسم به من رعونةٍ طائشة لم يكن يتورّع عن التّظاهر بها من قبل، ومن المُعتقد أنه ظلّ وفيًّا لها حتى آخرَ عمره، فتخلّى عن كلّ ما يشينه، وصارَ رجلًا غير الذي كان من قبْل».

٥ - بوهيموند الثالث (أمير أنطاكيا)[2]

لم يقتصر الانحرافُ الجنسي في الطبقة الحاكمة الصليبيّة على ملوكِ بيت المقدس، بل شاركهم فيها غيرُهم من حكّام الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، وفي طليعة هؤلاء الأمير بوهيموند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠٠م/ ٥٥٨ - ٥٩٥هـ) أمير أنطاكيا.

استسلم بوهيموند الثالث (Bohemond III) لشهواته وأهوائه، من ذلك أنه لم يقنعْ بزوجتِه البيزنطيّة الحسناء الأميرة (تيودورا كومنين) وإنّما تزوّج سرًّا بامرأة أخرى اسمها (أورجيليز Orguelleuse)، ثمّ أعلن زواجَه منها عقبَ طلاق الأميرة البيزنطيّة سنة (١١٦٨م/ ٥٦٤ه)، ولم يلبث بوهيموند أن هجرَ زوجتَه الثانية كذلك سنة (١١٨٣م/

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص٤٢٨).

(2) See: William of Tyre (1943 ، Vol.2 ، P.311).

٥٧٩هـ) ليعيش بين أحضانِ امرأة ثالثة اسمها (سيبلا) عُرفت بسوءِ السّيرة والخُلق، ولم تتورّع عن خيانةِ بوهيموند[١].

فقد تحدّى بوهيموند الثالث قوانينَ الكنيسة، إذْ تزوّج من امرأة تدْعى (سيبلا) وكان قد ذاعَ صيتها بممارسة أعمالِ السّحر الشريرة، فأصبح وضعُ اللّاتين في إمارةِ أنطاكية شديدَ الاضْطراب، بسبب ما قامَ به أميرها بوهيموند الثالث من تنْحية زوجتِه الشرعيّة (تيودورا) واتّخاذه (سيبلا) خليلةً له يعاشرُها معاشرةَ الأزواج، وطالما نبّهه الكثيرون إلى وجوب الكفّ عن حياة الدّعارة الخسيسة التي يحيى فيها جهرًا، وأنْ يعيد زوجتَه الشرعية (تيودورا) إليه، وعلى الرغم من صدور قرار الحرمان[٢] ضدّه، فلم يعرْهُ اهتمامًا، بل تمادَى في غيِّه وأسرفَ في ممارسة حياته النّجسة أكثرَ من ذي قبْل.[٣] فيُعَدّ خبرُ بوهيموند الثالث مع (تيودورا) و(سيبلا) مثلًا صريحًا للتفكّك الأخلاقي الذي كان منتشرًا في طبقات المجتمع الصليبي العليا[٤].

٦ - الأسرة الحاكمة في قبرص:

ترك ملكُ قبرص هيو الثاني (١٢٥٣ - ١٢٦٧م/ ٦٥١- ٦٦٥هـ) زوجتَه الصغيرة (إيزابيلا) ابنة جون الثاني الأبليني وريثة بيروت، أرملة عذراء، فارتبطت بعلاقةٍ جنسيّة غير شرعية مع (جوليان) أميرِ صيدا.[٥] فقد تركَها هيو الثاني أرملة بكرًا، غير أنّها فقدت عذريّتها في علاقةٍ آثمة مع جوليان حاكم صيدا، واشتهر الأمرُ حتى وصلَ إلى مسامع

(١) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج٢/ ص٥٥).
(٢) حرمان (Excommunication): عقوبة دوائية أو تأديب، يُفصل به معمَد مذنب متغيب عن مشاركة المؤمنين. انظر: صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص١٨٨).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٦١ - ٢٦٣).
(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٣٣٧/ حاشية رقم ٣٧).
(٥) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٢١).

البابا الذي أصدرَ مرسومًا بزواجها، غير أنّها تركت جوليان وتزوّجت من رجل إنجليزي يدعَى (هامو) رغمَ أنف البابا وأنفِ ملك قبرص وعكا (هيو الثالث)، كما احتجّ البابا أوربان الرابع سنة (١٢٦١م/ ٦٦٠هـ) على العلاقة الآثمة التي ربطتْ بين ملكة قبرص (بلايسانس) وبين كونت يافا (إبلين) القانوني الشهير[١].

٧ - المركيز كونراد:

كان المركيز الإنجليزي كونراد تربطُه علاقة آثمة مع فتاة تدعى (إيزابيلا)، فأصدر أسقفُ كانتربرى قرارَ الحرمان الكنسي ضدّ الذين يقبلون عقدَ زواج (إيزابيلا) من المركيز كونراد، ويوافقون عليه، ولم يكن قرارُه هذا صادرًا من فراغ، بل لأنّ المركيز أخذَ الفتاة وضاجعَها مضاجعةَ الزوجية مع أنّ زوجها كان لا يزال حيًّا، ومضى بها إلى بيتِه وتزوّجها زواجًا أشهدَ عليه أسقف (بوفيه)، ومع أنّ المركيز كانت له في هذا الوقت ذاتِه زوجةٌ أخرى لا زالت تعيش في بلدها، وأخرى غيرها في مدينة القسطنطينيّة، هي تيودورا إنجيلا (Theodora Angela)[٢] وبناءً على ما قاله الصادقون، فإنّه ارتكب ثلاثَ جرائم من جرائم الزنا[٣].

٨ - فيليب الثاني (ملك فرنسا):

لم يتوقّف الانحراف الجنسي عصرَ الحروب الصليبيّة في الطبقة الحاكمة على الملوك والأمراء الصليبيّين في بلاد الشام، بل كان لملوكِ وقادة الحملات الصليبيّة الذين لم

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢٢).

(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج١/ ص١٦٠ - ١٦١).

(٣) تيودورا إنجيلا: هي أخت الإمبراطور البيزنطي إسحق إنجليوس، وكان كونراد قد تزوجها في ربيع سنة (١١٨٧م/ ٥٨٣ه)، ثمّ ما لبث أن طلقها في يوليو من السنة ذاتها. مجهول (٢٠٠٠، ج١/ ص٢٩٢/ حاشية رقم ١٩٤).

يستقرّوا في بلاد الشام جانبٌ كبيرٌ في هذا الانحراف الجنسي، بل إنّ الدعوة إلى عقدِ مؤتمر كليرمونت كان من أسبابها حلّ إحدى الانحرافات الجنسيّة لأحدِ حكّام أوروبا، وهو الملك فيليب الثاني ملك فرنسا.

كان البابا أوربان الثاني قد دعا إلى عقدِ مَجمع كنسي في كليرمونت سنة (١٠٩٥م / ٤٨٨ه)، لمناقشة سُبل إصلاح الكنيسة الفرنسيّة، ولمناقشة موضوع ثان، لم يكن ليقلّ أهمية، وهو أنّ فيليب الثاني ملك فرنسا من آل كابييه، كان يعيش حياةَ الخطيئة مع امرأةِ رجلٍ آخر على الرغم من تحريم الكنيسة، ممّا اعتبر بمثابة فضيحة من أكبرِ فضائح العالم المسيحي آنذاك.[١] وفي مَجْمع كليرمونت أصدرَ البابا أوربان الثاني قرارًا بحِرمان ملك فرنسا فيليب الثاني، لعدم مثولِه أمام البابا في المَجْمع، ولعلاقته الآثمةِ بزوجة الكونت (دانجو برتراد دي مونتفورت) التي انتزعَها من زوْجها بعد هجْره لزوجتِه (برت دي هولاند) وتطليقِه لها.[٢]

٩ - إليانور (دوقة أكوتين):

ارتبط الانحراف الجنسي بأسرة إليانور دوقة أكوتين وابنة وليم العاشر وبسمعتِها منذ زمنٍ بعيد، حتى من قبْل مولدها. فهي حفيدةُ دوق أكوتين وليم التاسع، الذي كانت له علاقةٌ آثمة بسيّدة تُدعى (دانجروسا)، وقد لعنَ ناسكٌ محلي هذه العلاقةَ الآثمة والزنا السافرَ بين وليم التاسع ودانجروسا، وتنبّأ بأنّهما سوف لا ينْعمان أبدًا بالسعادة مع ذرّيّتهم، ولن يأتي من نسلِهما شيء صالح،[٣] وقد حدثَ هذا بالفعل.

---

(١) يوشع براور (١٩٨١، ص٣٩).
(٢) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٨٥).
(٣) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٩/ حاشية رقم٢).

إنّ إليانور دوقة أكوتين- على الرّغم من سمعتها السيئة من بداية حياتها- لم تُصبْ في سمعتها إلّا بعد خمسينَ عامًا.[١] فقد تزوّجت إليانور من ملكِ فرنسا لويس السابع، وعندما فكّر في قيادة الحملة الصليبيّة الثانية مع (كونراد) ملك ألمانيا إلى فلسطين؛ اصطحبَ معه زوجتَه إليانور الشديدة الشّوق بالمغامرات، فارتدّت لباس الرّجال العسكري، وسارت في مقدّمة الجيش، وسارت الحملة برًّا من فرنسا إلى القسطنطينيّة، ثمّ عبرتْ آسيا الصغرى حيث عانتِ الكثير حتى وصلت إلى مدينة أنطاكيا التي كان يحكمها (Raymond of Poitiers) ريموند أوف بواتيه (١١٣٦ - ١١٤٩م/ ٥٣١- ٥٤٤ه) خال إليانور، وفي هذه المدينة أشيع عن إليانور أنّها على علاقة مع عمّها، ومرة أخرى أشاع البعض أنّها أحبّت عبدًا مسلمًا جميلًا، ومرة ثالثةً قالوا: إنّها تحبّ صلاح الدّين الأيوبي، رغم أنّ صلاح الدّين لم يكن مَعروفًا في هذه المرحلة[٢].

كانت سمعةُ إليانور دوقة أكوتين دائمًا في مكانةٍ منخفضة؛ لأنّ شخصيتها لم تكنْ مُنسجمة مع الفضائل التي كان الناسُ يقدّرونها في ذلك الوقت، ومِن بين الرّجال الذين كانوا يبتهجونَ بسلوكها ريموند أمير أنطاكيا، وبدا للجميع أنّ ريموند وابنةَ أخيه بينهما ما يزيدُ على العاطفة العاديّة، وشعر لويس السابع ملك فرنسا بالإهانة لشرفه، وقاد جيشه إلى القدس، بعد أن أخذ زوجتَه معه بالقوّة[٣].

وإذا كانت القسطنطينيةُ قد سحرت إليانور بفخامتِها وروعتها؛ فإنّ أنطاكيا بدتْ في نظر إليانور مختلفةً تمامًا وأفضل، عبارة عن جنّةٍ من المُروج الخضراء، ووجدتْ فيها شيئًا

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٨١).
(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٢٩).
(٣) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص١٢١).

يذكّرها بأراضيها في بواتو وأكوتين التي تهيم بها عشقًا. علاوة على ذلك كان ريموند شخصيةً مبْهرة وجذّابة، وكان راعيًا للآداب، وشعر التروبادور (Trapador)[1]مثل أبيه وليم التاسع وأخيه وليم العاشر، وكان يسودُ بلاطَه جوٌّ من المرح، واندمجَ الاثنان- الملكة إليانور والعمّ ريموند- في الحديث عن ذكريات الطفولة عندما كان يعيشان معًا في قصر (أومبرير Ombriere) في أكوتين[2].

إنّ إليانور على مدى خمسين عامًا لم تجدِ الحبّ الرومانسي عند زوجها- لويس السابع- وعلى الرغم من فيض القصص التي تحدّثت عن ارتكابها جريمة الزنا، فإنها لم تجدِ الحبّ خارجَ الزواج أيضًا.[3] وقد وصف البعضُ الملكة إليانور بأنها زوجةٌ فاسدة، وأُمًّا فاسدة، وملكةً فاسدة أيضًا.[4]

بعد أنْ تمّ الطلاق بين إليانور ولويس السابع ملك فرنسا لعلاقتها الآثمة مع عمّها ريموند؛ تزوّجت من هنري الثاني ملك إنجلترا، فانتقلت إليانور إلى إنجلترا بثقافة فرنسا الجنوبيّة، وعاشت في إنجلترا كما عاشت في بلادها من قبْل نصيرة للشعراء وملهمَتَهم، ولكنّ هنري الذي كان أصغرَ منها بإحدى عشر عامًا لم يجدْ ما يشينُ سلوكَها، ولكنّ طباع هنري الثاني الحادّة لم توافقْ هوى إليانور، كما أنّ هنري انشغلَ عنها بنساءِ البلاط، وعندما احتجّت على ذلك أنزلَها من عرشها فهربتْ إلى بلادها، ولكنّه قبض عليها وأوْدَعها السّجن، فثار الشعراءُ على الملك، وأثارتْ هي الأولاد على أبيهم فخلَعوه عن العرش،

---

(١) شعر غنائي ظهر في جنوب فرنسا في أخريات القرن (١١م/ ٥هـ)، وعن شعر التروبادور، راجع: مريم البغدادي (١٩٨١، ص٩ - ١٢٩).
(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٨٦).
(٣) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٢١).
(٤) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٣).

ولكنه ظلّ يقاوم حتى ماتَ سنة (١١٨٩م/ ٥٨٥هـ). ولمّا خلف ريتشاردُ قلبُ الأسد والدَه على عرش إنجلترا (١١٨٩ – ١١٩٩م/ ٥٨٥- ٥٩٦هـ) أخرج أمَّه من السجن، وعيّنها نائبة عنه في الحكم عندما قرّر قيادة الحملة الصليبيّة الثالثة لمحاربة صلاح الدّين الأيوبي. ولمّا حكم ابنُها الملك يوحنا إنجلترا (١١٩٩ – ١٢١٦م/ ٥٩٦- ٦١٣هـ) دخلت إلى أحدِ الأديرة حيث ماتتْ من الحزن في الثانية والسبعين من عمرها[١].

١٠ – هنري الثاني (ملك إنجلترا وأسرته):

إذا كانت الملكة إليانور ملكة فرنسا، ثمّ إنجلترا من بعد؛ سيئةَ السمعة ومنحرفة جنسيًّا؛ فقد ماثلها في ذلك زوجُها هنري الثاني ملك إنجلترا الذي عُرف في كتب التاريخ بعلاقاته الجنسيّة المتعدّدة مع النساء.

كانت إليانور على يقين بأنّه لا يوجد واحدةٌ من خادماتها في مأمنٍ مِن نزوات زوجِها الملك هنري الثاني ملك إنجلترا، لدرجة قيامِ أفصاله بإخفاء زوجاتِهم وبناتِهم عندما يقتربُ الملك من ديارهم. وقد اتّخذ هنري الثاني عشيقةً دائمة له هي (روزاموند Rosamond).[٢] وكانت روزاموند في الثلاثين من عمرها، وهي ابنة رجلٍ نبيلٍ اسمه ولتر كليفورد (Walter de Clifford).[٣] كان ضمن الذين انضمّوا لقوات الملك في حملتِه على ويلز في صيف (١١٦٥م/ ٥٦١هـ). وربما زاره هنري الثاني في قلعته بناءً على دعوةٍ وجّهَها إليه، حيث التقى بروزاموند، فقد وقعَ هنري بلانتغنت الثاني في الحبّ، وهذه المرّة لم تكنِ الحبيبة مجرّدَ فتاة جميلة وجدَها في قرية نورمانيّة قضى فيها ليلةً عابرة،

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٩٣).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٠٩، ١١٤).

(٣) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٣٧٩).

ولا فتاةٍ وضيعة من الحانات المنتشرةِ على ضفتي نهر التيمز، ولا ابنةَ أحد البارونات الذي كان يسعى لتحسين حظّه بالتقرّب إلى الملك، ولم تكنْ ملكة أثارتْ أراضيها وشهرتُها شهوةَ الطمع لديه، هذه المرة كان حبًّا حقيقيًّا، وربما يكون أول حبّ شعر به هنري نحو امرأة[١].

إنّ الملك هنري الثاني لم يقترف الزنا إلّا بعد أن تخطّت الملكة إليانور سنّ الإنجاب في الفترة من (١١٦٧ - ١١٦٨م/ ٥٦٣- ٥٦٤هـ)، لكنّ ذلك يخالف الحقيقة؛ ففي سنة (١١٦٧م/ ٥٦٣هـ)، أطلق هنري لنفسه العنانَ بعلاقة عاطفية مع (روهيز Rohese) كونتيسة لنكولن وشقيقة (روجر دي كلير Roger de Clare) وكانت له خليلةٌ أخرى تدعى (أفايس Avice de Stafford)، وأسفرت علاقات هنري الجنسيّة خارج نطاق الزواج عددًا من الأبناء غير الشرعيّين المعروفين، وهناك أبناءٌ غيرُ شرعيّين آخرون غيرُ معترَفٍ بهم، وأشهرُ أبنائه غير الشرعيّين (جوفري Geoffrey)[٢].

لم يكتفِ الملك هنري الثاني ملك إنجلترا بعلاقاته الجنسيّة المحرّمة خارج إطار الزوجيّة، بل مارس جرائمه الجنسيّة من خطيبةِ ابنه، وهو ما يدخلُ في دائرة زنا المَحارم. فقد قام الملك هنري الثاني بمعاشرة (أليس) ابنةِ الملك لويس السابع ملك فرنسا، وعروسِ ابنه ريتشارد قلبِ الأسد علنًا ودونَ خجل، وكان ذلك أكثرَ افتضاحًا من علاقتِه بعشيقتِه روزاموند[٣].

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١١٣).
(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٠٥/ حاشية رقم٢).
(٣) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٢٧).

كان سببُ رفض الملك ريتشارد قلب الأسد الزواجَ من شقيقة ملك فرنسا (فيليب أُغسطس) أنّ الملك الإنجليزي ردّ عليه قائلاً: «إنني لا أمقتُ أختك، ولكنني لنْ أتّخذها زوجة لي، لأنّ أبي عرفها، وله ولدٌ منها»، ووقف الملك ريتشارد متصلّبًا ضدّ الملك الفرنسي.[١] وأنّه على استعدادٍ لتقديم أدلةٍ قاطعة وشهودٍ لإثبات خيانة أليس منذُ كانت طفلة مع أبيه، وأنّها أنجبت منه طفلًا، خاصةً وأنها عاشت لفترة قصيرة في بلاط هنري الثاني[٢].

هذا، ولم يتوقّف الانحراف الجنسي في أسرة بلانتغنت على الملك هنري الثاني، بل امتدّ الانحراف الجنسي إلى أفراد أسرتِه ومَن جاء بعدَه من ملوك إنجلترا. في سنة (١١٢٠م/ ٥١٤هـ)، غرق في البحر ولدا الملك هنري الأول ملكِ إنجلترا وابنته وحفيدتيْه وكثيرٌ من النّبلاء، قيل: إنّهم كانوا جميعًا قد فسدوا بسبب ممارسة إثم اللّواط، فقد ابتلعَهم موت مفاجئ مع جميع دنَسِهم، مع أنّ البحر كان هادئًا آنذاك.[٣] ولم يكنِ الملك الإنجليزي وليم يمارسُ جرائمه في الفسق سرًّا، بل بشكلٍ مكشوف في وضَحِ النهار[٤].

وعلى الرّغم من أنّ عقوبة الزنا في القانون الإنجليزي كانت عقوبةً قاسية، إذ كان القانونُ يرى معاقبة الزوجة الزّانية بجدْعِ أنْفها، وصلْم أذُنها كما أجازَ لزوجها قتلَها. فإنّ هذه الجريمة لم تتوقّف، ولكنّها كانت منتشرةً في طبقة النّبلاء، وأقلّ ما تكون في الطبقات

---

(١) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٢٣٧).
(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٢٥).
(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠/ ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٣٢).
(٤) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠/ ج٣٩/ القسم الأول/ ص٩٨).

الوسطى، ولعلّ انتشارها بين طبقاتِ الأشراف يرجعُ إلى أنّ السّادةَ كانوا يغوون رقيقاتِ الأرض ولا يحكمُ عليهم إلّا بغرامات بسيطة قد تصلُ إلى ثلاثِ شلنات[١].

من الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة الإنجليزية من غير الملوك، أنّ اللورد (همفري أوف تيرون)- الذي كان معاصِرًا للملك ريتشارد قلب الأسد- كان صاحبَ مكانةٍ رفيعة، فاتّخذ لنفسه قرينةً له في بيتِه الشخصي ضدّ الشريعة، وكان له من قبْل زوجتان، واحدةٌ كانت في القسطنطينيّة والأخرى في بلاده، فقام رئيس أساقفة كانتربري ورجالُ الدّين الآخرون والأساقفة بتحريم الزّواج، وحرّموه كنسيًّا، وأخبروه بوضوحٍ وجُرأة أنه يقترفُ الزنا مضاعفًا ثلاثَ مرات.[٢] يقول روجر أوف وينوفر عن حاشيةِ الملك الإنجليزي وليم:[٣] «كانت أعمالُ اغتصابهم وفسوقِهم وغشّهم وظلْمِهم قدْ وصلت إلى درجةٍ لم يُسمع بمثلها في سابق العصور».

١١ - فيليب أوغسطس (ملك فرنسا):

كان ملكُ فرنسا (فيليب أوغسطس Philip Augustus) قد تزوّج من (إينجبورج Ingeborg) الدانماركية بعد موتِ زوجتِه الأولى سنة (١١٩٣م/ ٥٩٠هـ)، وعندما جاءت عروسُه إلى فرنسا لم تعجبْه، وادّعى أنه وقعَ تحت تأثير السّحر، وأجبر الأساقفة الفرنسيّين على إبطال زواجه منها، واتّخذ (أجنس أوف ميل Agnes of Mel) ابنة دوق شرق بافاريا زوجةً له بدلًا من زوجته الشرعية[٤].

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٨).
(٢) أمبرويز (١٩٩٨، ج٣٢/ ص٢٧٠).
(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٩٨).
(٤) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص٢٤٥).

تعرّض الملك فيليب أوغسطس ملك فرنسا لقرار الحرمان من البابوية سنة (١٢٠٤م/ ٦٠١ه)؛ بسبب تنكّره لزوجتِه. وقاوم الملك في أول الأمر، ولكنه استسلم في العام التالي، وأعاد زوجتَه الأولى.[١] وهكذا امتدّ الانحراف الجنسي إلى قادة الحملات الصليبيّة من ملوك فرنسا أيضًا.

١٢ - الإمبراطور الروماني فردريك الثاني:

من الشخصيات الصليبيّة التي وردَ عنها بعضُ أخبارٍ عن الانحراف الجنسي، الإمبراطور الروماني فردريك الثاني (١٢٢٠ - ١٢٥٠م / ٦١٧- ٦٤٨هـ). فقد قرّر فردريك الثاني الزواجَ من (يولاند دي بريان) وريثة عرشِ مدينة عكا، وأرسل فورًا أسطولًا من ستّ عشرة سفينة مزَيّنة بسخاء إلى عكا حيث تقيمُ ملكة المستقبل، وفور وصول الأسطول إلى الميناء وبمباركة من البابا، تمّ الاحتفال بزواج فردريك الثاني ويولاند دي بريان مونتفران، بتوكيلٍ في كنيسة سانت كروا (الصليب المقدس) في عكا. وفي برنديزي التي وصلتْها العروس في أكتوبر كان في انتظارها فردريك الثاني ووالدُها (جان دي بريان) جنبًا إلى جنب، واحتفلَ مرّة ثانية بالزّواج في برنديزي يوم ٩ نوفمبر (١٢٢٥م/ ٦٢٢هـ) في الكاتدرائية، ولكن في المساء اشتكى الإمبراطورُ من هذه الفتاةِ الصغيرة، وتركها وأمضَى الليلة مع ابنةِ عمّ يولاند، وكانت فتاةً في العشرين من عمرها وذاتَ جَمال باهر، فاستطاعتْ أن توقظَ فيه مشاعرَ عذْبة، أمّا يولاند فلم تكن إلّا قطعة شطرنج في السياسة، فهي علاقة لا تتخلّلها أي مشاعر حبّ، ولكن كان من الواجب عليه على الأقلّ احترامُ المظاهر؛ لذلك أحسّ «جان دي بريان» أنّ هجره لابْنته ليلةَ الزفاف إهانةٌ له أكثر منها لابْنته، إلّا أن عتابَ الأب قوبِلَ ببرودٍ من الإمبراطور فردريك الثاني الذي أشعرَه بجفاءٍ أنّ المقابلة بينهما انْتهَت[٢].

---

(١) محمود سعيد عمران (١٩٧٨، ص١٢٣).

(٢) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص١٩٦).

ولم تكنْ حالةُ الخيانة الزوجيّة ليولاند زوجة فردريك الثاني من قبْله في ليلة زفافِها هي الحالةَ الوحيدة التي تشهدُ على انْحرافه الجنسي، بل ذكرَ له بعض المؤرّخين الأوروبيّين حالات أخرى للانحراف الجنسي. من ذلك قول متَي باريس عنِ الإمبراطور فردريك الثاني:[١] «إنّ له علاقاتٍ حميمةً جنسيّة مع امرأة مسلمة»، ويقول عنه في موضع آخر:[٢] «إنه عملُ بعض العاهرات المُسلمات خليلات له»، وربّما يكون المقصود بذلكَ بعضَ الجواري المسلمات.

وذكرت بعضُ المصادر التاريخيّة الأوروبيّة صورة أخرى من صور الانحراف الجنسي للإمبراطور فردريك الثاني، هي السَّدوميّة (اللواط). يقول فيليب دي نوفار عنِ الإمبراطور فردريك الثاني:[٣] «أمّا بالنسبة لمسألةِ الجنْس فإنّه قد خالف الطبيعة، لذلك تفوّق في دعارته على نيرون، وكانت أفعالُ عهرِه تفوقُ الإحصاء، وكذلكَ أفعال الزنا لديْه، فقد كانَ سدُوميًّا في جميع الأحوال». وربما يكون تحاملُ المؤرخين الأوروبيّين على الإمبراطور فردريك الثاني نابعًا من تعاطفهم مع البابا، نظرًا لخلافِه الدّائم معه، كما أنّ الإمبراطور فردريك الثاني كان يتمثّل بمظاهر الحضارة الإسلامية في كلّ مناحي الحياة في صقلية.

١٣ - أباطرة بيزنطة، وأُسرهم:

كانت أجنحةُ الحريم في القصر البيزنطي مشهورةً بالانْحلال الخُلقي، وبما كان يُحاك فيها من مكائد الغرام الدنيئة منذ أن اعْتلى العرشَ قسطنطين مونوماخوس الرّذيل، وظلّت هذه الأجنحةُ على تلك الصورة البذيئةِ حتى اللحظة التي صار فيها إليكسوس

(١) متَي باريس (٢٠٠١، ج٤٠/ ص٥٨٤).
(٢) متَي باريس (٢٠٠١، ج٤٠/ ص١٨٩).
(٣) فيليب دي نوفار (١٩٩٨، ج٣٤/ ص١٩٨).

كومنين الأول[١] إمبراطورًا، ثمّ جاءت والدته (أنادا لاسينا) فغيّرت الأوضاع إلى ما هو أحسن، فاستعادَ الذوق الجميل مكانتَه، وعمّت الأخلاقيات الرفيعة، وأصبح القصرُ يتمتّع بتنظيم جديرٍ بالثناء عليه، فخصّصت ساعات معينة للتراتيل الدينية، حتى صار القصرُ أشبه ما يكونُ بالدّير.[٢] وعلى الرغم من هذه التّدابير الاحْترازية لمنعِ الانحرافات الجنسيّة في القصر البيزنطي، إلّا أنّ ذلك لم يحلْ دونَ حدوث العديدِ من صور الانحراف الجنسي داخل القصر البيزنطي وخارجه، ومن قِبَل شخص الأباطرة ونسائه.

تزوّج الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين الأول (١١٤٣- ١١٨٠م/ ٥٣٨-٥٧٦هـ) من ماري الأنطاكية سليلة البيت الصليبي النورماني، وعندما توفي الإمبراطور البيزنطي أصبحت ماري وصيةً على ابنها إليكسيوس كومنين، ولكن ماري- هذه- سَرعان ما أحالت البلاطَ البيزنطي بعد وفاة زوجِها إلى معارضَ للأزياء والأناقة، وانصرف رجالُ البلاط عن شئون الدّولة في سبيل الحصول على رضاءِ الإمبراطورة الوالدة، وتطوّر الأمر داخل القصر الإمبراطوري إلى سلسلةٍ من الغراميّات كانت ماري نفسها بطلتَها، فقد أساءت إلى نفسِها وإلى البيت الكومنيني بسبب غرامياتِها التي فاحتْ رائحتُها وكتبَ عنها المؤرخون الشيء الكثير، ويحدث كلّ هذا في وقتٍ كانت فيه الدولةُ في أمسِّ الحاجة إلى ما يُخالف ذلك تمامًا، فكانَ من الطبيعي أن تلعبَ المؤامرات دورَها في

(١) إلكسيوس كومنين (Alexius Comnenus): هو الابن الثالث للإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين، ولد سنة (١٠٥٧م/ ٥٥٢ه) في القسطنطينية، وظل إمبراطورًا من سنة (١٠٨١م/ ٤٧٤ه) إلى وفاته سنة (١١١٨م/ ٥١٢هـ).

See: Encyclopedia Britannica (1911 ، Alexius Comnenus).

(٢) أنَا كومنينا (٢٠٠٤، ص١٥١).

هذا الجوّ الفاسد.[١] فقد كان الإمبراطور البيزنطي مانويل قد أقامَ اثني عشر شيخًا من النّبلاء ليدبّروا أمور العسكر، لكن بعد موتِه عمّ الفساد المملكة، لأنّ أمّ الصبي- ولده إليكسيوس- ماري ارتكبتِ الزنا مع واحدٍ من الاثني عشر الذين كان قد نصّبهم الملك للإشراف على الجيش، فأراد الباقون أنْ يخلعوها ويخلعوا ابنَها، ويقيموا ابنه مانويل من زوجتِه الأولى مكانه، لكنّهم لم يوفّقوا في هذا المسعى، فتمّ اعتقالهم وقُلعت عيونُهم وقُتل أتْباعهم[٢].

فقد ألقت ماري الأنطاكية بكلّ شئون الإمبراطورية في يد (البروسيباستوس أليكسيوس) وهو ابن أخت الإمبراطور الراحل مانويل، وكان شأنُه شأنَ بقية اليونان شديدَ التسيّب، مُسلمًا زمامَه تمامَ التسليم لشهوات الجسدِ التي لا انْتهاء لها، كذلك سرتْ شائعة بأنّه كان على علاقة دنِسَة بالإمبراطورة الوصيّة على العرش ماري الأنطاكية[٣].

ولم تكنْ ماري الأنطاكية هي الزوجة الوحيدة لأحدِ الأباطرة البيزنطيّين التي كان لها علاقات غير شرعية، بل ماثلتها أيضًا (Euphrasyne Doukaina) يوفروزين دوكانيا (١١٩٥ - ١٢٠٣م/ ٥٩٢- ٦٠٠هـ) زوجة الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الثالث إنجيليوس، فقد كانت امرأةً قويّة الشكيمة. وفي سنة (١١٩٦م/ ٥٩٣هـ)، تحدّث الناس أن لها عشيقًا في السرّ، فأخرجت من القصر، ولكنْ كان لها فيه أصدقاء من ذوي النّفوذ منهم (قسطنطين ميسوبوتوميوس)- ربما كان هو عشيقَها- القوي البأس، لذلك سَرعان

(١) جوزيف نسيم يوسف (١٩٩٨، ص٢٣٩).
(٢) ميخائيل الكبير (١٩٩٥، ج٥/ ص٢٦٤).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٧٣ - ٢٧٥).

ما أُعيدت للقصر بعد ستّة أشهر من إخراجِها منه، وأخذت زمامَ الأمور في يدِها من جديد[١].

هذا، وتُعَدّ الفضائح الجنسيّة للإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس كومنين[٢] هي الأكبرَ في تاريخ الدولة البيزنطية في عصر الحروب الصليبية. فقد عُرف عن أندرونيكوس كومنين إسرافُه في المغامرات العاطفيّة التي كانت مثارَ أحاديث الناس في بيزنطة[٣].

كان أندرونيكوس قد طلّق زوجته (فيليبا Philippa) ابنة ريموند أمير أنطاكية، واقترن سرًّا وبصورةٍ مزرية بـ (تيودورا) أرملة الملك بلدوين الثالث، وكان هذا العمل من جانبه عملًا مُشينًا فاضحًا بعيدًا عن العفّة.[٤] فقد عيّن الإمبراطور مانويل كومنين، أندرونيكوس كومنين دوقًا على إقليم كليكيا سنة (١١٦٦م/ ٥٦١هـ)، فكان يقضي جُلّ وقتِه في أنطاكية، فأقام علاقةً غرامية مع أميرتها (فيليبا) شقيقة بوهيموند الثالث، فتمّ طردُه، فتوجّه إلى مملكةِ بيت المقدس الصليبيّة، فتقابلَ مع الملكة (تيودورا) أرملةِ الملك الصليبي بلدوين الثالث فطارحتْه الغرام، وعندما توجّه أندرونيكوس كومنين إلى بيروت، توجّهت الملكة تيودورا إليه، حيث عاشت معه دون أي خجل أو حياء،[٥]حيث أنجبت له طفلا[٦].

---

(١) دونالد نيكول (٢٠٠٣، ص١٦٩).

(٢) أندرونيكوس كومنين الأول (Andronicus): كان قريبًا للإمبراطور مانويل الأول، وكانت حياته سلسلة من الخيانات والسجن والنفي، تولى حكم الإمبراطورية البيزنطية في سبتمبر سنة (١١٨٣م/ ٥٧٩هـ)، وقامت ضدّه ثورة وقُبض عليه العامة وقتلوه شرّ قتلة، تمثلت فيها جميع مظاهر الوحشية في سبتمبر١١٨٥م. دونالد نيكول (٢٠٠٣، ص٨٠- ٨١).

(٣) اسمت غنيم (١٩٨٢، ص٤٢).

(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٠٠).

(٥) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٢٠).

(٦) اسمت غنيم (١٩٨٢، ص٤٣).

لم تتوقّف فضائح أندرونيكوس كومنين الجنسيّة على فترة وجوده في بلاد الشام كما ذكر آنفًا، بل توسّعت وتمدّدت بعد أن أصبح إمبراطورًا للدولة البيزنطية سنة (١١٨٥م/ ٥٨١هـ). فقد أمر أندرونيكوس كومنين بإلقاء القبض على جميع الذين كان يعرف أنهم ينكرون صحّة ولايته، واستولى أيضًا على جميع النساء الجميلات اللائي وجدهنّ، وغصبهن أنفسَهن، واقترف عددًا كبيرًا من الآثام والرّذائل لم يقترف مثلها قطّ خائنٌ أو سفاح.[١] بل وتزوّج هذا الشيخ الدنس- الإمبراطور أندرونيكوس كومنين- قسرًا من امرأة الصبي أليكسيوس ابن الإمبراطور مانويل.[٢] وكان أحدُ عليَةِ القوم يسكنُ في قصر كبير، فقتل أندرونيكوس ولده، واغتصب زوجتَه.[٣] ولم تكن هناك راهبةٌ جميلة في دير من الأديرة، ولا ابنة فارس عظيم أو وجيهٍ من الوجهاء إلّا ضاجعَها هذا الإمبراطور رغم أنْفها، ممّا جعله مكروهًا أشدّ الكراهية من الناس أجمعين، ولم يكن من أحدٍ إلّا ويتمنى هلاكه وموته[٤].

الانحرافُ الجنسي في طبقةِ رجال الدّين

امتدّ الانحرافُ الجنسي في عصر الحروب الصليبيّة إلى طبقةٍ مهمّة من طبقات صفوة المجتمع هي طبقة رجال الدّين، والتي كان من الأوْلى أن تقوم بدورها في حثّ الناس على الابتعاد عن هذه الموبقات، ولكن من المؤسف أنّ كثيرًا من أبناء هذه الطبقة قد انغمسَ في هذا الانحراف الجنسي، بكلّ المستويات بدايةً من البطاركة وحتى أصْغر رتبةٍ دينية كنسيّة آنذاك.

---

(١) روبرت دي كلاري (١٩٩٥، ج١٠/ ص٢١٨).
(٢) ميخائيل الكبير (١٩٩٥، ج٥/ ص٢٩٠).
(٣) روبرت دي كلاري (١٩٩٥، ج١٠/ ص٢٢٤).
(٤) مجهول (٢٠٠٢، ص٣٤).

كان بعضُ هؤلاء الأساقفة من المقرّبين للملك الصليبي، وقد وصلَ هؤلاء الأساقفة إلى أعلى المراتب الدينيّة باختيار الملك الصليبي، وربّما كان الأساقفة الآخرون من المتديّنين، وتعلّم البعض، وربّما البعض الآخر لم يتلقّ تعليمًا. وفي أفضل الحالات، كان هؤلاء الأساقفة من الرّجال متوسطي القدرات والمواهب، ومِن الرّجال متواضعي القدرات. وكانوا نمطًا من رجال الدّين المستوطنين، فالرجال الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة ارتقوا إلى مراكز عالية ومكانة مرموقة بفضل ظروفهم الاجتماعية الخاصة، وشهرة مزاراتهم المقدسة، هذا الوضع وتلك المكانة التي لم يكنْ باستطاعتهم الوصول إليها من خلال كفاءتهم[١].

انضمّ عددٌ من الرهبان إلى الحملة الصليبيّة الأولى دون الحصول على إذن من رؤسائهم، وكان أحدهم من دير كلوني (Cluny) وقد شارك في الحملة ليس بدافع الورع، وإنما من منطلق الطيش، فقد ضبطوه مع امرأة، وضربوه بالسياط علنًا أمام الجميع[٢].

لقد لازم الانحرافَ الأخلاقي بعضُ رجال الدّين منذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أقدامهم في بلاد الشام، من ذلك أن (Adelbero of Luxembourg) أدلبرو اللوكسمبورجي- قريب الإمبراطور هنري الثالث، كان شابًّا أرستقراطيًّا، وشغل منصب رئيس شمامسة (متز Metz)، وأثناء حصار الصليبيّين لمدينة أنطاكية في الحملة الصليبيّة الأولى، كان يلعب النّرد مع امرأة جميلة مرموقةٍ جدًّا في إحدى الحدائق القريبة من أبواب المدينة بين الشجيرات النامية بالقرب من أنطاكية، فتسلّل الأتراك خفية من الباب، وهاجموه ونصبوا له كمينًا، وقتلوهما[٣].

(١) يوشع براور (٢٠٠١، ص٢٢٨).

(٢) جوناثان سميث (١٩٩٩، ص١٥٢).

(٣) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص٦٢). جوناثان سميث (١٩٩٩، ص١٥٢).

وعندما أعلن (بطرس بارثليميو) حلم الحربة المقدسة التي أثرت كثيرًا في فكّ الحصار عن مدينة أنطاكية المحاصَرة من قبل المسلمين، كانت حجة المندوب البابوي (أدهيمار دي مونتيل) في إنكار حلم الحربة المقدسة الذي ادّعاه (بطرس بارثليميو) أنه رجلٌ لم يؤثر عنه شيء من التقوى، بل كان أقربَ ما يكون إلى الميل للأخذِ بشهوات الدنيا، والإقبال على متاعها دون رعاية لنواهي الدّين والعُرف والأخلاق،[١] فكان أدهيمار دي مونتيل يعلم بأن بطرس بارثليميو سيئ السمعة، ولا يمكن الاعتمادُ عليه.[٢]

يقول وليم الصوري عن أحوال رجال الدّين المسيحي في الشرق اللاتيني بعد وفاة المندوب البابوي أدهيمار دي مونتيل:[٣] «لقد هوى الدّين القيم وكلّ معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدّين، فاستشرى الفساد في كلّ ناحية، وسارَ في مسيرات مُحرّمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي الطاهر الذّيل والسيرة أديمار أسقف بُوي».

فقد كان (ديمبرات) رئيس أساقفة (بيزا) يقف إلى جانب البابا أوربان الثاني في مشروعه الصليبي الكبير لاسترداد الأراضي المقدسة في الشرق، الأمرُ الذي جعل البابا أوربان الثاني يُعيّنه مندوبًا بابويًا في الأراضي المقدسة بدلًا من أدهيمار دي مونتيل الذي توفّي في مدينة أنطاكية، وذلك على الرغم ممّا أحاط بديمبرات من شائعات عن عدم استقامتِه وانحراف سلوكه.[٤]

ومن رجال الدّين الذين أفاضَ وليم الصوري في الحديث عن انحرافهم الجنسي (أرنولف)، الذي كان من رجال الدين، إلّا أنّه مذموم السيرة مغموزُها، ثمّ إنه فوق

(١) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٤٠).

(2) Setton (1969 ، vol.1 ، P.321).

(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).

(٤) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج١/ ص٢٧٣ - ٢٧٤).

ذلك ابنُ أحدِ القساوسة، وكانت الألسن تلوكُ طول الرحلة سيرتَه بالسّوء وتتغامزُ عليه، كما أنّ سفلة المُهرّجين كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسيّة[١]، بل كان وليم الصوري يطلق عليه لقب (الفاجر أرنولف)[٢].

إنّ (أرنولف) هذا لم يتورّع حتى وهو في كرسي البطركية- بطركية بيت المقدّس- عن ممارسة حياة الدّنس، حتى صار عارُه أمرًا معروفًا للجميع غير خافٍ على أحد، ولم يحاول هو كتمانَ هذه الحقيقة.[٣] وقد وصلت انحرافات (أرنولف) الجنسيّة إلى مسامع البابا في روما، فوفدَ الأسقف (ورنج المبجل) نائبًا عن البابا لتقصي الحقائق فيما بلغه من مسلك البطرك أرنولف الرذيل، وما تلوكه الألسنة عن حياته الخليعة التي يحيى فيها. وتمّ خلعُ أرنولف من وظيفته الكَهَنوتية، ولكنّه مضى إلى كنيسة روما واستطاع بكلماتِه الناعمة وإسرافه في تقديم الهدايا أنْ يتغلّب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود إلى مستقرّه ورُدّ إلى كرسي البطركية في بيت المقدس، فرجع إلى حياةِ التبذّل التي كانت سببًا في خلعه.[٤] وفي ١٨ إبريل سنة (١١١٨م/ ٥١٢هـ)، توفّي أرنولف بطرك بيت المقدس، وكان رجلًا يُكثر من اختلاقِ المتاعب، ولا يكترث بمراعاة مهامّ وظيفته المقدسة.[٥]

غير أنّ أهمّ الانحرافات الجنسيّة في طبقة رجال الدّين كانت خاصّة بالبطرك (Heracles) هرقل (١١٨٠- ١١٩١م/ ٥٧٩- ٥٨٧هـ) ففي سنة ١١٨٠م، مات بطرك بيت المقدس (أموري) فحلّ محلّه هرقل أسقف مدينة قيسارية، وهو رجلٌ أُميّ

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).
(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٤١).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٩٤).
(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٣١٦).
(٥) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٣٤٤).

تقريبًا، غير أنّه جميلُ المنظر إلى حدٍّ مُلفت، ولم تكن سمعتُه طيبة، ويرجع اختيارُه إلى حدّ كبير إلى نفوذ أمّ الملك.(١)

كان (هرقل) منذ بدايته رجلًا عديمَ الحياء، وليس له من العلم إلّا النذرُ اليسير، وكان رجلًا ضخم الجُثّة، كما كان في الوقت ذاته مُنحلّ الأخلاق أشدّ الانْحلال، منكبًّا على ملذّاته، عبدًا لشهواته. وكانت (أجنس) أُمّ الملك الأبرص شديدةَ الولع به والعشقِ له، فدفعَها ميلُها المفرط إليه أن تجعلَه رئيس شمامسة بيت المقدس، ثمّ رئيس أساقفة قيصرية، ثمّ انتهى بها الأمرُ أخيرًا أن جعلتْه البطرك، فلمّا صار هو البطرك اتّخذ خليلةً له امرأةً اسمها (باسك دي ريفري Pasque de Riveri)، وكانت هذه المرأة زوجةَ تاجر أقمشة وثيابٍ في نابلس التي كانت تبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلًا، لكنه اعتادَ أن يأتي بها إلى القدس فتقيمَ معه خمسة عشر يومًا، وقد تزيدُ هذه الفترة من الزمان، وكان هو يغدقُ عليها وعلى زوجها المالَ الكثير حتى صارتْ هي وبعلُها من الأثرياء والأغنياء، ومن أجلِ هذا اعتادَ زوجُها أن يغمض عينيه ويتغافلَ عنها فيفعلُ البطرك معها ما شاء. ثمّ مات زوجُها تاجر الأقمشة فحملَ البطرك أرملتَه وجعلها تعيشُ معه على الدّوام في داره ولا تغادره، ثمّ اشترى لها دارًا وأغدقَ عليها المجوهرات الثمينة والأحجار الغالية، حتى صارت أغنى امرأةٍ شهدَتْها القدس، وما مِن غريبٍ رآها إلّا ظنّها (كونتيسة) أو حسبَها (بارونة) لكثرة ما تتحلّى به من الأحجار الكريمة وما ترتديه من الثياب الغالية الموشّاة بالذهب، وما تتحلّى به من غالي الأحجار. أمّا الخَلْق الذين يعرفونها فإنّهم كانوا يقولون إنْ مرّت بهم: "انظروا ها هي البطريكة" (٢).

(١) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص١٥٩).

(٢) مجهول (٢٠٠٢، ص٨١).

حدث في إحدى المرّات أن كان الملك وبارونات المملكة في جلسةٍ داخل قصر البطرك يتناقشون في بعضِ الأمور الهامّة، ويستعرضون في هذه الجلسة احتياجاتِ البلد ويتدبّرونها. فجاء خادمٌ إلى القصر حيث كان هؤلاء السادة الكبار مجتمعين، وصاحَ بالبطرك: «سيدي البطرك، لقد جئتك بنبأ طيّب سارّ! فإن كافأتني مكافأة طيبة سخيّة أفضيت به إليك» ظنّ البطرك والملك وبقيةُ المجتمعين أنه سوف يذكرُ خبرًا فيه نصرٌ للمسيحيّة، فقد جرت عادةُ هذا الخادم أنه إذا جاءت إلى القدس أخبارٌ طيبة أسرع إلى البطرك فقصّها عليه، ومن ثمّ قال له البطرك: «هات ما عندك أيّها التعيس! هات ما عندك على أن يكون سارًّا». فقال له الخادم: «لقد وضعتِ السيدة باسك دي ريفري الساعة ابنةً لك»، فردّ عليه البطرك قائلًا: «اخرسْ أيها الأحمق ولا تزدْ»، ولمّا كان رئيس أساقفة مدينة صور (وليم الصوري المؤرخ المشهور) يعرفُ عن حياة البطرك (هرقل) هذه الأمور وكثيرًا مثلَها، فإنّه الْتمسَ من كبار القوامين على القبر المقدّس ما ذُكر آنفًا، لكنهم أصمّوا آذانهم وكأنّ بها وقرًا، ورفضوا أن يفعلوا ما الْتمسَه منهم وليم الصوري، بل فعلوا عكسَ ما طالبهم به[1].

هذا، وقد استملحَ عددٌ من الرهبان والرّاهبات هذه الانحرافات الجنسيّة، فغادروا صوامعهم ونزلوا إلى بيوت الدّعارة حتى ينهلوا من معينها الآثم، ومن ثرواتها المدنّسة،[2] ليس هذا فقط بل كانت الانحرافات الجنسيّة تمارَس داخل الأديرة ذاتِها، يقول المؤرخ بيير دوبوا عن ذلك الأمر:[3] «غالبًا ما يمارس الرهبان في هذه الأديرة حياةً كلها رفاهية ومُجون

(١) مجهول (٢٠٠٢، ص٨٢- ٨٣).
(٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢٢).
(٣) بيير دوبوا (١٩٩٩، ج٣٦/ ص١١٨).

واحتساء للخمور، مع حياة أخرى من حياة الفجور». وفي سنة (١١٠٢م/ ٤٩٦هـ)، عقد (أنسلم) رئيس أسلقفة كانتربري مَجمعًا في لندن في كنيسة القديس بولس، وجرى في هذا المَجمع الحرمان كنسيًّا للكهنة الذين لديهم خليلات، ما لم ينفصلوا عنهنّ على الفور[١].

وممّا يؤكد على انتشار الفساد الأخلاقي بين رجال الدّين في الأديرة، أنّ (وليم) راعي دير (وستمنيستر) اتّهم من قبل رهبانه بتبديد النّفقات، وبعدم القدرة على كبح نفسه جنسيًّا[٢].

في سنة (١١٢٥م/ ٥١٩هـ)، جاء إلى إنجلترا (جون أوف كريما Crema) كاردينال الحضرة البابوية- نائبًا عن البابا- بترخيصٍ من الملك، وزار الأسقفيات والأديرة، وعقد مَجمعًا مَهيبًا في لندن تحدّث فيه بحدّة ضدّ اتخاذ الخليلات، ولكن حدث في تلك الليلة بالذات، أنْ فوجئ برفقةِ عاهرة كان يجامعُها، وكانت الحقيقة واضحةً بحيث لا يمكن إنكارها، وهكذا تحوّلت مكانتُه السامية إلى خزي عظيم،[٣] وهذا خيرُ مثال على الانحراف الجنسي عند كبار رجال الدّين في هذا العصر.

وإذا كانت الجماعاتُ الدينية العسكرية مثل فرسان المعبد، وجماعة التيوتون، والإسبتاريين، قد كانت أكثرَ التزامًا بالدّين، وقامت بدورٍ كبير في مدّ أمدِ الوجود الصليبي في بلاد الشام، إلّا أنها لم تخلُ أيضًا من الانحرافات الجنسيّة على الرغم من قوانينها الصارمة حيالَ ذلك.

---

(١) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٠٧).
(٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٦٢١).
(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٣٥).

إنّ وجود قوانين تعاقب حالات الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبيّة الإسبتارية (Hospitallers)،[1] يؤكد بما لا يدع مجالًا للشكّ على أن الفساد تطرّق إلى تلك المؤسسات التي صورتها المصادر التاريخية الصليبيّة الباكرة على أنها عناصرُ من الأتقياء والأطهار وجندِ المسيح (Militia Christi).[2] فبعد تدفّق الثروات في يد الداوية- مثلا- اتّهم عامة الناس في أوروبا الداوية بسوء الأخلاق، فوجّهت عدةُ اتهامات ضد الهيئة منها تهمةُ تعاطي الخمور، حتى أصبحت كلمة (الداوي) تطلق على الشخص الذي يتعاطى الخمور بكثرة (Boire comme un templar)، كما أصبحت كلمة (Temple House) صفةً لكلّ بيت سيئ السمعة.[3] كما أنّ اللّواط- على سبيل المثال- لم يُسجّل سوى مرة واحدة في تاريخ جماعة فرسان الهيكل- الداوية- الذي امتدّ لمائتي سنة[4].

هذا، ويمكن القول بأنّ الانحراف الجنسي عصر الحروب الصليبيّة قد امتدّ إلى سمعة البابا ذاتِه، فقد عقد الإمبراطور هنري الرابع[5] مجمعًا دينيًّا أيّده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة البابا جريجوري الرابع، وأرسلوا إليه رسالة حادّة الكلمات تقول: «قرّرنا- بالإجماع- أنه لن يكون بمقدورك أن تتولّى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن، وبأنّك راهب مُزيّف تُعاشر امرأةً في الحرام، وأن الكنيسة كلّها تحكمها هذه المرأة»[6].

(1) See: Woodhouse، F. C. (1879 ، P.23). Edgar Erskine Hume (1940 ، p.3).

(٢) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٦).

(٣) نبيلة إبراهيم مقامي (١٩٩٤، ص١٩٨).

(٤) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص١٤٤).

(٥) هنري الرابع (Henry IV): ولد الإمبراطور هنري الرابع في ١١ نوفمبر سنة (١٠٥٠م/ ٤٤٢ه)، وتولى عرش ألمانيا سنة (١٠٥٤م/ ٤٤٦ه)، وتوفي في أغسطس سنة (١١٠٦م/ ٥٠٠ه).

See: Encyclopedia Britannica (1991 ، Henry IV).

(٦) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٨١).

ربّما كانت هناك بعضُ الشواهد التاريخية قبل عصر الحركة الصليبيّة التي تؤكّد ذلك. فقد كان يوحنا الثاني عشر (٩٦٤- ٩٩٥م/ ٣٥٣-٣٨٥هـ) ذلك الولد الفاسد في الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوي، وقد مات بسبب إفراطه الجنسي أثناء نومه مع إحدى عشيقاته، وهذا مثالٌ واضحٌ على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامّةً في ذلك العصر.[١] وخلال الفترة (١٣٠٩ – ١٤٣٩م)، التي تمثّل نهاية الحركة الصليبيّة ونهاية العصور الوسطي، تدهور المستوى الأخلاقي بين رجال الكهنوت، فقد كان الالتزام بالعفّة وعدم الزواج، لا يتّفق لا مع الغرائز الطبيعية للإنسان ولا مع التعاليم الكتابية التي تشجّع على الزواج، فانغمسَ العديدُ من رجال الكهنوت في علاقاتٍ غراميّة مع نساء من كنائسهم، بل واتّخذوا لأنفسهم عشيقاتٍ ثابتات، بل إنّ بعضهم انشغل عن واجباته الرعويّة بانشغاله بالعناية بالأطفال غير الشرعيّين الذين ولدوا نتيجة لهذه العلاقات، وكانوا يمثّلون مشكلة حقيقية في ذلك الوقت[٢].

الانحرافُ الجنسي في طبقة التّجار

من الصفات المميزة للتصنيف الطبقي للمجتمع الصليبي في المملكة اللاتينية، وجود طبقة أبناء الكوميونات،[٣] وكانت هذه الكوميونات تشمل الإيطاليّين والبروفانساليّين، والأسبان. وعلى الرغم من اعتناق أبناءِ هذه الكوميونات المذهبَ الكاثوليكي الأوروبي، وهو نفس مذهب الحكام الصليبيّين؛ فإنّ أبناء هذه الكوميونات لم يعتبروا نبلاءَ أو برجوازيّين، بل كانوا يشكّلون طبقة مستقلّة تتمتّع بوضع وامتيازات مختلفة عن كلّ

(١) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٧٨).

(٢) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص٢٨٣).

(٣) الكوميونات (القوميونات): هم طبقة ممثلي المدن الإيطالية والبروفانسية والأسبان، وقد شكّلوا طبقة متميزة لها استقلال ذاتي في كافة شئونهم المالية والقضائية. يوشع براور (١٩٨١، ص١١٩).

من النّبلاء والبرجوازية. وحصل الإيطاليون على هذه الامتيازات بسببِ مشاركتِهم في الغزو الصليبي لبلاد الشام، وبدون هذه المساعدات لم يكنْ باستطاعة الصليبيّين احتلال المدن الساحلية، ولاستغرقتْ عملية هذا الاحتلال وقتًا طويلًا، وربما لم ينجح الصليبيّون في تحقيق هذا الهدف بدون المساعدة الإيطالية(١).

وكما انحرفتْ طبقات المجتمع العُليا- رجال الدّين والجنود والفرسان جنسيًّا في عصر الحروب الصليبية- كان أيضًا لطبقة الكوميونات التّجارية هذه انْحرافها الجنسي، وربّما ساعدهم على ذلك ما ذُكر آنفًا من الاستقلالِ المالي والقضائي الذي تمتّعت به هذه الطبقة دونَ غيرها من طبقات المجتمع الصّليبي.

كانَ لهذه الطبقة كنائسُهم الخاصة بهم في المناطق الصليبيّة التي اسْتقروا بها، وبشكلٍ رسمي أو غير رسمي حصل الإيطاليون على امتيازٍ ديني آخر، هو الإعفاء من سلطةِ رجال الدّين المحليّين، فكان يتمّ الاحتفال بالزواجِ السّري، وإتمام حالات الزواج غير الشرعيّة في رحاب الكنائس الإيطالية في المملكة الصليبية، وفي الغالب كانت هذه الاحتفالات يحرّمها رجالُ الدّين والقانون الكنسي(٢).

إنّ ظروف المملكة الصليبيّة التي انحصرت في شريط ساحلي ضيقٍ قليل الموارد، جعلت جميعَ مدنِها الكبرى عبارة عن موانئ، وجُلّ سكانها من البحارة- التّجار- والبّحار أو التّاجر نادرًا ما يلتزمُ بالخُلق القويم، ومن ثمّ صار لكلّ واحدٍ منْهم عشيقة وخليلة في كلّ ميناء ينزلُ فيها، ومن ثمّ صارت المدن الصليبيّة- خاصةً عكا- وكأنّها ماخورٌ كبير(٣).

هذا، ولم يقتصر الانحرافُ الجنسي لطبقة التّجار على تواجدهم في بلاد الشام، بل مارسوا هذا الانحراف في بلادٍ أخرى من بلاد الشرق. يقول ماركو بولو عن سكّان

(١) يوشع براور (٢٠٠١، ص١١٠ – ١١١).
(٢) يوشع براور (٢٠٠١، ص٢٢٩).
(٣) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٦).

مدينة تاي دو[١] المغوليّة:[٢] «وتوجد داخل المدينة كثيرٌ من الفنادق أو المسافر خانات (Caravanserais) التي ينزل فيها التّجار الوافدون من مختلف الأرجاء، ويُخصّص لكلّ صنف من أصناف الناس بناءٌ مُنْفصل، أو كما تقول واحدٌ للمبارديّين وآخر للجرمان وثالث للفرنسيّين. ويبلغ عددُ العاهرات اللائي يتجرنَ بأعراضهنّ مقابل المال، مع احتساب ما يقمنَ في المدينة الجديدة، فضلًا عمّن هنّ بضواحي المدينة القديمة، خمسة وعشرين ألفَ بغيّ. وقد جعل على كلّ مائة وكلّ ألف من هؤلاء البغايا ضبّاطٌ مشرفون يأتَمرون بأوامر قائدٍ عامّ، ولكي يعامل الخانُ الأعظم أفرادَ السفراء يزوّد كلّ فردٍ كلّ ليلة بإحدى هؤلاء العاهرات التي يجري تغييرها بالمثل كلّ ليلة، وهي خدمةٌ لا يتقاضينَ عليها أي أجر، لأنّها تُعَدّ شبه إتاوةٍ، عليهنّ أداؤها للعاهل».

ويؤكّد ماركو بولو على ارتياد التّجار الأوروبيّين لبيوت الدّعارة الصيليبيّة في بلادِ المغول في موضع آخر بقوله:[٣] «في شوارع أخرى توجد مساكن البغايا اللاتي هنّ هنا في أعدادٍ غفيرة، لاً أجدُ في نفسي الجرأةَ على ذكرها، وهنّ لا تتواجدْنَ فحسب في الميادين، بل في كلّ أجزاء المدينة، وقد برعتْ هؤلاء النسوة في فنون الحياةِ ومَعْسول الكلام، وفنونِ الموسيّة الكاذبة. وكلّ أجنبي ذاق مرةً واحدة سحرَهنّ تلهّفَ شوقًا إلى الزمان الذي يتهيأ لهم فيه العودة إلى زيارة الفردوس». ويمكن القول بأنّه من خلال وصف ماركو بولو الدقيق لهؤلاء الدّاعرات وتشبيهه لبيوتهنّ بالفردوس؛ أنّه ربما كان من التّجار الأوروبيّين المتردّدين على مثل هذه المواخير سيئةِ السّمعة.

---

(١) تاي دو: بمعني (البلاط العظيم)، وكانت هذه هي التسمية الصينية للمدينة المغولية الجديدة، وتسمّى عند الغربيّين (خان باليغ). نيقولا ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص٢١٧/ حاشية رقم٣).

(٢) نيقولا ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص٣٤ – ٣٥).

(٣) نيقولا ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص١٧٢).

الفصلُ الثالث
الانحرافُ الجنسي في الطبقةِ العامّة

«ما مِن أحدٍ يُمكنه أن ينكرَ فسادَ جيشنا، بعد أنْ أعطانا الربّ دمياط،.. فقد باتَ الناسُ كُسالى، مُخنّثين، تدنّسوا بأعمال المهاجعِ والسُّكر والفِسق والزّنا»

أولفر أوف بادربورن

الفصلُ الثالث
الانحرافُ الجنسي في الطبقةِ العامّة

يلقي هذا الفصلُ الضوءَ على العلاقات الآثمة، والاغتصاب، وإدمان بيوت الدّعارة في طبقة الفرسان والجنود، أضفْ إلى ذلك الشواهدَ التاريخية الدّالة على انحراف طبقة العلماء والطلاب، وطبقة العامّة حيث كان الشرق اللاتيني مرتعًا خصبًا للفسق والشّرور.

الانحرافُ الجنسي في طبقةِ الفرسان والجنود

من طبقات المجتمع الصليبي العامة التي نالها الانحرافُ الجنسي في عصر الحروب الصليبية، طبقةُ الفرسان والجنود سواء في سيْر أحداث الحملات الصليبيّة أو الجنود الذين استقرّوا في الشرق العربي الإسلامي. وإذا كان الانحراف الجنسي في الطبقة العليا قد غلبَ عليه الخيانة الزوجية وزنا المحارم واللّواط؛ فإنّ صور الانحراف الجنسي في الطبقة العامة عمومًا قد تمثّل فيها كلّ صور الانحراف الجنسي من خيانةٍ زوجيّة وزنا محارم، واغتصاب، ولواط، ودعارة، وتعدّد زوجات بالمخالفة لتعاليم المسيحية وغيرها من الصور.

أمّا بالنسبة للانحراف الجنسي في طبقة الفرسان والجنود، فقلّما نجدُ في كتب التاريخ المعاصرة للأحداث من الفرسان أو الجنود مَنْ لم تكنْ له علاقة مُحرّمة بالنساء، ونظرًا لانتشار هذا الأمر بين الجنود كان بعضهم يعمل كلّ ما في وسعه ليبعدَ عن نفسه الشكّ

والريبة. يقول جوانفيل عن ذلك في أحداث الحملة الصليبيّة السابعة على مصر:[1] «كان فراشي موضوعًا في فسطاطي- خيمتي- بصورة يستحيلُ على أحدٍ ما أن يدخل دون أنْ يراني، وقد تعمّدت وضعَه على هذه الصورة حتى لا تتسرّب الظنون الآثمةُ إلى أحدٍ، فيحسب أنّ عندي امرأة».

هذا، وقد تمثّلت أغلب الانحرافات الجنسيّة لطبقة الفرسان والجنود في عصر الحروب الصليبيّة في الصور الآتية:

١- العلاقات الآثمة:

كان الفرسان الذين يقومون بخدمةِ بعض النساء أو البنات في الأسرة الكبيرة يُسلّون أنفسهم بهؤلاء أو بخادماتِهن.[2] فنادرًا ما كان السلوكُ في البلاط الحاكم يتأثّر بالدين، فكانَ من المفروض أن يوجد بين زوجة السيد الإقطاعي التي يصعبُ الوصول إليها وبين التابع- الفارس- الشابّ نوعٌ من الشّوق بين السيدات النبيلات والشباب، ومن المؤكّد أن الكنيسة لم تكنْ تتعاطف مع هذا الأسلوب في الحياة، ويبدو أنّها لم تكنْ تستطيعُ التدخّل بأكثرَ من الدعوة إلى العفّة والتهديدِ بالحرمان[3].

من الشواهد التاريخية على علاقات الزنا الآثمة للفرسان والجنود في عصر الحروب الصليبيّة، أنّ السير (جيوفري) الجندي الشهير أمير (كارينانيا) وقعَ في حبّ زوجة أحدِ فرسانه وأحضرَها من المورة، وجاء إلي (أبوليا) لأجل أن تكون عشيقةً له وليتمتّع بها.[4]

---

(١) جان دي جوانفيل (١٩٦٨، ص٢٢٣).

(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦).

(٣) يوشع براور (١٩٨١، ص١٧٨- ١٧٩).

(٤) مجهول (١٩٩٥، ج١٠/ ص٥٠٧- ٥٠٨).

ومن الشواهد أيضًا، أنه كان هناك فارسٌ من طائفة الفروسية المعروفة باسم (نورفولك Norfolk) يدعَى (فودفري دي ميللر Millers) دخل مساكن (جون البريتاني) الذي كان فارسًا من أجل الاضْطجاع مع ابنته، لكنّه اعتقل من قِبَل بعض الأشخاص المتخفيّين بالتوافق مع العاهرة نفسِها، وقد رموه بعنفٍ إلى الأرض وأوسعوه ضربًا بشدّة وجرحوه، وألقي به خارج البيت نصفَ ميّت[1].

٢- الاغتصاب:

كان الاغتصابُ معروفًا في العصور الوسطى، رغم العقوبة الشديدة التي تحلّ بمرتكبِها.[2] وإذا كان الانحراف الجنسي عن طريق علاقات الزنا الآثمة للجنود والفرسان ببعض النساء؛ كان قليلًا في المصادر التاريخية؛ فإنّ حالات الاغتصاب التي قام بها الجنودُ كانت كثيرة ومتعدّدة، وقد ارتكبتْ هذه الجريمة في حقّ نساء المغلوب من الطرف الآخر.

عندما تفجّرت الخلافات بين ملك فرنسا وريتشارد (كونت بواتو) حيث انتزع أحدُهم قلاعًا من الآخر، اقترفَ تجاوزات كثيرة بالقتلِ والاغتصاب.[3] ولمّا قامت الحربُ بين الملك (ستيفن) ملك إنجلترا وبين ورثة الملك (هنري الأول) الملك السابق لإنجلترا؛ دخل الملكُ (ستيفن) مدينة (بدفورد Bedford) الإنجليزية، وجعل أتباعَه يتعاملونَ بشكلٍ وحشيّ، فقد اغتصبوا بشكلٍ مكْشوف النساءَ الحُبالى.[4] وعندما وصلتْ جموعُ

(١) مَتى باريس (٢٠٠١، ج٤٠/ ص١٠٢١).
(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦).
(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ ص٣٢٩).
(٤) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٦٧).

أتباع يعقوب (أستاذ هنغاريا) إلى مدينة (بورغ) في فرنسا، وعظَ يعقوب أتباعَه ضدّ اليهود، وأرسلَ رجاله لتدميرِ المدينة، وأخذوا الذهبَ والفضّة أينما وجدوهما، واغْتصبوا كلّ امرأةٍ أمكنهم أن يضعوا أيديَهم عليها[1].

فقد كانَ اغتصاب نساءِ المهزوم من العاداتِ الرذيلة في تاريخ العصور الوسطي عامّة. من ذلك ، أنّ التتار عندما اجْتاحوا شرق أوروبا احتفظوا بالنساء اللاتي كنّ جميلاتٍ أحياءً، ليخنقن وليقهرن من قِبَل عددٍ من مغتصبيهنّ، فقد جرى اغتصابُ العذارى حتى مُتنَ من الإنْهاك.[2] فلم ينسَ المقاتل المغولي في ظلّ الأهوال والمجازر التي يرتكبُها والمناظر البشعة التي كان يراها؛ أنْ يُشبع غريزتَه، فقامَ بارتكابِ جريمةٍ أخرى في حقّ سكان البلدان المنكوبة الأوروبية والعربية الإسلامية، وهي جريمةُ الاغتصاب التي أكّد بها على وحشيّته وقسوته. يقول ابن الأثير في تصويرِ ذلك:[3] «كانوا يفْجرون بالمرأة ثمّ يقْتلونها»، ويقولُ في موضعٍ آخر:[4] «ارْتكبوا مِن النّساء العظيم، والنّاس ينظرونَ ويبْكون ولا يستطيعون أنْ يدفَعوا عن أنفسهم شيئًا ممّا نزل بهم، فمِنهم مَنْ لم يرضَ بذلك ، واختار الموتَ على ذلك، فقاتلَ حتى قُتل، ومَنْ استسلم أُخذ أسيرًا».

هذا، وتُعَدّ جرائم الاغتصاب التي ارتكبها الصليبيّون في حقّ إخوانهم المسيحيّين في مدينة القسطنطينيّة في الحملة الصليبيّة الرابعة من أكبرِ الشّواهد التاريخيّة على انحرافِ الجنود الجنسي في عصرِ الحروب الصليبيّة، فقد أحرقَ الغزاة البيوت، كما دام جنونُ

(١) سهيل زكار (١٩٩٥، ج٤/ ص١٢٤).
(٢) مَتى باريس (٢٠٠١، ج٤٠/ ص٥٩٠).
(٣) ابن الأثير (١٩٧٩، ج١٢/ ص٣٨٣).
(٤) ابن الأثير (١٩٧٩، ج١٢/ ص٣٦٧).

المقاتلين العاصف، واغتصاب النساء، وحفلات السّكر والعربدة ثلاثةَ أيام.[1] وعلى الرغم من أنّ المؤرخ فلهاردون لم يتحدّث عن هذه الاغتصابات في كتابه، إلّا أنّه ذكر ما يفيد بأنّ الكنائس البيزنطية قد نُهبت، يقولُ عن ذلك:[2] «بعد أنْ جُمع من الكنائس ما جُمع، قُسّم شطرين متساويَيْن، ذهبَ أحدهما للفرنجة، والآخر للبنادقة، وفقًا للعهد الذي أقسموا عليه، هكذا قُسّمت أسلابُ القسطنطينيّة بين المنتصرين».

ولا عجبَ في عدم تحدّث المؤرخ فلهاردون المعاصر للأحداثِ عن هذه الاغتصابات، فقد كان هو أحدَ المهاجمين للقسطنطينيّة، بل من المخطّطين لذلك. فقد جاءت أنباءٌ تتحدّث عن حرق، وتعذيبٍ واغتصاب، واندفعَ الصليبيّون إلى الأديرة كي يعبثوا بالرّاهبات[3].

وممّا يؤكّد على ارتكاب الجنود الصليبيّين لجريمة الاغتصاب حتى في حقّ الراهبات البيزنطيات، أنه عندما وصلت البابا (أنوسنت الثالث) أنباءُ الفظائع التي ارْتكبها الصليبيّون ضدّ البيزنطيّين، أرسل رسالة إلى المركيز (يونيفيس أوف مونتفرات) يؤنّبهم على فعلتهم هذه؛ فكان ممّا قال: «لقد استوليتم على القسطنطينية بدلًا من أورشليم، وفضّلتم كنوز الدنيا على كنوز الآخرة، لقد أصبحتم أمامَ العالم كلّه أهلًا للبغاء والزنا والفسق، لقد أشبعتُم غرائزكم الآثمة، ليس فقط بالزواج من النساء أو الأرامل، ولكنْ باغتصاب الزّوجات والعذارى اللاتي وهبْنَ أنفسهن للمسيح»[4].

---

(١) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص٢٧٣).
(٢) جودفري فلهاردون (١٤٠٣هـ، ص١٢٩- ١٣٠).
(٣) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص٢٢٣).
(٤) اسمت غنيم (١٩٨٢، ص١٢٢- ١١٣).

٣- إدمان بيوت الدّعارة:

كان الفرسان الصغار المعدَمين المفْلسين في دوقة أكوتين في فرنسا، ليس لهم مهنةٌ سوى إثارة المَتاعب واللّهو والعربدة، والبحث عن امرأة إمّا على أساس دائم أو مؤقت،[١] وبما أنّ فرنسا هي الراعي الرئيس للحركة الصليبيّة في كلّ حملاتِها على الشرق، فكان من الطبيعي أن ينتقلَ هذا الانحراف الجنسي معهم إلى الشرق، مِن إدمانٍ للخمور، وعربدة، وإدمان لبيوت الدّعارة التي انتشرت بالتّزامن مع تأسّس الكيانات الصليبيّة في الشرق.

ومن الشواهد التاريخيّة الهامّة على انخراط الجنود الصليبيّين في الدّعارة وإدمان التردّد على بيوتها، أنّه عندما حاصر (كونت الفلاندر) حصنَ حارم،- بعد نهاية أحداث الحملة الصليبيّة الأولى؛ صار هذا الحصارُ بلا جدوى، لأخْذهم أنفسهم بالتبذّل وانْكبابهم على ألعابِ الحظّ وغيرها من أمور الفساد. فقد كانوا مُنصرفين إليها أكثرَ من انصرافهم إلى العناية بأمرِ الحرب وقواعدِ عمليّات الحِصار المفروضة عليهم، فكانوا يقضونَ أوقاتهم في الذهاب والإياب إلى مدينة أنطاكية حيث يقضونَ أوقاتَهم في غشيان الحمّامات والتردّد على الولائم، والانغماسِ في مفاسد الشّراب وغيرها من الملذّات الجسدية، وأهملوا القيامَ بمتطلبات الحِصار، مُسْتعيضينَ عن ذلك بملذّات العبث، بل إنّ الذين كانوا يظهرونَ الجدّ في الحصار ما لبثوا أنْ تراخَوا كسلًا وإهمالًا، إذْ كانوا هُم أيضًا يحيون حياةً دنِسَة[٢].

في الحملةِ الصليبيّة الثانية ذكرَ صاحبُ تواريخ أسرة بلانتغنت بأنّ جيوش إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا (لويس السابع) مُحقت؛ لأنّ الربّ ازدراهم وتضاعفتْ دعارتُهم وفجورهم حتى عليّين، ولأنّهم تخلّوا عن أنفسهم بشكلٍ مكشوفٍ لصالح الزنا والاتصالات الجنسيّة البغيضة إلى الربّ، وإلى اللّصوصية وكلَّ أنواع الآثام[٣].

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١١٨).

(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٢٤).

(٣) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٨٢).

وفي الحملة الصليبيّة الثالثة، عندما علم رئيس أساقفة كانتربري بما آلَ إليه وضعُ الجيش من ضياع النّظام بين رجاله وانتشار الفوضى في صفوفهم وانصرافِهم إلى ارتيادِ الحانات لقضاء أوقاتهم فيها، ومجالسة العاهرات والانْكباب على لعبِ الميْسر، فضاقتْ نفسُه ذرعًا بما جرى وانْهارت معنوياتُه انْهيارًا أدى إلى تغلّب السأم عليه من هذه الحياة(١).

وتُعَدّ الحملةُ الصليبيّة الثالثة من أكثرِ الحملات الصليبيّة التي وردتْ عنها أخبارٌ تاريخية عن انغماسِ جنودِها وفرسانها في بيوتِ الدّعارة حتى أذْقانهم. فقد كان عددُ جيش ريتشارد قلبِ الأسد في عكا نحو (٣٠٠) ألفًا من الرّجال الأشدّاء، فلمّا أراد أن يغادرها وضربَ خيمتَه خارجها، لم يغادر المدينة في البداية إلّا عددًا هزيلًا واستكان أكثرُهم إلى الكسل والبطالة، وأخلدوا إلى رفاهية الحياة لاسيّما والبلد- عكا- حافلٌ بشتّى صنوف اللّهو والمتعة من خمرٍ معتّقة، وكواعبَ أترابٍ ساحراتٍ لم ترَ العين أجملَ منهنّ، ممّا أفضى بمعظم العَسكر إلى الانغماس في حياة اللّهو والفجور، وأكثروا من التردّد على النّسوة الساقطات، وعكفوا على الشراب ينهلونَ منه ولا يرْتوون، ومنْ ثمّ أصبحت المدينةُ تعجّ بهم وتضجّ من مَبَاذلهم الدّنيئة في طلب اللّذة(٢).

ولأنّ مسألة عفّة الجيش كانت مسألةً ملحّة على قادة الفرنجة، أمرَ الملك ريتشارد قلب الأسد أثناءَ توجّهه إلى قيسارية في جنوبي فلسطين سنة ١١٩١م ألّا يرافق الجيش أيّة امرأة، ماعدا غاسلات الملابس اللواتي عليهنّ مرافقة الجيش سيرًا على الأقدام، شريطةَ ألّا يشكّلن عبئًا عليه، أو يتِحْنَ مجالًا للرذيلة. ولكنْ على الرغم من أوامر الملك؛

(١) مجهول (٢٠٠٠، ج١/ ص١٦٣).

(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص٥٨).

فإنّ الفاحشة زحفت على الجيش يومًا بعد يوم، لأنّ بائعات الهوى عدْنَ مُتَخَفّيات إلى المعسكر. وتجدرُ الإشارة إلى أنّ الفرنجة كانوا يمرّون بظروف اقتصادية صعبة في هذه الأثناء واجْتاحتهم المجاعةُ من جرّاء ذلك، ولعلّ تلك الظروف كانت من الأسبابِ التي دفعتْ تلك النّسوة إلى ما قمنَ به من أفعال فاسدة(١).

وعندما رمّمَ ريتشارد قلب الأسد أسوارَ مدينة يافا، ظلّ الجيش مقيماً زمنًا طويلًا بلا عمل مُنْصرفًا إلى الدّعة والكسل والانغماس في اللّهو، وانتشرت بينهم شتّى أنواع الخطايا، وأخذتْ تتفاقم يومًا بعد يوم، من انْكبابٍ على الشراب والفجور- يقصد بذلك اللّواط- أمّا النساء فقد عُدنَ من مدينة عكاً إلى الجيش وكثْرَ الفسق، وعمّتِ الآثام والأفعالُ الشريرة، ففسدتْ أخلاقُ النّاس، وانصرف تفكيرُهم عن الحجّ، وأهملوا واجباتِهم الدينيةَ التي كان من المفروض عليهم أداؤها(٢).

وعندما استُدعي الفرنسيون إلى صور سنة ١١٩٢، فقد انغمسوا في الملذّات وغرقوا في الحانات وبيوت الدّعارة، واستسلموا للشّهوة ومسامرة الراقصات وإقامة الولائم مع بائعات الهوى(٣).

وفي الحملة الصليبيّة الرابعة ، عندما كان الفرسانُ الصليبيّون في جزيرة (ليدو) التابعة لمدينة البندقية قبلَ احتلالهم لمدينة القسطنطينيّة، حوّلوا المعسكر في ليدو إلى وكرٍ للمقامرين وللعَواهر.(٤) وعندما دخل الصليبيّون القسطنطينيّة، اغتصبت الرّاهبات في الأديرة، ودخل الجنودُ الذين لعبت الخمرُ برؤوسهم كنيسةَ آيا صوفيا ، وأحضروا

(١) طه الطراونه (١٩٩٣، ص٨٣).
(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٠١).
(٣) طه الطراونه (١٩٩٣، ص٨٢).
(٤) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص٢٤٦).

إحدى العاهرات لتجلسَ على العرش البطريركي وجعلوها تنشدُ الأغاني البذيئة وترقصُ الرقصات الرخيصةَ أمام مذبح الكنيسة، واستعملت الأواني الطاهرة من أجل احْتساء الخمور، ويلاحظ أنّ ذلك السلوكَ المتوحش استمرّ في مدينة قسطنطين ثلاثة أيام،[1] حيثُ انتحب مؤرخ بيزنطي معاصر على المدينة ، وهو نيكيناس خونياتس (Nicetas Choniates) ورثاها قائلًا: "أيتها المدينة، يا حاميةَ الكنائس ، يا سيدةَ الإيمان، لقد تجرّعت كأس غضبِ الله حتى الثّمالة»[2].

ويقول أولفر أوف بادربورن عن دعارة جنود الحملة الصليبيّة الخامسة (١٢١٨ – ١٢٢١م/ ٦١٥ – ٦١٨هـ) على مصر: «ما من أحد يمكنه أن ينكر فسادَ جيشنا، بعد أن أعطانا الربّ دمياط، وأُضيف إليها حصن (تنيس)، فقد بات الناس كُسالى، مُخنّثين، تدنّسوا بأعمال المهاجعِ والسّكر والفسق والزّنا والسرقة والرّبح الشرير».[3] فقد انتشرت المواخيرُ والعاهرات ولعبُ النّرد في المعسكر الصليبيّ بشكلٍ جعل الكاردينال (هنري دي إلبانو) المندوب البابوي في الحملة، يصدرُ قرارًا بطردِ العاهرات ومحترفي النّرد وسيئ السّمعة من المعسكر الصليبي أمام مدينة دمياط، وبمجرد سقوطها في يدِ الفرنج تفشّت الموبقات بها من كلّ نوع ، وشاعَ العُهر في المعَسكر[4].

وفي الحملة الصليبيّة السابعة على مصر، جذبَ نبأ احتلال مدينة دمياط من قِبَل الملك لويس التاسع ملك فرنسا، وثراءُ الغنائم؛ الرّجال من جميع البلاد الذين هُرِعوا من الشام

(١) محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص٢٦٧).

(2) Nicetas Choniates (1984, P.314)

(٣) أولفر أوف بادربورن (١٩٩٨، ج٣٣/ ص٨٣).

(٤) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢٠).

وكلّ الموانئ المسيحية الأخرى في إيطاليا وفرنسا، أمّا النساء اللاتي كنّ يحلمنَ بالرّبح السهل، فقد تدافعنَ بأعداد كبيرة لخدمة آلاف الرّجال العاطلين، أمّا البارونات الذين أثروا ثراءً فاحشًا، فقد كانوا يعيشونَ في رفاهية، ويقيمون الحفلات الصاخبة وينفقون ببذَخ، ويحتفظون بالنساء سيّئات السمعة، وكان الجنود يُقلّدونهم، حتى إنّ بيوت الدّعارة تمّ فتحها على بُعد خطوتين من خيمة الملك[(١)].

ولمْ يكتفِ جنود لويس السابع بانْحرافهم الجنسي في بيوت الدّعارة أمام مدينة دمياط، ولكن بعدَ فشل حملته على مصر وذهابه إلى بلاد الشام، عاد جنوده إلى سابق عهدِهم، فقد انغمسَ بعضُ جنود لويس التاسع في حياة الإثم والفُجور، حيث ضبطَ أحدُ الفرسان في منزل يدارُ للفسادِ خلال إقامة لويس التاسع في مدينة قيسارية، وتُرك له أنْ يختار بين أحدِ أمريْن وفقًا لتقاليد تلك البلدة: إمّا أن تقوده المرأة الفاسقة وهو في قميصٍ عبر المعسكر وقد رُبط بحبلٍ بصورة مُخزية، وإمّا أن يُصادرَ جوادُه وسلاحُه ويُطرد من المعسكر، فاختارَ الحلّ الثاني، وذهب إلى حالِ سبيله[(٢)].

وتجدرُ الإشارة إلى أنّ فجور المرأة الصليبيّة لم يكنْ مقصورًا على معسكرات الجند، فقد كنّ ينتبذنَ أماكنَ بعيدةً عن هذه المعسكرات، ويضربنَ فيها قبابهنّ وخيامهنّ، ويقصدهنّ طلابُ الهوى، وقد صوّر العمادُ الأصفهاني هؤلاء النسوة قائلًا: "وتفرّدن بما ضربْنَه من الخيام والقباب، وانضمّت إليهنّ أترابهنّ من الحِسان والشواب، وفتحن أبوابَ الملاذّ، وسبلنَ ما بين الأفْخاذ.. ونفقنَ سوقَ الفسوق، ولفقنَ رتوقَ الفُتوق"[(٣)].

(١) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٢٧٥).
(٢) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٤، ص١٣٤).
(٣) شفيق محمد عبد الرحمن (١٩٩٦، ص٣٤٣).

الانحرافُ الجنسي في طبقةِ العلماء والطّلاب الأوروبيّين

إنّ الغريزة الجنسيّة غريزةٌ أساسية في الإنسان ، ومن الصعب أن يتخلّى عنها، فإذا كان بعضُ رجال الدّين لم يتورّعوا عن الانحراف الجنسي، فكانَ من الطبيعي أنْ ينحرف غيرُهم، ومن المؤسفِ أنْ يطال الانحرافُ الجنسي طبقةً أخرى مهمّة من طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبية، وهي طبقةُ العلماءِ وطلّاب العلم ، خاصةً في أوروبا.

مِن الشواهدِ التاريخيّة على انحراف طبقة العلماءِ في عصر الحروب الصليبية، أنّ المؤلف الحقيقي لقصة الحربة المقدّسة، التي صارت مثارَ جدلٍ بين الصليبيّين في مدينة أنطاكية، إنّما هو رجلٌ اسمه (أرنولف) وكان صديقًا لكونت نورماندي، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانيّة، على الرغم من أنه كان رجلًا عالمًا(١).

في سنة (١١١٥م/ ٥٠٩هـ)، اعترت الدّوق (وليم التاسع) شاعر التروبادور عاطفةٌ متأجّجة، وهامَ حبًّا بزوجة أحد أفصاله الإقطاعيين ويدعَى (إيمري دي روشفيلد Amery de Richfield) وكانت هذه المرأة تدعى (دانجروسا Dangerosa)، رغم أنها كانت متزوجة من إيمري منذ سبع سنوات، وأثمر زواجهما عن ثلاثة أطفال، فقام وليم التاسع بخطف تلك السيدة- التي لم تحتجّ على ذلك- من غرفة نومِها على جوادِه. وحملها إلى قصره في بواتييه، ويبدو أنها كانت مستعدّة للتخلّي عن الزوج والأطفال من أجل الدّوق الشاعر الجريء، وجعل إقامتَها في برج شيّده مؤخرًا باسم (موبرجيون Maubergonne)، ولم يكترث الدّوق بإخفاء دانجروسا، أو حتى توخّي الحذرَ من جانب هذين العاشقين، ومن جهةٍ أخرى لم يبدِ زوجُها ثمّة أيّ احتجاج، ربما خوفًا من غضب سيّده الإقطاعي الأعلى.(٢)

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٥٥).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٦).

وكان يوحنا جون تزيتزس Tzetzes (١١١٠ - ١١١٨م/ ٥٠٤-٥١٢هـ) من أدباء القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)، وكان في صغره يعمل كاتبًا لأحد الحكام المحليّين الإقليميّين البيزنطيّين، ثمّ انتزعت منه هذه الوظيفة، بسبب ما رُمي به من أمر مُشين اقترفه مع زوجة رئيسِه، ومن ثمّ اضطرّ لأنْ يكسب عيشَه من احترافه التدريس والكتابة في القسطنطينيّة[١].

وعلى الرغم من الرّقابة الصارمة على طلاب الجامعات الأوروبيّة، فإن عواملَ الإغراء كانت كثيرة، مثل الحانات ودور الدّعارة والاختلاط بأهلِ السوء، الأمرُ الذي تسبّب في انحراف عددٍ من الطلبة، فقد كان الطلاب الألمان- مثلا- سريعي الغضب ، ويأتون المُنكرَ والفحشاء في حفَلاتهم[٢].

الانحرافُ الجنسي في طبقةِ العامّة

كانت طبقةُ العامة في المجتمع الصليبي- بل وفي أوروبا- هي الطبقةَ الأكبر من حيث التّعداد السكاني، وعلى الرغم من أنّ المصادر التاريخية قد بسطت القول في ذكر أسماء المنحرفين جنسيًّا من الطبقة العليا، إلّا أنها لم تبخلْ على القارئ في بسطِ القول أيضًا عن انحراف الطبقة العامّة، على الرغم من نُدرة ذكر أسْماء هؤلاء العوام.

في فرنسا- مهدِ الحركة الصليبيّة وراعيتها- وصف المؤرخ الراهب (جوفري فيجواس Geoffrey of Vigeois) الوضع في أكوتين إحدى مقاطعات فرنسا، بأنّ الرّجال كانوا شياطين، بينما النّساء كُنّ يثرنَ مزيدًا من الرّعب، ويدفعنَ جيران أكوتين المتحفّظين إلى

(١) دونالد نيكول (٢٠٠٣، ص٢١١- ٢١٢).

(٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٧٩).

القول: بأنّ الدوقية كلّها لم تكن إلّا ماخورًا ضخمًا.[١] وعندما أتى الصليبيّون إلى الشرق واسْتوطنوا فيه، لم ينسَوا أخلاقهم الأوروبية وعاداتهم، فكانت الأجيالُ الجديدة سلالةً حديثة من الرّجال والنساء أطلق عليهم اسم (البولان Poulains) وهو اسمٌ يمكن ترجمتُه أو فهمه بمعنى (الأولاد). وقد كانت حياتُهم المنزلية وعلاقاتهم الأسريّة وخصوصياتهم كلّها انعكاسًا لأوروبا، ولفرنسا على وجهِ التّحديد، وبرزت إلى الوجود فرنسا ما وراء البحار[٢].

يقول الرّحالة بورشارد عن عامة الصليبيّين في الأراضي المقدسة:[٣] «يقيم في الأرض المقدسة رجالٌ من جميع الأمَم، وللحقيقة فإنّ رجالنا اللاتين هُمُ الأسوأ من جميع أهل الأرض، وسببُ ذلك كما أعتقد، أنه عندما يصبح أي رجلٍ شرير مُجرمًا، كأنْ يصبح على سبيل المثال قاتلًا وسارقًا ولصًّا، أو زانيًا؛ فإنّه يقوم بقطعِ البحر كإنسانٍ تائب، فيأتي الناس إلى هناك من جميع العالم من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وهنغاريا، ومع أنّهم يفعلون ذلك ويقومون بتغيير مناخِهم وليس تفكيرهم. وهُمْ يعيشون في الأرض المقدسة بأقدامٍ ملوّثة تُدنّس المقدسات».

يقول يعقوب الفيتري عن حيلِ زوجات العامّة من الصليبيّين على أزواجهم كي يتمكّنّ من الانحراف الجنسي خارج إطارِ الزوجيّة:[٤] «هناك بعض الأزواج يسمحونَ لزوجاتهم بالذّهاب إلى الحمّام ثلاث مرات في الأسبوع تحت حراسة صارمة، ولكنْ كلّما اشتدت صرامة البولانية نحو زوجاتهم زادَ العمل عن طريق آلافِ الحيل، ووسائل

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٣).
(٢) يوشع براور(١٩٨١، ص١٤١).
(٣) بورشارد (١٩٩٥، ص١٧١- ١٧٢).
(٤) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٠٦).

نضالٍ لا نهاية لها، ومحاولة لإيجادِ طريق لخروجهنّ. لقد عملنَ العجب، وما لا يمكنُ تصديقُه، إنهم يفضّلون الانغماس في كسَلِهم، وإشباع رغباتهم الدنيويّة والجسدية».

كان الشرقُ اللاتيني مرتعًا خصبًا للفسق والشّرور، وأصبح التدهورُ الخُلقي بين اللاتين حديثَ الجميع، بعد أنْ فاحت رائحتُه وأصبحت تزكمُ الأنوف، فكان أمرًا عاديًّا أنْ يضبط أحدُ الفرنج زوجتَه في وضعٍ مُريب مع رجلٍ غريب، ويتقبّل الأمرَ ببرودٍ كأنْ لم يحدث شيء.[١] وكانت بعضُ نساء العامّة من الصليبيّين يعملنَ على إشباع غرائزهنّ الجنسيّة بشتّى الطرق، حتى وإنْ كان ثمنُ ذلك قتلَ الزوج نفسِه. ففي مدينة عكا الصليبيّة قامت إحدى نساء طبقة العامّة بدسّ السّم لزوجها بعد أن وقعتْ في شباك رجلٍ إفرنجي قادمٍ من الغرب الأوروبي، عشقتْهُ وهامتْ به، وتخلّصت من زوجِها لكي ترتبطَ به.[٢]

ولم يكنِ الانحرافُ الجنسي للعامّة من الصليبيّين قد بدأ مع استيطانِهم للشرق العربي، بل صحبَهم مع أوّل تحرّك نحو الشرق في الحملة الصليبيّة الأولى. فقد علّق أحدُ المعاصرين للأحداث على الكوارث التي حلّت بالصليبيّين في البلقان في الحملة الصليبيّة الأولى قائلًا: «هناك اعتقادٌ بأنّ هذه هي إرادة الله التي شاءت الانتقامَ من الحجّاج الذين ارْتكبوا الذّنوب والموبقات، وانْغمسوا في المَعاصي، ومضاجعة البَغايا».[٣] ويقول فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres) عن هزيمة الصليبيّين في إحدى جولاتِ حصارهم لمدينة نيقية: «وضحَ لنا آنذاك أنّ ما حصل لنا كان نتيجةَ خطايانا، إذ أفسدَ الترفُ بعضنا، بينما أفسدَ الجشعُ والرذائل الآخرين»[٤].

---

(١) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٨، ص٩٢).

(٢) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٣٨).

(٣) جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩، ص١٠١).

(٤) فوشيه الشارتري (١٩٩٠، ص٤٩).

عندما أراد الصليبيّون الاستيلاءَ على معرة النّعمان في الحملة الصليبيّة الأولى، ظهرت بعضُ الرؤى والأحلام[1] عن طريق بعض القدّيسين الذين ترَاءوْا لبعض الصليبيّين، واعترفوا بوجودِ الدّعارة بينهم؛ حيث قال: «ففي صفوفِكم القتل والنّهب والسرقة، فضلًا عن انْعدام العدالة، كما أنّ هناك زنا، وإن كان يسعد الربّ أن تتزوجوا؛ فإنّ الربّ سيعطيكم معرة النّعمان بسبب رحمتِه لأعمالكم».[2] وعلى الرّغم من عدم صحّة هذه الرؤى والأحلام في مجملها؛ لأنّها كانت من وسائل الحركة الصليبيّة في رفع حماسةِ العامّة عند تعرّض الصليبيّين للخطر، إلّا أنها توضّح مدى انغماس عامّة الصليبيّين في الانحرافات الجنسيّة مع وطأة أولِ قدمٍ لهم في بلاد الشرق العربي، وصارتْ من عاداتِهم الرّذيلة التي مارسوها في نطاق واسع بعد ذلك.

في خضمّ أحداث الحملة الصليبيّة السابعة على مصر، وعلى الرّغم مِن أنّ قائدَ الحملة ملك فرنسا (لويس التاسع) كان يوصف بالقديس لويس، فإنّ العامّة من الصليبيّين أمامَ مدينة دمياط، راحوا يراقصون النّسوة الخليعات، حتى أقاموا أماكنَ اجتماعاتِهم الخبيثة على رميةِ حجرٍ من فسطاط (خيمة) الملك لويس التاسع[3].

ومِن صور الانحرافِ الجنسي التي مارسها العامّة من الصليبيّين؛ الاغتصابُ. فعندما اخترق الصليبيّون بلادَ المجر في الحملة الصليبيّة الأولى الشعبية، سلك الصليبيّون سلوكَ النّهابين، فأثناء مرورِهم في أرض المجريّين والبلغار، كانوا يقتلون ويغتصبون

(١) عن الرؤى والأحلام المقدّسة عصر الحروب الصليبية، راجع: إمام الشافعي محمد (٢٠١١، ص٥٥٦ – ٧٤٧).
(٢) ريمونداجيل (١٩٩٠، ص١٦٨).
(٣) جان دي جوانفيل (١٩٦٨، ص٩٩).

ويتعسّفون.[1] ذلك لأنّ عددًا من الفرنج تأثّروا بجمال النساء اليونانيّات، وفتنة المشرقيّات، واستَحْوذوا على مُسلمات في المدن المنكوبة، أمّا مشاهد العنف الجنسي والاغتصاب وقتلُ نساء الأهالي الشرقيّين فهي لا تغيبُ عن مرويّات مدوّني الأخبار[2].

ومن صور الانحراف الجنسي لعامة الصليبيّين؛ الأنكحةُ الفاسدة التي تخالف تعاليمَ الكنيسة، بل جميعَ الأديان السماوية. مِن ذلك ، أنّ يعقوب (أستاذ هنغاريا) ادّعى لنفسه الحقّ في منح الغفران من كلّ أنواع الذّنوب، وإذا رغب رجلٌ أو امرأة من أتباعِه في الزّواج، فإنّه كان يقومُ بالمراسم، وإذا رغبا في الانْفصال، فإنّه كان يطلّقهم بالسهولة نفسها، ويقال: إنّه قد زوّج أحد عشر رجلًا لامرأةٍ واحدة.[3]

ولم يقتصر الانحراف الجنسي في طبقة العامة في عصر الحروب الصليبيّة على البالغين من الأوروبيّين، بل شاركهم في ذلك بعضُ الأطفال. فقد كان ستيفن (Stephen) الفرنسي طفلًا لم يشبّ عن الطوق، ولكنّ حياته كانت تتّسم بالخسّة والدّناءة والرذيلة.[4] وعندما يأسَ الأطفال الألمان من فكرة جفاف البحر- في حملة الطفل الألماني نيقولا (Nicola)- شعروا بالإحباط والهلاك وقلّة الطعام والشراب، وتمّ سلبُ ونهبُ العديد منهم عن طريق (اللمبارديين Lembards) وتمّ بيع العديد منهم. وأثناءَ عودتهم كان الناس يشيرون- باستهزاء- إلى الفتيات العذارى اللاتي ذهبنَ بعُذريتِهنّ، ورجعنَ يحملنَ أطفالَ العار على صدورهن[5].

---

(١) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص٥٦).

(٢) ميشيل بالار(٢٠٠٣، ص٦٦).

(٣) سهيل زكار (١٩٩٥، ج٤/ ص١٢٢).

(٤) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ص١٨٢). وعن صليبية الأطفال بالتفصيل، راجع:

Peter Raedts (1982 ، Pp.30 – 37).

(5) Dana C. Munro (1914 ، Pp.522 – 523) .

وكان يتمّ استغلالُ الأطفال في أفعال اللّواط بين العامة من الصليبيّين، فقد نصّت المادةُ الثامنة من مَجمع نابلس سنة (١١٢٠م/ ٥١٤هـ) على حرْقِ الذين يضبطان مُتَلبسان بجريمة اللّواط، وكذلك حرق مَنْ يمارس الرّذيلة مع أحد الأطفال. وهذا يدلّ على تنوّع حالات الشذوذِ التي انتشرتْ في المملكة الصليبيّة، فربّما تكون بين اثنين من الرّجال بالاتفاق فيما بينهما، أو تكون بين طفلٍ وبالغ أو بين بالغيْن يُجبرُ أحدُهما على ذلك، كما أنّ تفشّي تلك الجريمة في ذروة عصر المدّ الصليبي يؤكّد تفشّيها في عصر التردّي والضعف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، ولكنْ على نطاق واسع[١].

الانحرافُ الجنسي بين المسلمين

كان المسلمون يمثّلون أغلبية العامّة في المدن الشامية التي احتلها الصليبيّون، حيث كانوا يشكّلون ما نسبته (٧٥ - ٨٠٪) من عدد السكان الإجمالي داخل المملكة الصليبيّة،[٢] لذا سجّلت بعض المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث بعض الانحرافات الجنسيّة للمسلمين- خاصّةً بعض القادة الأتراك- وسواء كانتْ هذه الانحرافات الجنسيّة الواردةُ في المصادر التاريخية الأوروبية صحيحةً أم فيها تحاملٌ على المسلمين؛ فإنّ الموضوعية والحيادية التاريخية تقتضي ذكْرها، كما أنّ المجتمع الإسلامي والعربي في المدنِ الشاميّة المحتلّة لم يكن ملائكيًّا، خاصّةً مع مخالطتهم لأخلاقيات الصليبيّين بكلّ ما فيها من حسناتٍ وسيّئات، فلا شكّ أنّ البعض قد تأثّر بسلوك الصليبيّين الجنسي، كما يجبُ التنبيهُ على أنّ هذه الانحرافات الجنسيّة قياسًا مع الانحرافات الجنسيّة الأوروبية وقتئذ؛ لا تكادُ تُذكر.

---

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٤).

(2) Benvenisti M. (1970 ، P.18).

كان تأثيرُ الحروب الصليبيّة من الناحية الاجتماعية واضحًا في بلاد الشام أكثرَ منه في أي منطقة أخرى في العالم العربي، إذْ أنّ البنية السّكانية وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيمي والأخلاقي؛ قد اهتزّت كثيرًا نتيجةَ الاستيطان الصليبي الذي عاش فوقَ تراب هذه المنطقة حوالي قرنين من الزمان.(١)

تحدّثت بعضُ المصادر التاريخية الأوروبيّة المعاصرة للأحداث عن التّعطّش الجنسي عند المسلمين الأتراك، مِن ذلك قول «ألبرت فون آخن» في معرض حديثِه عن هزيمةِ الحملة الصليبيّة الأولى الشعبية على يدِ الأتراك السلاجقة، إذْ يقول عن ذلك:(٢) «وقتلوا- أي الأتراك- بالسيوف الضّعفاء من كلّ الأعمار والنّساء الحوامل، ولكنّهم لم يقتلوا البناتِ الصبايا ذواتِ العيون والشّكل الجميل، وجمعوهنّ وأخذوهنّ معهم كأسرى». ويقول المؤرخُ المجهول عن الإمبراطور فردريك الثاني:(٣) «وكان يحتفظُ بالبنات المسيحيّات الجميلات ويرسلهنّ إلى سلطان مصر وإلى الأمراء المسلمين الآخرين المخالطين له». ويقول مارينو سانوتو أيضًا عن ذلك:(٤) «وتنقل أيضًا إلى الأراضي الخاضعة للسلطان- سلطان المماليك في مصر والشام- بناتٌ من مختلف الدّول مسيحية كانت ، أو وثنية يأخذونهنّ للتلذّذ الجسدي».

على الرغم من كلّ هذه الروايات السالفة الذكر ، والتي تفيدُ بحصول المسلمين على الفتيات للتلذّذ الجسدي كما ذكر ذلك صراحةً مارينو سانوتو؛ فإنّها جميعًا تُشير إلى تجارة

(١) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص١٩٩).
(٢) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص٢٧).
(٣) مجهول (١٩٨٩، ص١١٥).
(٤) مارينو سانوتو (١٩٩١، ص١١٢).

الرقيق في ذلك العصر ، والذين كان يتمّ الحصول عليهنّ إمّا عن طريق الأسْرِ في الحرب أو جلبِهِنّ من البلدان الأخرى، والتلذّذ بالجواري غير مُحرّم في شريعة المسلمين، لذا لا يُعَدّ ذلك انحرافًا جنسيًّا.

وإذا كان التمتّع بالجواري الحِسان غيرَ مُحرّم في شريعة المسلمين، فهناك بعضُ حالات الاغتصاب التي قامَ بها بعضُ الجنود الخوارزميّين في بلاد الشام، فقد هامتْ جُموعٌ من الخوارزميّين على وجْهِها في الجزيرة الفراتية وشمال الشام، بعد مقتلِ سلطانهم (جلال الدّين منكبرتي) فتكرّرت إغارات الخوارزمية منذ سنة (١٢٤١م/ ٦٣٩هـ) على حلب، ومنبج، ومعرة النعمان، وغيرها من مدن الشام، حيث ارتكَبوا من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبَه التّتر[١].

ومن صور الانحراف الجنسي عند القادة الأتراك المسلمين التي وردت في المصادر التاريخيّة الأوروبية؛ العلاقاتُ الآثمة التي كانت تنشأ بينهم وبين بعض النّساء المتزوّجات على وجهِ الخصوص، وتُعَدّ خيانة زوجة «فيروز الزراد» مع القائد «ياغي سيان» حاكم مدينة أنطاكية هي الأبرز وقتئذ.

كان «فيروز الزراد» قائدًا لبرجِ الأختين في مدينة أنطاكية عندما حاصرتها جحافلُ الصليبيّين في الحَملة الصليبيّة الأولى، وبينما كان فيروز الزراد مشغولًا أشدّ الانشغال بأداءِ ما تفرضه عليه واجباتُه الكثيرة التي يقتضيها وضعُه في بيت مولاه- حاكم أنطاكية- ، بل وفي البلد كله، إذْ بأمرٍ عاجل لا ندْريه يجدّ، آثرَ إرسالَ ولدِه الشاب إلى داره، وإذْ ما كان الفتى يبلغُها حتى طالع منظرًا مشينًا فاضحًا؛ حيث شاهدَ أمّه بين ذراعي أحدِ كبار

(١) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج٢/ ص٢٧٤).

الأتراك في وضع مزرٍ أسْخطه غايةَ السّخط، وتقطّعت منه أوصالُه فزعًا، وتقزّزت له نفسه، فانكفأ سريعًا إلى أبيه وأخبرَه بالفضيحَة. فخنقَ فيروز الزراد خنقَ الزّوج المثلوم في شرفِه، المهان في كرامته، وقال في مرارة: ألَمْ يكفِ هذه الكلاب القذرة أنّها تفرض علينا رقّها الظالم حتى تستهينَ بالتقاليد الأسريّة وتقطعَ الروابط الزوجيّة، والله لأضعن- إنْ عشت- نهايةً لهذا الفجور[1].

مع أنّ المصادر التاريخية لم تنصّ على اسم هذا القائد أو الزعيم التركي، إلّا أنّه- لو أخذنا بالرواية السالفة الذكر- لكان أن نتوقّع أن يكون المقصود هو (ياغي سيان) أميرُ أنطاكية أو أحدُ ولديه[2].

ومن صور الانحراف الجنسي التي أوردتْها المصادر التاريخية الأوروبية عن المسلمين؛ زنا المَحارم، وقد ذُكر هذا عن إحدى الفرق الضّالة، وهي طائفة الإسماعيليّة الشيعيّة. يقول المؤرخ المجهول عن طائفة الإسماعيليّة أو الحشيشيّة:[3] «هؤلاء يأكلون لحمَ الخنزير، ويعاشرون بناتِهم وأمهاتِهم، وأخواتِهم ممّا يتنافى مع شريعة محمد». على الرغم من أنّ فرقة الإسماعيلية الحشّاشين من الفرق الشيعيّة المنحرفة فكريًا، لكن لم يقلْ أيّ مصدرٍ تاريخي أوروبي آخر أو مصدرٍ تاريخي سُنّي بأنّهم يأكلون لحمَ الخنزير، أو يرتكبون جريمة الزنا مع المُحرّمات من النساء، فهي روايات الآحادِ التي لا يُعتدّ بها في مثل هذه الأمور الخطيرة.

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٤٥ - ٣٤٦).
(٢) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٣٠).
(٣) مجهول (١٩٨٩، ص٥٦).

حرصَ قادة الحملات الصليبيّة على إبراز الانحلال الجنسي للمسلمين، فصوّروهم على أنّهم فاجرين،[١] يقول البابا أوربان الثاني في خطابه[٢] في كليرمونت عن المسلمين: «إنّ الذين انتهكوا حُرمةَ المقدسات الدينية لا يقيمون حُرمةً للمكان ولا للناس، ولا يتورّعون عن قتل القُسسِ اللّاتين، ويرغمون العَذارى على ارتكابِ الفحشاء، وإلّا كان الموتُ بالعذاب من نصيبِهم، ولم يشفعْ عندهم للعجائز شيخوختُهُنّ»،[٣] ومن ذلك قولُه أيضًا في كليرمونت: «لكنّ الأتراك السّفلة أولادَ الحرام، يتحكّمون في رقاب إخوانِنا»[٤].

وكان رمي هذه الاتهامات على علّاتها ضدّ المسلمين سابقًا لفترة الحروب الصليبية، فقد رأى البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢م/ ٢٥٩-٢٦٩هـ) أنّ أي اتصالٍ بالكفّار يلوّث جسدَ المسيحي، واعتبرَ أيّ تحالف مع غير المؤمنين مُعديًا، والكفار خاصّةً الساراسان (Saracen)[٥]- المسلمين- قومٌ أشرار فاسدون وأنْجاس، وأنّهم (أبناء زنا)، و(أعضاءُ الشيطان)، و(أبناء بَليّعالَ)، و(جسد إبليس)، و(خاضعون للشرع الإبليسي).[٦] وممّا لا

(١) ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص٦٦).

(2) Dana Carleton Munro (1906, Vol. 11, Pp.231 - 242).

(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص١٠٣).

(٤) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠، ص٨٥).

(٥) ساراسين أو ساراكينوس (باللاتينية: Saracenus، ساراسينوس) (باليونانية: Σαρακηνός، ساراكينوس) مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثمّ أصبح يطلق على العرب، وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبيّة توسع المصطلح ليشمل كلّ الذين يدينون بالإسلام. راجع:

Encyclopædia Britannica (2012, Saracen).

(٦) توماش ماستناك (٢٠٠٣، ص١٦١).

شك فيه أنّ هذه العبارات ومثيلاتِها قد مهّدت لروح التّعصب التي سادتْ فترة الحروب الصليبيّة بعد ذلك.

ومن صور الانحراف الجنسي أيضًا عند المسلمين في عصر الحروب الصليبيّة؛ «اللّواط». فقد عانت المجتمعاتُ العربية كثيرًا من مظاهرِ التّدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي، فانتشر الشذوذُ الجنسي بشكلٍ واسع، وهو من أخطرِ الأمراض الاجتماعيّة على الإطلاق[1].

على الرغم من أنّه لا يمكنُ إنْكار حدوثِ الشذوذ الجنسي بين المسلمين بسبب تأثّر بعضهم بأخلاقيّات الصليبيّين التي تتسامحُ مع ذلك الأمر الرّذيل، إلّا أنّ هذا الشذوذ الجنسي لم يكنْ منتشرًا بين المسلمين على نطاقٍ واسع، بل كان حالاتٍ فرديةً لا ترقى إلى مستوى الظاهرة، ذلك لأنّ المصادر التاريخية خلتْ من ذكرِ ذلك صراحة، كما أنّ تعاليم الإسلام رادعةٌ حيالَ مَنْ يفعل ذلك. وقد أكّد على عدم شيوع ذلك المصادرُ الأوروبية ذاتُها، يقول الرّحالة فيلكس فابري عن ذلك:[2] «المسلمون يتزوّجون بأكثر من زوجة، ولا يقبلونَ الاعتراف بممارسة السدوميّة- اللّواط-».

هذا، ولم تخلُ المصادر التاريخية من ذكْر صورة أخرى من صور الانحراف الجنسيّ عند المسلمين، هو التردّد على بيوت الدّعارة، يقول ريمون الأجويلري عن سكانِ مدينة «صور» المسيحيّين ومعاملة المسلمين لهم: «كانوا يضعونَ الشباب في بيوتِ الدّعارة، ولكي يمْعنون في الخسّة؛ كانوا يبادلونَ أخواتهم من البنات بالخمْر، ولم تكنْ أُمهاتُهم

(١) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٢١٠).
(٢) فيلكس فابري (٢٠٠٠، ج٣٨/ ص١١٩٠).

تجرؤنَ على البكاء علنًا بسبب هذه المصائب أو غيرها».[١] وهذه الرّواية تدخلُ في إطار الرّوايات التي قُصدَ منها تشويهُ صورة العرب المسلمين بالتّعصب ضد المسيحيّين الشرقيّين ، والعمل على انتهاكِ شرفِهم في بيوتِ دعارة مخصّصة لذلك، وهو ما لم تقلْ به غيرُه من المصادر التاريخية المعاصرة.

في عهد المماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧م)- خاصّةً في الفترة التي عاصروا فيها الوجودَ الصليبي في بلاد الشام ما يزيدُ على أربعة عقود من الزمان (١٢٥٠ – ١٢٩١م)- كان البغاءُ مُنتشرًا لدرجةٍ جعلت الحاكمَ يفرض عليه الضرائب، وقد استمرّ هذا الحال حتى جاءَ الظاهر بيبرس البندقداري الذي عملَ جاهدًا للقضاء على هذه الظاهرة، وعند موتِه عادَ البِغاء إلى ما كان عليه[٢].

وجدت الدولةُ أنّ المطربات والعاهرات يدفعنَ ضرائب بدونِ حساب، تجمعها منهنّ سيدة تسمّى (كفيلة المغنى)، هذه السيدة تدفعُ للدولة مبلغًا من المال كلّ عام، وفي المقابل تتولّى جمع الضرائب التي يجبُ أن تدفعَها المطربات والعاهرات، وكانت تربحُ كثيرًا، ولا تستطيع المطربةُ أن تحيي الحفل أو حتى الدخول إلى المكان المقام فيه، أو حتى التزيّن قبل أن تدفع الضريبة المقرّرة[٣].

وكانت مندوباتُ الكفيلة من النساء يتجوّلنَ كلّ ليلة على بيوت المطربات المسجّلين لتسجيل غيابَهن. وتقوم الكفيلةُ كذلك بتحصيل الضرائب التي تدفعُها العاهرات مقابلَ

---

(١) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠، ص٢٥٧).

(٢) نجية عبد الله (١٩٨٤، ص٤٦).

See: Ashraf Salih Mohamed (2016, Pp. 43 – 46).

(٣) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٣٥٤).

حمايتهنّ التي تتكفّل بها شرطةُ الدولة، وتحصيل هذه الضريبة لا يتضمّن مَنْ يقوم بزيارة الحي الذي يقمنَ فيه بدونِ التمتّع بخدماتهن، وإلّا كان عليهنّ أن يدفعنَ ضرائب أكثرَ مِن عددِ الزّوار المتمتّعين بخدماتهن، والفضوليون ليس لهم مكان، ويبدو هذا شيئًا فريدًا لضريبة لا تدفعها إلّا النساء، ويتمّ جمعها بواسطة النساء فقط لصالحِ الدولة[١].

ولعلّه من باب إتمام الفائدة أن نذَكّر بأنّ مهنة الدّعارة اختفتْ بين اليهود في العصور الوسطى وما بعدها، لكنّ هذا لا يمنع وجودَ حالات من البغايا اليهوديات والقوّادين اليهود، ولكن عددَ اليهود الذين اشتغلوا بهذه المهنة كان نادرًا بالقياس إلى النسبة السائدة بين الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها[٢].

(١) ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤، ص٣٥٤).

See: Isa Mahmoud Alazzam (2013, Pp. 237 - 238).

(٢) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩، ج٢/ ص٢٩٨).

الفصلُ الرابع

الانحرافُ الجنسي بين الدولةِ والكنيسة

«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قيلَ لِلقُدَماءِ: لا تَزْنِ. وَأمّا أَنَا
فَأقولُ لَكُمْ: إنَّ كلّ مَنْ يَنْظُرُ إلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهيَها؛
فَقَدْ زَنَى بِها في قَلبِهِ»

إنجيل متّى الإصحاح الخامس

الفصلُ الرابع
الانحرافُ الجنسي بين الدولةِ والكنيسة

كانتِ الدّعارة في عصر الحروب الصليبيّة من أكبرِ وأشهرِ صور الانحراف الجنسي وقتئذ، ويتناولُ هذا الفصل عكا، وأورشليم القدس، بصفتِهما من أهمّ المدن التي اشْتهرت بالدّعارة في الكيان الصليبي. وأمامَ هذا السيل الجارف من الانْحرافات الجنسيّة التي عمّت كلّ طبقات المجتمع في عصرِ الحروب الصليبيّة، كان لا بدّ للكنيسة الغربية أنْ تقوم بدورٍ مهمّ للحدّ من هذا الانْحطاط الأخلاقي الذي وصلَ إليه أبناءُ الغربِ الأوروبي في المدن الصليبيّة في بلاد الشام. وقد اتّخذت الكنيسةُ عدّة إجراءات للحدّ من ذلك الانحراف متسلّحة في ذلك بسلطتِها الدينية على طبقات المجتمع المختلفة. يشيرُ هذا الفصل إلى أهمّ هذه الإجراءات والتي تمثّلت في عقدِ المجامع الدينية، وقرارات وعظات رجال الدّين، وقرارات وقوانين الهيئات الدينية العسكرية، بالإضافةِ إلى دور الدّولة ممثّلة في الملوك والأمراء وقادة الجيوش، وكذلك دورُ بعض عناصر المجتمع في العمل على الحدّ مِن هذا الانحراف الجنسي.

مُدنُ الدّعارة الصليبيّة

ضمّت الجيوش الصليبيّة أعدادًا كبيرة من المجرمين بمختلف أنواعهم، كلّ أولئك أتَوا تحتَ شعار الحروب الصليبيّة وتركّزوا في الموانئ الساحلية لبلاد الشام،[1] وفي ميناء الإقلاع الأوروبي كان الحاجّ الصليبي يجدُ نفسه وسط مجموعةٍ من الناس من بني جلدتِه، وإذا كان سعيدَ الحظّ فإن إقامته ستكون مع بني جلدتِه، وذلك في نُزلٍ محلّيٍ للمسافرين،

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص٢٩).

وهي النُزل وأماكن الضيافة التي كان يقيمها الأمراء المسيحيون الأسخياء والأتقياء، أو كان الحجاج في العادة يقيمون بشكلٍ كبير وأساسيّ في حانة محليّة. واشتهرت الحاناتُ التي كانت توجد في الميناء بسوءِ السّمعة، وقلّما يمكن تمييزها عن بيوت الدّعارة والفسق.

وكانت أماكنُ النوم مشتركة، فقد كانت العادةُ المألوفة للنّوم هي أن ينام اثنان أو ثلاثة على سريرٍ واحد، الأمرّ الذي أدّى إلى انحدار الأخلاقيات ونشر الرّذيلة، وكان يحظرُ على النساء القيامُ برحلة الحجّ دون مرافق (مِحرم)، بيدَ أنّ مثل هذا الحظر تمّ التغلّب عليه وتجنّبه حتى المرافق من الرّجال لهذه السيدات اللاتي يردنَ الحجّ لم يستطعْ ضمان الحماية المناسبة للنساء اللاتي يقمنَ برحلة الحج المسيحي. وفي ذلك يقول المثلُ الألماني «يذهب حاجًّا ويعود فاجرًا»[١].

كانت بعض الحانات التي تستَخدم كفنادق في الموانئ، وفي مراكز تجمّع الحجّاج الصليبيّين، تستَخدم أيضًا كبيوت للدّعارة، وفي بعض هذه الأماكن ازدهرتْ حرفةُ الدّعارة والمقامرة بالنّرد، ممّا أدى إلى انتهاك حُرمة أولئك الذين جاءوا سعيًا وراء التوبة والمطالب الروحيّة،[٢] فصارت الدّعارة من أكثر المهنِ رواجًا في ذلك العصر. وكانت هناك أحياءٌ خاصّة بالدّعارة في المدن.[٣] وبما أنّ الدّعارة في عصر الحروب الصليبية[٤] كانت من أكبرِ وأشهرِ صور الانحراف الجنسي وقتئذ، فقد تمثّلت أهمّ المدن والبيوت التي اشتهرت بالدّعارة في المدن الصليبيّة الآتية:

(١) يوشع براور (٢٠٠١، ص٢٣٩ – ٢٤٠).
(٢) يوشع براور (١٩٨١، ص١٥٧).
(٣) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٢١٠).
(4) See: Jacques de Vitry (1896, P.64).

١- مدينة عكا:

انتشر الزنا في مملكة عكا[١] انتشارًا كبيرًا، واشتهرت مدينة عكا بالانْحلال الأخلاقي، وازدهر بها (الحيّ الأحمر) الذي توافدت عليه محترفاتُ الدّعارة من مختلف الجنسيّات.[٢] يقول الرّحالة ابن جبير عن زيارته لمدينة عكا تحت الحكم الصليبي:[٣] «نزلنا بها في بيتٍ اكْتريناه من نصرانيّة بإزاء البحر، سكَكُها وشوارعُها تغصّ بالزحام، زفرة قذِرة، مملوءة كلّها رجسًا وعذرة، فكان مقامُنا بها يومين، ثمّ توجّهنا إلى صور».

كان الحي الأحمر في مدينة عكا[٤] تُدار فيه حرفة الدّعارة بشكلٍ مُنظّم ومرتّب، حتى اشتهرَ بتلك المهنة الرذيلة، فقصدَه الناسُ من كلّ مكان، ويقرّر المؤرخ البارز يوشع براور (Joshua Prawer) أنّ مدينة عكا احتوتْ على ما عُرفَ بـ "الحي الأحمر"، وهو حيٌّ كان مخصّصًا لأعمال الدّعارة، وصارت له شهرةٌ دولية لاحتوائه على عاهراتٍ من العديدِ من الأقطار الأوروبيّة،[٥] ولذلك تحقّق وصف ابن جبير عندما قال عنّها إنّها: «مملوءة كلّها رجسًا»[٦].

---

(١) عكا من مدن الساحل الفلسطيني وتبعد عن قيسارية مسافة ستة وثلاثين ميلًا، وعنها راجع: المقدسي (١٩٠٤، ص١٩٢). الحميري (١٩٨٠، ص٤١٠).

Richard of Holy Trinity (2001, P.49).

(٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٥).

(٣) ابن جبير (١٩٨١، ص٢٤٩).

(٤) محمد مؤنس عوض (١٩٩٩، ص١٣٣).

(٥) يوشع براور (١٩٨١، ص٢٢١). محمد مؤنس عوض (٢٠١٥، ص١٠).

(٦) ابن جبير (٢٠١٢، ص٢٦٩).

حيث انتشرتْ بذلك الحي الأحمر الفنادقُ التي كانت قريبةً من الميناء، واسْتُخدمت تلك الفنادق كبيوتٍ للدّعارة، وكان المُحتسب الصليبي يجمع الفواجرَ الغرباء في حلقته الخاصّة بالأسواق ، وينادي على الواحدة، حيث كان يتمّ المزايدة عليها، حتّى إذا ارتضى لها سعرًا سلّمها إلى صاحبها.(١) وكانت محترفاتُ الدّعارة يتواجدنَ حتّى في الفنادق ذاتِ الحراسة الجيدة للكوميونات- الإيطالية التجارية ذات الوضع المتميّز- بل وحتّى في المنازل التي كان يؤجرها رجال الدّين، بسبب الإيجار الباهظ، على الرّغم من التأنيب والتّوبيخ الذي كان يوجّهه إليهم بابا روما(٢).

يقول يعقوب الفيتري عن بيوت الدّعارة الأوروبية في الأراضي المقدسة:(٣) «لقد اعتادوا على إيواء اللّصوص ولاعبي القمار، والمومسات، آملينَ بتلك الوسيلة الحصولَ على مكاسب أكثر؛ لأنّ هؤلاء الذين من أجلِ مبلغٍ ضخمٍ من المال يكسبون امتيازَ حفظ المومسات ولاعبي القمار، فإنّهم يستنزفون المالَ الكثير من أولئك المومسات ولاعبي القمار، جاعلينَ من أنفسهم شركاء لكلّ خطاياهم وشرورهم».

كانت حاناتٌ كثيرة وبعضُ المنازل الخاصّة تحتفظ بعددٍ منَ المومسات على الطّراز الغربي، أو بعددٍ من الفتيات الشرقيّات الراقصات، وكُنّ أحيانًا من الإماءِ أو الجواري الشرقيّات، أمّا الدّعارة التي كانت مهنةً شائعة في كلّ مدنِ العصور الوسطى وأكثر شيوعًا في الموانئ؛ فقد كانت مُكلّفة للغاية في مدينة ساحلية مثل مدينة عكا.(٤) فقد تفشّت حرفةُ

(١) القزويني (٢٠٠٣، ج١/ ص٢٥٩). نهى فتحي (٢٠٠٨، ص٢٠٦). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٣٨).
(٢) يوشع براور (١٩٨١، ص٢٢١).
(٣) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٣٦).
(٤) يوشع براور (١٩٨١، ص١٥٣).

الدّعارة في عكا تفشيًا كبيرًا، حتى لم يتورعْ رجال الدّين عن تأجير منازلِهم لمحترفي تلك الحرفةِ المُشينة، وصار الأمر متفشّيًا ممّا جعل البابا (أنوسنت الرابع) يرسلُ في منتصف القرن (الثالث الميلادي/ السابع الهجري) خطابًا إلى رجال الدّين الكاثوليك في مدينة عكا ينتقدُهم بسبب تأجير أملاكِ الكنيسة للفاسدين أخلاقيًّا.[١] فكان البابا يحذّر رجالُ الدّين من مغبّة تأجير المنازل للمومسات في عكا.[٢] من العجيب أنّه في الوقت الذي كان فيه رجالُ الدّين في مدينة مثل عكا يرعونَ الدّعارة المنظّمة ويتربّحون منها علانية، نجدُ أنّ بعض الوثنيّين في الشرق يمارسون حرفةَ الدّعارة أيضًا ولكنْ في خفاءٍ عن أعين الناس. يقول ماركو بولو عن مدينة تاي دو المغوليّة: «لا تجسرُ النساء اللائي يحترفنَ البغاء ابتغاءَ المال على ممارسةِ مهنتهنّ في المدينة، إلّا أن يكون ذلك خفيَة، إذْ يتحتّم عليهنّ أن يقتصرن على المُكثِ في الضواحي التي بقين بها».[٣]

يقول أمبرويز عن بيوتِ الدّعارة في عكا أثناء تواجدِ الملك ريتشارد قلب الأسد فيها:[٤] «كانت البلدة مليئةً بالمسرّات، كانت هناك خمورٌ جيدة ووفرةٌ في كلّ شيء، وكثيرٌ من الفتيات الجميلات، ومع الخمور ومع النساء أسرفوا بالشرور وبالأعمال المُخْجلة، وكانت هناك الكثيرُ الكثيرُ من المساوئ في داخل البلدة، والكثيرُ الكثيرُ من البغاء ومن الذنوب إلى حدّ أنّ العقلاء والناس ذوي القدر ارتعبوا وشعروا بالخجل تِجاه ما اقترفَه أتباعُهم».

وعندما جاءَ هؤلاء الرّجال الصليبيّون عبر البحر إلى عكا، لم يفعلوا شيئًا مفيدًا، بل

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢١).
(٢) يوشع براور (١٩٨١، ص١٥٣).
(٣) نيقولا ماركو بولو (١٩٩٥، ج٢/ ص٦٢ – ٦٣).
(٤) أمبرويز (١٩٩٨، ج٣٢/ ص٣٥٤).

أقاموا ليلًا ونهارًا في الحانات وفي الأماكن سيئةِ السّمعة،[1] وكان هذا هو حالَ جميع القادة الصليبيّين وجنودهم أثناء تواجدهم في عكا، وحتى بعد ذهابهم عنها كانوا يرْحلون إليها في خَفاء لممارسة الرّذيلة.

عندما استمرّ وجود جيش ريتشارد قلب الأسد في مدينة يافا سبعةَ أشهر، كان عددُ الجيش قد تضاءل تضاءلًا ملحوظًا بسبب رجوع فريقٍ ليس بالقليل مِن رجاله إلى عكا عن طريق البحر، حيث راحوا يتردّدون على الحانات يقضون فيها أوقاتهم. فاختار الملك ريتشارد (جي دي لوزنيان) ممثلًا له وأرسله إلى عكا ليحثّ الحجّاج على الرجوع إلى القوة المحاربة في يافا، فلم يستجبْ لدعواه إلّا شرذمة قليلةٌ لا يعتدّ بها، فلمّا وقف الملك ريتشارد على ما تمّ؛ أبحرَ هو ذاته إلى عكا وحثّهم على ألّا يكونوا حجاجًا مزيّفين، واستطاع بهذا الأسلوب وبتلك الطريقة أنْ يعيد عددًا لا بأس به منهم فرجعوا إلى يافا[2].

وفي الحملة الصليبيّة السادسة ذكرَ روجر أوف ويندوفر بأنّ الإمبراطور فردريك الثاني أكلَ في قصره في عكا وشربَ مع مسلمين، وقدّم نساء راقصات مسيحيّات للرقص أمامهم، وقد قيلَ بأنّهم بعد ذلك تولّوا الاتصال بهنّ[3].

وفي الحملة الصليبيّة السابعة تطرّق الحديثُ بين المؤرخ الفرنسي جوانفيل[4] وبين المندوب البابوي في حملة لويس التاسع على مصر؛ عن التدهور الأخلاقي للصليبيّين،

---

(١) لودولف سوخم (١٩٩٩، ج٣٧/ ص٣٠٦).

(٢) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٠٢).

(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الثاني/ ص٨٩٩).

(٤) جوانفيل: ولد جان دي جوانفيل فى نحو سنة (١٢٢٤م/ ٦٢١هـ)، ونشأ في بلاط تيبو الرابع كونت شامبانيا، وقد التقى بلويس التاسع ملك فرنسا سنة (١٢٤١م/ ٦٣٩هـ)، بعد أن صار فارسًا، ورافق الملك لويس التاسع في حملته على مصر والشام سنة (١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ). ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص٢٣٥).

وأخذ كلّ منهما يقُصّ على زميله ما يعرفه في هذا الشأن، واختتمَ القاصدُ الرسولي كلمتَه بقوله: «لا يعلم أحدٌ مثلي المعاصي والآثام التي يرتكبها الفرنجُ في عكا، ولذلك فإنّ المولى سوف ينتقمُ منهم حتى يغسلَ المدينة بدمائهم، وحينئذ سوف يأتي شعبٌ آخر للإقامة فيها»، ولم تكنْ هذه العبارة إلّا نبوءة صادقة حقّقتها الأيام باستيلاءِ العرب أيام الأشرف خليل على مدينة عكا سنة (١٢٩١م/ ٦٩١هـ)[١].

٢ - أورشليم القدس:

إنّ أورشليم القدس في الاعتقاد المسيحي هي مدينة السلام، ومركزُ الحج، والمكانُ الذي يلتقي فيه الله شعبَه، والمكانُ المميّز للممارسة الدينية[٢]. على الرغم من هذه المكانة العالية للمدينة المقدسة، إلّا أنّها في عصر السيطرة الصليبيّة عليها تحوّلت إلى ماخورٍ كبير من مواخير الدّعارة في بلاد الشام، وأتتْ بعد مدينة عكا من حيث انتشار الدّعارة فيها على نطاقٍ واسع.

أصبحتِ القدس ملوثةً بالموبقات؛ لأنّ المدينة كانت مليئة بمواخيرَ خاصّة، أُديرت ومُلكت من قِبَل أشخاص من كلّ أُمّة تحت قُبّة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص مطرودين من بلادهم بسبب الجرائم التي اقْترفوها، وقد عاشوا كمنفيّين في القدس، وتولّوا إدارة وتشغيل مواخيرَ دون الاهتمام بأي شيء سوى الربح، فكانت المدينةُ المقدسة مليئةً بمواخير سيئةِ السّمعة، إليها أخذ الحجّاج أنفسهم للشهوة الجسدية والشرب والقمار[٣].

(١) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٨، ص٩٢- ٩٣).
(٢) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٧٦).
(٣) فيلكس فابري (٢٠٠٠، ج٣٨/ ص١١٤٢).

كانت حرفةُ البغاء منتشرةً على نطاق واسع في مملكة بيت المقدس الصليبيّة، حتى إنّ كبرى العائلات كانت تدفعُ ببناتها إلى ممارسة هذه الحرفة البذيئة. (1) فكان الأشخاصُ الذين أداروا مواخيرَ في مدينة القدس قبل سقوطها في يدِ المسلمين مطرودين من بلادهم بسبب الدّيون التي لم يكنْ بإمكانهم دفعُها، فنقل بعضهم بيوتَهم وما يملكون في الغرب إلى الشرق سعيًا وراء الربح، وهكذا صارت المدينةُ المقدسة وكرًا لمقترفي الآثام، وكانت مليئةً بمواخير سيئة السمعة(2).

يقول المؤرخ المجهول عن الدّعارة والفسق في مدينة القدس الشريف قبل سقوطِها في يدِ صلاح الدّين الأيوبي:(3) «أمّا القُسسُ والرهبان فقد خرجوا جميعًا حُفاةً، ووصلوا إلى تحت الأسوار في موكبٍ حاملينَ أمامهم الصليبَ الطاهر، إلّا أنّ سيدنا– يقصد السيد المسيح عليه السلام– لم يتنازلْ فيستمعُ إلى صلواتهم وابتهالاتهم، ولا إلى صُراخهم الذي ملأ أرجاءَ المدينة، وتردّد صداه في كلّ ناحية منها، ذلك لأنّ ما ارْتُكب من أعمال الزنا ومن الخطايا التي اقترفها الناس، حالَ دون أن تبلغ إلى الربّ أصواتُهم، فغضب عليهم غضبًا حملَه على أن يُطهّر المدينة، فطهّرها منهم حتى لم يبقَ بها سوى كهليْن كانا في الرّمق الأخير من حياتهما».

هذا، ولم تتوقّف مدن وبيوت الدّعارة على مدينتي عكا وأورشليم القدس في عصر السيطرة الصليبيّة عليهما، بل كانت هناك مدنٌ وأماكن أخرى، مثل مدينة (مسينة

---

(1) Zoe OldenBourg (1967, P.519).

علي السيد (١٩٨٠، ص١١٩). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٣١).

(٢) فيلكس فابري (٢٠٠٠، ج٣٨/ ص١١٤٢).

(٣) مجهول (٢٠٠٢، ص١١٣).

Messina) في شبه جزيرة صقلية، والتي يقول عنها الرّحالة ابن جبير أثناءَ زيارته لها:[1] «هذه المدينة مقصدُ جواري البحر- السّفن- من جميع الأقطار، وتكادُ تضيق ذرعًا بسكانها، مملوءة نتنًا ورجسًا».

لم يتوقّف الأمر عند ممارسة الصليبيّين للدّعارة في المدن، بل في أوقات وأماكن لا يمكن أن يفكّر فيها أي عاقل فعلَ ذلك الأمرِ المُشين، مثل أوقات الحرب والحصار للمدن. يقول فوشيه الشارتري (Fulcher of Chartres) عن الصعاب التي واجهت الصليبيّين أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية: «بعد أن عقد الفرنجةُ المشاوراتِ فيما بينهم، طردوا النّساء سواء كُنّ متزوجات أمْ لا من المعسكر، اعتقادًا بأنّ قذارتهن في عبثِ الحياة الصّاخبة قد أغضبتِ الله، وبحثتْ هؤلاء النّسوة عن ملجأ لأنفسهنّ في القرى المجاورة».[2] لكنْ على الرغم من إصرارِ الأسقف أدهيمار دي مونتيل على تطهيرِ الجيش الصليبي من كلّ عاهرة أمام أسوارِ أنطاكيا، وتعْيين قضاة لمراقبة هذه الآثام، وإنزال العقاب بهم، لكنْ ما لبثوا أنْ وجدوا بعدَ قليلٍ جماعةً شجبتْ هذه القوانين[3].

وتطوّر الأمر في شأنِ الدّعارة في أوروبا على وجهِ الخصوص، أنْ صارت بعضُ الكنائس بمثابةِ بيوتٍ للدّعارة. فقد صدرتْ مذكّرة عن رئيس أساقفة كانتربري بأنّه لنْ تنال خليلاتُ الكهنة ورجال الدّين دفنًا كنسيًّا طالما عُشّاقهن يحتفظون بهنّ في بيوتهم ، أو بشكل مكشوف في مكان آخر، وأنّ جميع الكهنة الذين يسكنُ في أبرشياتهم خليلاتٌ من

(١) رحلة ابن جبير (١٩٨١، ص٢٦٦).

(٢) فوشيه الشارتري (١٩٩٠، ص٥٥).

Suzanne Helen Corry (1997, P.85).

(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٠١).

هذا النوع، سوف يجري تعليقهم، وسوف يخضعون إلى عقوبةٍ قاسية، وكذلك يتوجّب على كلّ امرأة ضبطت بوجود صلات جنسيّة مع أي كاهنٍ أن تقوم بتوبةٍ مهيبة ومُعلنَة كأنّها أُدينتْ بالزنا.(١) بل إنّ حرصَ بعض الصليبيّين الأوروبيّين في حبّ الدّعارة قد وصلَ إلى أبعدَ من ذلك، فيذكرُ أنّ الدّوق وليم التاسع دوق أكوتين، والذي باتَ يطارد النّساء علنًا، كان يتباهَى بأنه سوفَ يؤسّس ديرًا للعاهرات بالقربِ من قلعة نيورت (Niort) يستخدمُ في وقتِ الفراغ، وحدّد العديدَ من أسماء سيداتِ البلاط من المحظيّات السابقات، واحدة كرئيسة لهذا الدّير، وأخرى رئيسة للرّاهبات، وأعلن أنه سوف يملأ كلّ الوظائف الباقية بطريقة مماثلة(٢).

دورُ الكنيسة في الحدّ من الانحراف الجنسي

أمامَ هذا السّيل الجارف من الانحرافات الجنسيّة التي عمّت كلّ طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبيّة، كان لا بدّ للكنيسة الغربيّة أن تقوم بدور مهمّ للحدّ من هذا الانحطاط الأخلاقي الذي وصلَ إليه أبناء الغرب الأوروبي سواء في أوروبا ذاتها، أو في المدن الصليبيّة في بلاد الشام. وقد اتّخذت الكنيسة عدةَ إجراءاتٍ للحدّ من ذلك الانحراف متسلّحة في ذلك بسلطتها الدينية على طبقات المجتمع المختلفة، وتمثّلت أهمّ هذه الإجراءات في الآتي:

١ - عقدُ المجامع الدّينية

المَجمع عبارةٌ عن مجلسٍ يُدعى إليه جميعُ الأساقفة، ويرأسه أسقف- بابا- روما بنفسِه أو على يدِ مفوّضين للبحثِ في القضايا الكبرى، أو للقيام ببعض الأعمال ذاتِ

(١) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الثاني/ ص٨١٤).
(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٦).

الطابَع الرسمي الخاص.[1] منذ سنة ١٠٥٤م، أصبحت المجامعُ الدينيّة التي تُعقدُ في الغرب الأوروبي لا تختصّ إلّا بشئون الكنيسة الغربية[2].

نظرًا لمكانة البابا أوربان الثاني، فقد كان شديدَ اللّهفة لمعرفة السّبيل الذي يسلكُه للقضاءِ على الرّذائل والخطايا الفاحشة التي كانت للأسف تزدادُ بشاعةً حتى تكادُ أنْ تبتلعَ الدنيا بأجْمعها، لذلك عزمَ على الدّعوة لمجمع عامّ أولًا في (فيزيليبه) ثمّ في (بوي) ثمّ اجتمعَ في كليرمونت.[3] فعقدَ البابا أوربان الثاني في مارس (١٠٩٥م/ ٤٨٨ه) مجمعًا دينيًّا كبيرًا في مدينة (بياكنزا) في شمال روما، ودارت في هذا المجمع مناقشةٌ حول ما ارْتكبَه (فيليب) ملكُ فرنسا من جريمة الزنا، غير أنّه تقرّر ألّا يتّخذ إجراء إلّا بعد أن يزور البابا أوربان الثاني فرنسا.[4]

وفي مَجْمع كليرمونت سنة (١٠٩٥م/ ٤٨٨ه) جدّد البابا أوربان الثاني الحرمانَ الكنسي لفيليب ملك فرنسا؛ لأنّه تزوّج زوجة رجلٍ آخر، هي زوجة (فولك) كونت أوف أنجو، مع أنّ الكونت وزوجتَه السالفة كانا معًا أحياء.[5] لكنْ بينما كان أوربان الثاني في (نيم) تلقّى رسالةً من الملك فيليب، يعلنُ فيها إذعانَه المطلق لما تقرّر بشأن جريمة الزنا التي ارْتكبها، وأشار إلى انْضمام أخيه (هيو فرماندوا) إلى الحملة الصليبيّة.[6] وهكذا أتتْ جهودُ البابا أوربان الثاني ثمارها في إجبار ملكِ فرنسا في الإذْعان لتعاليم الكنيسة.

---

(١) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٤٣٦- ٤٣٨).
(٢) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١١).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٩٨).
(٤) رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص١٦٦).
(٥) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١١).
(٦) رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص١٧٧).

وبذلَ البابا أوربان الثاني جهودًا أخرى في الحدّ من اشْتراك النّساء في الحملة الصليبيّة الأولى على أساس أنهنّ بمثابة خميرة الانحراف الجنسي في كلّ مكان. يقولُ البابا أوربان الثاني في خطابه في مَجْمع كليرمونت: «لا ينبغي للنّسوة أن يذهبنَ إطلاقًا دون موافقةِ أزواجهنّ أو أخواتهنّ أو بإذنٍ رسمي، فإنّ مثل أولئك الناس سيكونون عقبةً أكثرَ منهم عونًا، وعبئًا أكثرَ منهم فائدة».(١) وفي خطابِ البابا أوربان الثاني إلى أتْباعه في (بولونيا) بتاريخ ١٩ سبتمبر (١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ)، أي بعدَ حوالي عشرة شهور من مَجْمع كليرمونت. يقول: «يجبُ أنْ تراعوا أنّ الشباب المتزوّجين لا يجبُ أن يندفعوا في رحلةٍ طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم»، ويتكرّر هذا الموقفُ في خطابِ أوربان الثاني إلى جماعة المتديّنين في (فالومبروسا) بتاريخ ٧ أكتوبر سنة (١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ)(٢).

وفي سنة (١١٢٠م/ ٥١٤هـ)، عُقد في مدينة نابلس الشامية مَجمعًا دينيًّا آخر، جرى فيه قمعُ العلاقات الجنسيّة خارج الزواج بشدّة، فمن بين العقوبات المُمكنة في حالةٍ كهذه، إخْصاء الرجلِ وجدعُ أنفه واختزالُه إلى عبد.(٣) وبالنسبة لجريمة اللّواط، فقد أدرك عقلاءُ الصليبيّين خطورةَ تفشّي تلك الفاحشة، فخُصّصت أربعُ مواد من قرارات مَجْمع نابلس لمقاومتها(٤).

وفي سنة (١١٣٩م/ ٥٣٤هـ)، عُقد في روما مَجْمعًا أيضًا، اتّخذت البابوية فيه خطوةً أخيرة بالنسبة لزواج رجال الدّين، حيث قرّرت أنه لا يجوز لأحدٍ من رجال الكنيسة أن

---

(١) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠، ص٨٠).
(٢) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩، ص١٢٦).
(٣) ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص٦٧).
(٤) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٥).

يعاشرَ امرأة، وأنّ زواج أي واحدٍ منهم يعتبر غيرَ شرعي، وبناءً على ذلك تُصبح ذُرّية رجال الكنيسة أبناءَ سفاح[١].

توالتِ المَجامعُ الدينية بعد ذلك للحدّ من الانحراف الجنسي خاصّةً بين رجال الدّين، فبعد أن اعْتلى البابا (أنوسنت الثالث) العرش البابوي سنة (١١٩٨م/ ٥٩٥هـ)، عقد مَجْمع (اللاتيران الرابع) في روما سنة (١٢١٥م/ ٦١٢هـ)، واتّخذ عدة قرارات للإصلاح الكنسي منها: المراسيم التي أدانتِ السّكر وإدمان الخمر بين رجال الكنيسة، وشجبتِ احتفالاتِهم، وخروجهم للصيد بالصقور، وحفلات الرقص، وحياتهم مع المحظيّات[٢].

٢ - قراراتُ وعِظاتُ رجال الدّين

من الطرق التي اتّخذتها الكنيسة للحدّ من الانحراف الجنسي في أوساط المجتمع الصليبي، قراراتُ وعظات رجال الدّين لطبقات المجتمع المختلفة وحثّهم على الالتزام بالفضيلة، والعملِ على الحدّ من اختلاط الرّجال بالنساء كأحدِ الأسباب المباشرة لهذا الانحراف.

إنّ قوانين وشرائع الحج- الحملات الصليبيّة- كانت تقضي بالامْتناع عن ممارسة العملية الجنسيّة،[٣] فيؤكّد رئيس الأساقفة «بالدريك» (Paldric) قيام الصليبيّين خلال حصار نيقية (Nicaea) بإغلاق دور الدّعارة في معسكرهم. ويضيف قائلًا: "إنّه على الرغم من مصاحبة بعض الصليبيّين للنساء خلال الحصار، إلّا أنهنّ كنّ إمّا زوجاتهم

(١) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١٨).
(٢) موريس كين (٢٠٠٧، ص١٣٢).
(٣) جوناثان سميث (١٩٩٩، ص١٦٤).

أو مجرد خادماتٍ لهم".[١] وعندما وصل الجيش إلى أنطاكية (Antioch) عادت المواخير للنشاط من جديد داخل المعسكرات نفسها[٢].

وأمام المجاعة القاسية التي تعرّض لها الصليبيّون أمام أسوار مدينة أنطاكيا في الحملة الصليبيّة الأولى سنة (١٠٩٧م/ ٤٩١ه)، فإنّ الرّجال الأكثر حكمة، اتّفقوا على أنّ ذنوبهم كانت السببَ في معاناتهم، فأمروا بإبعاد جميع المشرّدات من الإناث من الجيش، مع عدمِ التّسامح مع السّكر والعربدة.[٣] إذْ قام (أدهيمار دي مونتيل أسقف لي بوي) وسواه من كبار رجال الدّين وأجمعوا الرأي على تطهير المعسكر من كلّ عاهرة وامرأةٍ كريهةِ السّمعة، وجعلوا الإعدامَ عقوبة للفحشاء والفجور بشتّى أنواعه، وصدر قرارُ الحرمان على المُجّان والسّكيرين، وتقرّرت هذه القواعد ووافقوا عليها بالإجماع، وعيّنوا قضاةً وكَلوا إليهم مراقبةَ هذه الآثام، ومنَحوهم كلّ السلطة في الكشف عن أصحابها وإنزال العقابِ بهم.[٤]

وتمّ ملاحقةُ العاهرات داخل المعسكرات الصليبيّة، وقُطعت رؤوسهنّ، فكانت أصواتُ الصراخ تعلو داخلَ المعسكرات الصليبيّة من أجل ذلك. ليسَ هذا فقط، بل أصدر (أدهيمار دي مونتيل) قرارًا بطرد كلّ النساء من معسكر الرّجال سواء المتزوّجات أو غير المتزوّجات، اعتقادًا بأنّ قذارتهنّ في عبث الحياة الصاخبة، قد أغضبَ الله، وبحثتْ هؤلاء النسوة على ملجأ لأنفسهنّ في القرى المجاورة.[٥] وكان كلّ ذلك من أجل العودة

(1) See: Suzanne Helen Corry (1997 ، P.79 ، P.80).

(٢) حسن عبد الوهاب (١٩٩٧، ص١٧٣).

(٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٤٤).

(٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٠٠ – ٣٠١).

(٥) فوشيه الشارتري (١٩٩٠، ص٥٥).

إلى الربّ وغسلِ الذّنوب والتخلّص من الأدران التي علقت بهم. وقد أمسكَ برجلٍ وامرأة في حالة الزنا، فجُلبا عاريَيْن إلى أمام الجيش وأيديهما مربوطة إلى ظهورهما، وضُربا بالعصيّ، حتى أصبح الدمُ يسيل منهما، ثمّ ساروا بهما في كلّ المُعسكر، لكي يرى الآخرون الفظاعةَ التي حلّت بهما، وليتّعظوا ويخافوا.[١]

في محاولة لتحاشي المجون والاستهتار في الحملة الصليبيّة الثالثة؛ لم يكنْ مَسموحًا للنساء بمرافقة الحملة الصليبيّة، باستثناء الغسّالات ذوات السّمعة الطيّبة.[٢]فعندما أرادَ ريتشارد قلب الأسد أن يغادر مدينة عكا وانتشرت الدّعارة بين جنوده، تشاور العقلاءُ فيما يجري، فاتّفقوا على أنّ استئصال شأفة هذه الفضائح المهينة إنّما يكون بألّا تصحبَ أيةُ امرأة الجيشَ حين خروجه إلّا مَنْ يقمنَ بغسل الملابس، فإنهنّ يخرجنَ ولكنْ سيرًا على الأقدام، حتى لا يكون هناك عبءٌ على الجيش، ولا مدعاة لارتكاب الخطيئة.[٣] وفي البندقية سنة (١٢٠٢م/ ٥٩٩هـ)، قبل خروج الحملة الصليبيّة الرابعة، كان من الواجب استبعادُ النساء من الحملة أيضًا[٤].

وكان رجال الدّين يعملون على بناءِ بعض الأديرة الخاصّة بالراهبات والنساء غير الراهبات؛ للحدّ من عدم الاختلاط بين الجنسين، وما يمكن أن يترتّب على ذلك من مفاسدَ جنسيّة. يقول يعقوب الفيتري عن مستشفى ودير القديس (يوحنا) في القدْس الشريف:[٥] «مع اعتقاد الكهنة بأنّه من غير اللائق إسكانُ النساء من الحجاج داخل

---

(١) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ج٥١/ ص٦٨).
(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١١٠).
(٣) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص٥٨).
(٤) ميشيل بالار (٢٠٠٣، ص٣٥٨).
(٥) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص٨٧).

الدير، قام هؤلاء بمرور الزّمن ببناء دير آخر خارج أسوار الكنيسة كمقرٍّ للرّاهبات؛ حيث تقومُ بعض النّساء المتديّنات بخدمة النساء من الحجاج اللاتين، والترفيه عنهم في ذلك المكان».

وكانت قراراتُ رجال الدّين من العوامل الهامّة في تقليل حالاتِ الانحراف الجنسي في الطبقة الحاكمة فضلًا عن طبقة العامّة، وذلك بتهديدهم بقرارات الحِرمان من الكنيسة. فقد وجّه البطريرك (أرنولف) بطرك بيت المقدس إنذارًا إلى الملك (بلدوين) أن يطلّق زوجته (أدليدا Adelaida) لأنّه زواج ممنوعٌ غيرُ شرعي، وضدّ رغبة زوجته الأولى الأرمينية الأصل، وأنّه مُذنب ويجبُ عليه التّكفير عن ذنبِه بطلاق أدليدا، ورضخَ الملكُ للأمر. وفي كنيسة (الصليب المقدس) في مدينة عكا جرى طلاقُ الملك من زوجته بضغطٍ من البطريرك أرنولف[(١)].

٣ - قراراتُ وقوانينُ الهيئات الدينيّة العسكريّة

ومِن القرارات الدينيّة التي ساعدت على التّقليل من الانحراف الجنسي في صفوف الصليبيّين؛ قراراتُ وقوانين الهيئات الدينيّة العسكرية. فقد منعَ قانونُ جماعة الداوية الفرسان[(٢)] معاشرةَ النساء منعًا باتًّا، بحجّة أنّ الشيطان هو أقدم أصدقاء النّساء، كما حُرّم على الفارس تقبيلُ أُمّه أو أُخته أو أيّ من قريباته، كما حرّم قانون جماعة التيوتون معاشرةَ النساء أو حتى إظهار المحبّة لأمّه أو أخته أو إحدى قريباته[(٣)].

---

(١) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ج٥١/ ص٣١٢).

(٢) هيئة الفرسان الداوية: هي هيئة دينية حربية تأسست في (١١١٨م/ ٥١١هـ) على يد فارس يسمى هيو باينز (Hugh de pyns)، واعترف بهم الملك بلدوين الثاني في العام نفسه، ومنحهم جناحًا من القصر الملكي ليكون مقرًّا لهم، وكان زيّهم أردية بيضاء عليها صليب أحمر. راجع: عادل عبد الحافظ (١٩٨٩، ص٢٠٦). صفاء عثمان (٢٠٠٥، ص١٥١ - ١٥٣).

(٣) نبيلة مقامي (١٩٩٤، ص١٥٨).

أمّا (Raymond du Puy) ريموند دي بوي (١٠٨٣ -١١٦٠م)،[١] فقد أعدّ مجموعةً من القوانين من أجلِ الحفاظ على نظام جماعة الإسبتارية بوجهٍ خاصّ، ففرض عقوبات على مرتكبي الجرائم من أفراد جماعة، وعندما تولّى ريموند منصبَ مقدّم فرقة الإسبتارية، عقد اجتماعًا موسّعًا حضره كبارُ رجال الفرقة، وقرأ عليهم القوانينَ التي وضعها من أجل حماية الفرقة، حيث لم يكنْ لفرقة الإسبتارية أيّة قوانين تحكُمهم حتى تولّى ريموند، وهي قوانينُ تعلّقت بأمور العفّة والطّاعة.[٢]

وجاء في نظام قانون (ريموند دوبري) قائد جماعة الإسبتارية، إذا حدث واقترفَ أحدٌ من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقترف الزنا، فإذا أذنبَ بشكلٍ سرّي عليه أن يفرضَ على نفسه توبةً مناسبة، وإذا ما باتَ هذا معروفًا، عليه بالتعرّي أمام الجميع ويُجلد من قِبَل رئيسه الدّيني، هذا إذا كان راهبًا دينيًّا، أمّا إن كان راهبًا مدنيًّا، فينبغي جلدُه بشدّة متناهية بواسطة أسواطٍ أو عصًي من قِبَل رجال الدّين.[٣] «وإذا حدث بعد أن يتمّ تطبيق تلك العقوبة عليه، وهداه الله وأراد التّوبة، والعودة مرة أخرى إلى جماعته؛ فإنّ على الجماعة أن تقبلَه مرة أخرى كعضوٍ ضمنَ بقية الأعضاء. وتقوم الجماعةُ في تلك الحالة بفرض عقوبةٍ عليه مناسبة لحجْم الجريمة، ويعاملُه أعضاء المجموعة بمثابَةِ عضوٍ غريب عنهم، وذلك لمدّة عام كامل، ويتمّ وضعه تحت المراقبة من قبَل رجال الدّين الآخرين، حيث يتمّ تقديم تقريرٍ وافٍ عن سلوكه وتصرّفاته خلال تلك الفترة، ثمّ بعد ذلك يتمّ التّشاور فيما بينهم بخصوص ذلك المذنب، ومدى منفعتِه للجماعة»[٤].

---

(1) See: Nicole Bériou (2009 ، P.763).

(٢) نبيلة مقامي (١٩٩٤، ص١٤١).

(٣) أ. ج. كينغ (١٩٩٨، ج٣٣/ ص٢٨٥ - ٢٨٦).

(٤) ريموند دوبري (١٩٩٨، ج٣٣/ ص٢٨٣ - ٢٨٤).

ويلاحظُ من خلال ذلك القانونِ عدمُ المساواة في تطبيق العقوبة بين أفراد الجماعة، بل اختلفتِ العقوبة حسبَ مكانة كلّ واحد، والطبقة الاجتماعية التي قدِم منها، ممّا يدلّ عدم النزاهة في تطبيق القوانين بين أفراد الهيئة الواحدة، ممّا كان يؤدي بالضرورة إلى زيادة معدّل الجريمة بين أفراد الهيئة من ناحية، وزيادة وانتشار الفساد بين أفراد الهيئة من جهةٍ أخرى، ومن ناحية ثالثة أصبحت الجماعةُ قدوةً لأفراد المجتمع الصليبي في التعصّب ورفضِ الآخر[1].

وقد وضعَ ريموند دي بوي قانونًا آخر في حالة «إذا قام أحدُ الرهبان باتّهام زميلٍ له بتهمةِ الزنا دونَ دليل واضحٍ على ذلك، ففي تلك الحالة يتمّ تطبيق عقوبة الزاني عليه، والتي كان من المُفترض أن يتمّ تطبيقُها على زميله المذْنب»[2]. وعلى الرّغم من ذلك؛ تمّ تطبيق عقوبة أخرى على الفارس الذي يتمّ ضبطه مُتهمًا بممارسة الزنا، فإنه كان يختارُ بين أنْ تأخذ المرأة العاهرة بمقودِه في المعسكر وهو في قميصِه، وتقوم بشدّه بحبلٍ تجريحًا له، وبين أنْ يتخلّى عن حصانه وسلاحِه ويطردَ من الجيش، أو أنْ يتمّ تجريد الاثنين من ملابسهما ويُجْبران على المشي أمامَ الجيش وهُما مقيّدا اليدين خلف ظهريْهما، ويقوم جلّادان بجلدهما بالعصي بشدّة، وكان الهدف من ذلك هو تخويفَ الآخرين[3].

أمّا عقوبة الزنا عند هيئة فرسان التيتون، فكانت بالتّوبة لمدة عام كامل، هذا إذا كانت جريمتُه فعلَها بشكل سرّي، أمّا إذا تمّ كشفها أمام العلَنِ وكانت فعلتُه فاضحةً،

---

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٥).

(٢) ريموند دوبري (١٩٩٨، ج٣٣/ ص٢٨٩).

(٣) جان دي جوانفيل (١٩٦٨، ص٢٢٤). جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩، ص١٦٤). محمود الحويري (١٩٧٩، ص٧٨). حسن عبد الوهاب (٢٠٠٠، ص١١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٥).

يطلق على بيتِه أسوأ الأسماء، ويقوم بالخدمة مع العبيد، ويخدم بدون ارتداءِ الصليب، ويأكلُ مع الأجَراء جالسًا على الأرض، ويصومُ ثلاثة أيام من كلّ أسبوع على الخبز والماء.[1] وبذلك تكون العقوباتُ التي عرفت عند هيئات الفرسان مقسّمة حسبَ نوعِ المخالفة التي يرتكبُها العضو، وذلك لوجودِ عقوبات ثانوية وعقوباتٍ بسيطة وأخرى جسيمة، فالمخالفاتُ الثانوية كانت تتراوحُ ما بين سبعة أيام وأربعين يومًا[٢].

ومن الملاحَظ التفريقُ في تطبيق عقوبة الزنا، فلم يكنْ هناك مساواة في تطبيقِ العقوبة بين كافّة الرّعية، سواء أكان رجلًا من العامة أو من عناصر الهيئات الدينيّة، وكان ذلك العامل أحدَ أهمّ أسباب الانْهيار الداخلي للمجتمع الصليبي في بلاد الشام. وبصفةٍ عامّة، فإنّ وجود قوانين تعاقب حالاتِ الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبية؛ يؤكّد بما لا يدعُ مجالًا للشكّ على أنّ الفساد تطرّق إلى تلك المؤسسات التي صوّرتها المصادر التاريخية الصليبيّة الباكرة على أنها عناصر من الأتقياء والأطهار ، وجند المسيح[٣].

وتجدرُ الإشارة أخيرًا إلى أنّ الكنيسة لجأت أحيانًا إلى رسمِ بعض الصور التخويفيّة التي تهدف إلى تهديدِ أصحاب الرّذائل باللّعنة الأبدية، ما لَم يَمْتنعوا عن الانْحراف الجنسي. ففي لوحة «عواقب الخطيئة» صُور في الجانب الشمالي منها ملاكٌ يحبسُ المذْنبين، بما فيهم الملوكُ والقساوسة في الجحيم، وعُري الملعونين مؤشرٌ على أنّ السلوك الجنسي الذي كانت الكنيسة تحاول الحدّ منه، كان يُنظر إليه باعتباره أحدَ الطرق الرئيسة للخطيئة،

---

(1) Indrikis Sterns (1982 ، Speculum 57, P.91).

(٢) علي السيد (١٩٨٠، ص١٥٦ – ١٥٧).

(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٦).

وعن طريق التناقض- في الوجه الآخر من الصورة-، كان هناك اعتقادٌ بأنّ السماء بعدَ يوم الحساب ستكون ممتلئةً بأُناس ممَّنْ تحرّروا من الشرور الجنسيّة[1].

دورُ الدولةِ والمجتمع في الحدّ من الانحراف الجنسي

إلى جانب الدورِ الكبير الذي قامت فيه الكنيسةُ بجميع مؤسساتها في الحدّ من الانحراف الجنسي في طبقات المجتمع الصليبي المختلفة؛ كانَ للدولة ممثّلة في الملوكِ والأمراء وقادةِ الجيوش، وكذلك بعض عناصر المجتمع؛ دورٌ كبير أيضًا في العملِ على الحدّ من هذا الانحراف الذي كادَ أنْ يُحطّم الحركة الصليبيّة من الأساس.

ظهر دورُ الدولة جليًّا في الحدّ من الانحراف الجنسي في صفوف الصليبيّين منذُ الحملة الصليبيّة الأولى. يقول ألبرت فون آخن عن جهودِ قادة الحملة في الحدّ من الانحراف الجنسي بين الصليبيّين أثناء حصارهم لأنطاكية: «فكّر قادة الجيش والأمراء والأسقف والرهبان في اتّخاذ قرارات حاسمة للحفاظ على الحجاج تمنع غشّ الصليبي لأخيه، وأنْ لا أحدٌ يسرق، ولا أحدٌ يزني، ومَنْ يُضبط يعاقب بعقوباتٍ صارمة وشديدة، وكان كلّ ذلك من أجلِ العودة إلى الربّ، وغسلِ الذنوب والتخلّص من الأدران التي علقَتْ بهم»[2].

ومع بدايةِ عهد الصليبيّين في بلاد الشام واحتلالِهم للمدن الشامية، لم يكن هناك قانونٌ محدّد لتطبيقه على الجرائم التي تقعُ من قِبَل الجنود، وعندما انتشرت جريمةُ الزّنا والدّعارة بين الجنود، وخرجت الأمورُ عن سيطرةِ رجال الدّين والقادة، قرّروا تطبيقَ عقوبة الإعدام على كلّ زانٍ وزانية يتمّ القبضُ عليهم متلبّسين بجريمتهم. وعيّنوا قضاةً

---

(١) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص٦٢).

(٢) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ج٥١/ ص٦٧- ٦٨).

من بينهم من أجلِ تحقيق تلك العقوبة على المذنِبين، ومنحَهم السلطةَ الكاملة في الكشف عن أصحاب تلك الجريمة. وظهرَ رأي معارضٌ لتلك العقوبة بين الصليبيّين، غير أنّ تلك الفئة المعارضة تمّ إدانتها بارْتكابها عددًا من جرائم الزنا والدّعارة، وتمّ تطبيق العقوبة عليهم، فلم يكن يُلتمَس أي عذر لأي حالةِ تلبّس(١).

وبعد أن تمّ تأسيسُ الإمارات الصليبيّة في الشرق العربي، وضعت بعضُ القوانين التي من شأنها الحدّ من الانحراف الجنسي بين الصليبيّين في هذه الإمارات. فقد وردَ في قوانين بيتِ المقدس(٢) ما نصّه: «إذا ما ثبتَ على أحدِ الصليبيّين مضاجعتُه لمسلمة يُخصَى، أمّا هي فيُجدع أنفُها»،(٣) وقد تمّ سنّ هذا القانون من أجل منْع الاجتماع الجنسي بين كلّ مِن الصليبيّين والمسلمين، وكان ذلك من أجل الاضْطهاد،(٤) وعلى الرغم من قسوة هذا القانون، إلّا أنّه لم ينفذ، إذْ كان الجاني يطلبُ أن يُستعاضَ عن ذلك بحكمٍ آخر، أو يلجأ إلى التّوبة فتسقط عنه العقوبة(٥).

وينمّ هذا القانون عن وجودِ حالاتٍ للاتصال الجنسي بين الصليبيّين وبعض المُسلمات، فأرادوا منعَ تلك الحالات بمثلِ تلك العقوبات، غير أنّ المصادر لم تفصحْ

---

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٨٩).

(٢) قوانين مملكة بيت المقدس: اسم أطلق على مجموعة من النصوص القانونية، كانت قد أعدت في اجتماعات قادة الحروب الصليبيّة في القدس، وقد صيغت صياغة مشبعة بروح الأعراف والقوانين الإقطاعية. أحمد الشيخ (١٩٩٥، مقدمة المترجم/ ص١٩).

(3) J. D. Mansi (1961, Vol. 21, P.264).

هانس ماير (١٩٩٠، ص١٢١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٠).

(4) Christopher Tyerman (2006, P.116).

(٥) هانس ماير (١٩٩٠، ص١٢١).

عن حالاتٍ من مثل ذلك النوع، وعلى الرغم من عدمِ ذكرها، فإنّ ذلك لم يمنعْ وجودَها نظرًا لنصوص القوانين الصريحة الدّالة على حدوث ذلك، والجدير بالذّكر أنّ ذلك الاتصال الجنسي لم يكنْ بإرادة المُسلمات، لكن ربّما مرجعُ ذلك أنّ بعضَهن كنّ أسيرات لدى الصليبيّين، وطبّق الصليبيّون تلك العقوبة خوفًا من أن تنجبَ المسلمات أطفالًا ثمّ يحوّلنهم إلى الإسلام دون علمِ آبائهم[١].

ومن الجرائم التي كان يُعاقَب عليها بالموت، القتلُ والاغتصاب،[٢] وقد نصّت قوانين بيت المقدس في حالة «إذا قام أحدُ الصليبيّين باغتصابِ جاريته المسلمة رغمًا عنها؛ فتصادر تلك الجاريةُ منه، ويكون هذا المغتصبُ أمام القانون غيرَ شرعي».[٣] وقد دلّ ذلك على مدى الظّلم الذي تعرّضت له المسلمات من قِبَل القوانين الصليبيّة، والمهانةِ التي كنّ يتعرضنَ لها، وقد ذكر لنا أسامة بن منقذ قصةَ فتاة شاميّة معبّرة عن التاريخ النسوي في ذلك العصر، وهي رفول بنت أبي الجيش، التي أسرها أحدُ الصليبيّين، حيث ذكرَ ما نصّه: «كان في جند الجسر رجلٌ كردي يقال له أبو الجيش، وله بنتٌ اسمها رفول قد سباها الإفرنج، وقد توسوس عليها، يقول لكلّ مَنْ لقيه يومًا: سُبيت رفول، فخرجنا من الغدِ نسير على النّهر فرأينا في جانب الماء سوادًا، فقلْنا لبعض الغلمان: اسبحْ أبصر ما هذا السواد، فمضى إليه، فإذا ذاك السواد رفول عليها ثوبٌ أزرق، وقد رمتْ نفسَها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها فغرقت وعلقَ ثوبُها في شجرة الصّفاف، فسكنت لوعةُ أبي الجيش».[٤]

---

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٢).

(٢) يوشع براور (١٩٨١، ص١٦١).

(3) J. D. Mansi (1961, Vol. 21, P.264).

(٤) أسامة بن منقذ (١٩٨٧، ص١٦٨).

من المُمكن الافتراضُ أنّ رفول بنت أبي الجيش عندما تعرّضت للاختطاف من جانب الفارس الصليبي كانت فتاةً بالغة ولم تكنْ صبيّة صغيرة، إذ أنّ نضجَها كان مغريًا له لخطفها، بل وفي مقدورنا الافتراضُ أيضًا أنها كانت رشيقة وأبعدَ ما تكونُ عن البدانة، إذْ أنّها قاومت الفارسَ الصليبي وتمكّنت من الفرار منه، وألقت بنفسِها في ذلك النهر، وهو أمرٌ ما كان يتأتّى لها ما لم تكنْ بالغةً ورشيقة، خاصةً أنها قاومت فارسًا محترفًا ومدرّبًا وقوي البنية كما هو مفترض منطقيًّا. والإشارة في نصّ أسامة بن منقذ إلى الثوب الأزرق الذي كانت ترتديه تلك الفتاة والذي غرقت به يدلّ على أنها كانت تمارس حياتَها بصورة عاديّة في أمر الزّراعة أو الرعي وخُطفت وهي تَرْتديه، وهو ما يدلّ على أنها كانت من عناصر العامّة الكادحة. الفتاةُ المذكورة ابنة رجلٍ من الأكراد، وقد عُرف عنهم قوةُ الشّكيمة والإباء والأَنَفة، وقد تربّت على العفّة، ولذلك فضّلت الموت غرقًا على الاغتصاب من جانب الفارس الصليبي الذي خطفَها. ومِن المنطقي تصوّر قصصٍ مأساوية وصلتْ إلى مسامعها من ذلك العصر عن خطفِ فتيات شاميّات واغتصابهنّ، ولم تشأ أن يكونَ لها المصير المأساوي نفسه الذي يلصقُ العار بأسْرتها إلى الأبد[١].

ونصّتْ قوانين بيت المقدس على أنّه «إذا قام أحدُ المسلمين بمعاشرة أحدِ نساء الصليبيّين بموافقتها؛ يتمّ معاقبتُهما بعقوبة الزنا، أمّا في حالة إذا قامَ باغتصابها بالإكراه فهي لا تتحمّل ذنبًا على ذلك الجُرم، ويتمّ إخصاء المسلم المتّهم بذلك».[٢] وقد اعتبر القانونُ تلكَ الجريمة من الأفعال الجائرة ، والتي كانت تحدثُ يوميًّا، وإن كان لم يتمّ تفعيله، نظرًا لأنّ الضحيّة كان يصعب عليها إقامة الحجّة والبيّنة على الجاني، لذلك كانت

(١) محمد مؤنس عوض (٢٠١٥، ع٣٦، ص٤ – ٦).

(2) J. D. Mansi (1961, Vol. 21, P.264).

هانس ماير (١٩٩٠، ص١٢١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٠).

تجدُ المحكمة صعوبةً في محاكمة الجاني.[١] وكانت ضحيتُه تعيش في معاناةٍ شديدة بسبب تلك الحادثة،[٢] ويظهر نصّ القانون أنّ المسلمين لم يكنْ ليتساوَوْا مع الصليبيّين في نظر قضاياهم[٣].

أمّا اللواط، فقد نصّت قوانين مملكة بيت المقدس الصليبيّة على أنّه «إذا ما ثبتَ على أحدهم تدَنُّسُه بدنَسِ اللّواط، فيُحرق الفاعلُ والمفعولُ به»[٤].

بما أنّ الدّعارة كانت من أوسع صور الانحراف الجنسي انتشارًا في المجتمع الأوروبي في أوروبا ذاتها أو بين الصليبيّين في بلاد الشام؛ فقد سُنّت بعض القوانين التي تهدفُ إلى الإنفاق على المطلقات والأرامل، كي لا تدفعهنّ صعوبة الحياة الماديّة إلى امتهان حرفة الدّعارة لسدّ نفقاتهم المالية. يقول مارينو سانوتو في إحدى نصائحه لبابا روما بالنسبة للنساء المشاركات في الحملات الصليبيّة:[٥] «أمّا النساء اللواتي يقمنَ في ذلك الوقت في الجيش والمرتبطات بعقد زواجٍ مع رجالهنّ، فإنهنّ يأخذنَ طعامهنّ مثل الرجال، والتي يحدث أن يموتَ رجلُها تُوضَع قانونًا في حالة الترَمّل، وتحفظ العفّة، وتبقى تستلم الطعام، ولا يجوز مطلقًا أن يُقطع عنها ذلك الطعامُ أو الزاد».

كانت المجموعة الكبيرة غير المتجانسة من الحجّاج- المتّجهين نحو الشرق- تضمّ بين صفوفها عددًا ضئيلًا من المُحتالين والدّاعرين والفاسدين أخلاقيًّا. وفي رحلةٍ طويلة تستغرق ما يقربُ من ستة أسابيع كان يمكنُ القضاء على الأخلاق الفاسدة لهؤلاء

(1) Bugnot (1843, P.549).

(2) Piers D. Mitchell (2004, P.128).

(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٣ – ١٩٤).

(4) J. D. Mansi (1961, Vol. 21 ، P.264).

(٥) مارينو سانوتو (١٩٩١، ص٢٠٨).

الحجّاج الفاسدين، فكانت مدينة مرسيليا تنشدُ القضاء على كلّ مظاهر الدّعارة والفساد الخُلقي في المدينة، فكانت تُحيلُ مهمّة القضاء على الفساد الخُلقي إلى المسئولين عن أحياءِ المدينة، وكان منَ السّهل على النساء الداعرات أنْ يظهرنَ في شكلٍ رائع جميلٍ مؤثّر إذا ما ارتدينَ ملابس فخمة غالية الثمن، الأمرُ الذي يجعل أيّ رجل طيب يظنّ أنّ هؤلاء النسوة من السيدات الفضليات. فأصدرت بلديةُ مرسيليا تعليماتٍ لقناصلها الموجودين على متْنِ سفن نقلَ الحجاج المتّجهة إلى الأراضي المقدسة من أجل منع نقلِ الحجاج الفاسدين أخلاقيًّا، ومنعهم بشكلٍ خاصّ من الإقامة في المنازل التابعة للكوميون ، أو في أحياء الكوميون المارسيلي الموجودة في الأراضي المقدسة في بلاد الشام وفلسطين، ولا نعرفُ إلى أيّ مدى كانت هذه التعليمات الصادرة من بلدية مرسيليا لقناصلها تُنفّذ وتطاع.(١) ولم ينسَ القانون البناتِ العذارى، فقد نصّ على أنه في حالة ما إذا زنتِ البنت العذراء وفقدتْ عذريّتها، أو أصبحت حاملًا أو أنجبت طفلًا غيرَ شرعي. فإنّ الفتاة تفقدُ حقّها في الحصول على الإقطاعية التي خلّفها لها أبوها إلى الأبد. ومن قوانين المحكمة التي نصّت على حرمان الفتاة من ميراثها، إذا قامت بأحدِ ثلاثة أشياء: (الخيانة ، والخزي الذي تلحقه بوالدها ووالدتها وكل أقاربها، التآمر والخطيئة، وإذا قامت بتلويثِ سُمعتها، وفقدت عذريّتها التي يجب أن تحافظ عليها من أجل زوجها). ونصّ القانون بأن تؤول الإقطاعية الخاصة بها إلى شقيقتها التي تليها، أمّا إذا كانت الثانية سيئةَ السمعة أيضًا، فيتمّ حرمانها هي الأخرى منها، لكنّ القانون لم يمنع بقيّة الشقيقات من الحصول على الإقطاعية بسبب خطأ إحدى الشقيقات، وهذا ما تنصّ عليه قوانين وأحكام مملكة بيت المقدس(٢).

---

(١) يوشع براور (٢٠٠١، ص٢٤٥).

(2) Bugnot (1843, P.629).

إذًا، كان لتلك الجريمة أثرٌ خطير من الناحية الاجتماعية، ممّا استلزم معه تغليظُ العقوبة إلى أقصى درجة مُمكنة، حتى تكون عبرةً لغيرها. والجديرُ بالذّكر ، أنّ قضية العذرية لم تكن بالشيء المهمّ لدى الصليبيّين، فقد كانوا يتباهون بالحبّ غيرِ الشرعي، أو ربّما أن ذلك الاهتمام بالعذرية كان نتيجةَ تأثر الصليبيّين بالقوانين الإسلامية التي شدّدت على ذلك الأمر، والتي على أساسها أيضًا صيغتْ الكثيرُ من القوانين الصليبيّة[١].

على الرغم من أنّ الكثيرين من القادة الصليبيّين لم يكونوا فوق مستوى الشبهات الجنسيّة، إلّا أنّ بعضهم قد اتّخذ عدة وسائل للحدّ من الانحراف الجنسي بين الطبقات الدّنيا والمتوسطة في المجتمع الصليبي. فقد استطاع الملك (بلدوين الأول) ملك مملكة بيت المقدس الصليبيّة أن يوفّق بين جميع الطوائف المسيحيّة الشرقية، على الرغم من اختلاف مذاهبهم، ولتحقيقِ هذا الترابط؛ شجّع بلدوين الأول التزاوجَ بين المسيحيّين الغربيّين والشرقيّين، وضرب هو مثلًا لذلك بزواجه من شرقيّة.[٢] ولا شكّ أن عمليات الزواج هذه قد أسهمت كثيرًا في القضاء على عمليات الانحراف الجنسي التي من المُمكن أن يقوم بها بعضُ عُزّاب جنود الحملات الصليبيّة.

من هذه الوسائل أيضًا عقدُ اتفاقيات لحماية النساء من التّحرشات الجنسيّة، من ذلك: أنّ قادة الفرنجة والبنادقة عقدوا اتفاقًا قبل غزوهم لمدينة القسطنطينية في الحملة الصليبيّة الرابعة كان من بنودِها: أنّهم تعهدوا بعدم استعمال العنف أو القسوة مع أيّة امرأة، وألّا تُجرّد من ثيابها، ومَنْ أُمسك وهو يفعل ذلك سيكون عقابه القتل.[٣] على

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٢ - ١٩٣).

(٢) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج١/ ص٣٣٨).

(٣) روبرت دي كلاري (١٩٩٥، ج١٠/ ص٢٦٤).

الرغم من أنّ هذه الاتفاقية كانت رادعة لكلّ مَنْ تسوّل له نفسه الاعتداء على النساء، إلّا أنها كانت حبرًا على ورق، فراهبات السيد المسيح أنفسهنّ لم يسلمنَ مِن الاغتصاب على يدِ جحافلِ الصليبيّين في الحملة الصليبيّة الرابعة.

غير أنّ كبرى المجهودات الصليبيّة التي قام بها القادة للحدّ من الانحرافات الجنسيّة في أوروبا أو في الإمارات الصليبيّة في الشرق العربي، تُنسبُ إلى الملك الفرنسي لويس التاسع. كان الملك لويس التاسع– المتديّن بطبعه– يتصدّق كلّ يوم بمبالغ كثيرةٍ وضخمة على رجالِ الدّين والفقراء والمُعْدمين من الرّجال والنساء، وعلى النّسوة الساقطات والأرامل.(١) ولعلّ إنفاق لويس التاسع للأموال الكثيرة على السّاقطات كان من باب حثّهن على الالتزام بالفضيلة، بتوفير الأموال التي كانت الدافع الرئيس لهنّ لامْتهان الدّعارة.

فقد شبّ الملك لويس التاسع وانطبعتْ في نفسه تعاليمُ المسيحية، ولا عجب أن يعلنَها ثورةً على الفسق والفساد الذي لمسَه في البلاد الصليبيّة، فسعى إلى تقويم ما اعوجّ من الأخلاق(٢).

بعد أنْ عاد الملك لويس التاسع من الأراضي المقدسة في الحملة الصليبيّة السابعة؛ سنّ قانونًا عامًّا نافذًا بين جميع رعاياه في كافة أرجاءِ مملكة فرنسا، كان منه: نريد من جميع مديري مقاطعاتنا ورؤسائها أن يكُفّوا عن لعب الميسر ومِن غشيان الحانات، ونأمرُهم بمنع صُنع زهْر القمار، وإخراج جميع الدّاعرات من كلّ بيت، وكلّ مَنْ يؤجّر بيتًا لداعرة

(١) جوانفيل (١٩٦٨، ص٣٠٧).
(٢) جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٤، ص٣٢٢).

يؤول بيتُه مدة عامٍ إلى مدير المقاطعة أو شريفها.[١] وأمرَ الملك لويس التاسع ملك فرنسا أيضًا بإنشاء بيتٍ خارج باريس على الطريق المؤدي إلى (سانت دنيس) عُرف ببيت (بنات الرب) أشار أن يكون مقرّ عددٍ كبير من النّسوة اللائي اضطرهنّ فقرُهُنّ للسقوط في خطيئة الرذيلة، وأجرى عليهن أربعمائة دينار سنويًّا. وأقام في كثيرٍ من نواحي مملكته بيوتًا للتائبات وأجرى عليهنّ المعاشات يتكفّفْن بها، وأمرَ أن يسمح بالإقامة فيه لمَنْ أرادتْ أن تحيا حياة الطّهر.[٢] ولا شكّ أن هذه الإجراءات من قِبَل الملك لويس التاسع ملك فرنسا كان لها أثرُها الكبير في القضاء على جانبٍ كبير الدّعارة المنتشرة في فرنسا آنذاك.

هذا، وإلى جانب دور سلطات الدولة في الحدّ من الانحرافات الجنسيّة في الإمارات الصليبيّة وفي البلدان الأوروبية ذاتها، كان للمجتمع أيضًا سلطتُه في الحدّ من هذه الانحرافات أيضًا. يقول يعقوب الفيتري عن أفعال الصليبيّين وسلوكهم في الأراضي المقدسة:[٣] «إنهم يأثمون دونَ خجل، وكلّما ابتعدوا عن معارفهم الشخصيّين وأقاربهم؛ فإنّهم ينفّذون جرائمهم بوقاحةٍ أكثر، وبهذا أطلقوا العنان لفجورهم وفسوقهم».

ويقول المؤرخ المجهول عن عدم رضا بعض فئات المجتمع الصليبي عن الأفعال الجنسيّة للفرنسيّين في الحملة الصليبيّة الثالثة:[٤] «تُرى ماذا أقول أكثرَ من هذا؟ أقول إنّ سلوكهم برهنَ على أنّهم لم يكونوا جادّين حين قالوا: إنّهم جاءوا للحج! على أنّه ينبغي

(١) جوانفيل (١٩٦٨، ص٢٩٨ - ٣٠١).
(٢) جوانفيل (١٩٦٨، ص ٣٠٨).
(٣) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٣٥).
(٤) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٥٤).

أن أؤكد أنّهم لم يكونوا جميعًا على هذا النّمط من السلوك المعوجّ المرذول، فقد كان بينهم رجالٌ لا ينظرون بعين الرضا إلى هذا الأسلوب السّفيه الذي ينتهجُه غيرهم».

كان من وسائل المجتمع في الحدّ من الانحرافات الجنسية، التشهيرُ بهذه الفئة في المحافل العامّة. ففي سنة (١١٩٨م/ ٥٩٥هـ)، قام (فولك النويي) بالطواف في دائرة باريس واعظًا بالحملة الصليبيّة الرابعة، وكان يُشهَر فيها بالمرابين والعواهر وشتّى الخطاة[١].

ولم يكن الصليبيّون على درجةٍ واحدة في الإباحيّة وعدم الغيرة على النساء، بل كانت منهم فئةٌ ليست بالقليلة في المجتمع ، تعمل على صوْن النساء، وعدم السماح لهنّ بالاختلاط بالرجال منعًا للانحرافات الجنسية. يقول يعقوب الفيتري معبّرًا عن ذلك:[٢] «إنهم- يقصد بذلك طبقة البولاني- يشكّون ويغيرون على زوجاتِهم، ويقومون بحبْسهم في أماكن كالسّجن، ويسهرون على حراستهم تحت حماية صارمةْ دقيقة، حتى إنّ أقرب الناس إليهنّ من الإخوة والأقارب، نادرًا ما يأتون لزيارتهنّ، ويمنعوهنّ من زيارة الكنائس مطلقًا، لدرجة أنّه يُسمح لهنّ بزيارة الكنيسة مرةً واحدة في السنة فقط». ليس هذا فقط، بل إنّ بعض الأزواج من أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع الصليبي، قد فرضوا على زوجاتهِمُ ارتداءَ الحجاب[٣].

(١) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص٢٢٤).
(٢) يعقوب الفيتري (١٩٩٨، ص١٠٦).
(٣) يوشع براور (٢٠٠١، ص٦٢٠).

الفصلُ الخامس

الآثارُ المترتبةُ على الانحرافِ الجنسي

«لقد كان واضحًا لنا أنّ ما حصل كان بسببِ آثامنا؛ لأنّ التّرفَ دنّسَ بعضَنا، كما أنّ الجشع ورذائل أخرى دنّستْ آخرين»

فوشيه الشارتري

الفصلُ الخامس
الآثارُ المترتبةُ على الانحرافِ الجنسي

لقد كان للانحرافات الجنسيّة أثرٌ كبير على الحركة الصليبية، يتناول هذا الفصلُ تلك الآثار من اضطرابات سياسيّة، وشائعات جنسيّة، والسبايا الصليبيّات، وانحطاطَ مكانة رجال الدّين، والأطفال غير الشرعيّين نتاج العلاقات المُحرّمة، وزيادةَ عدد المطلّقات بسبب الخيانة الزوجيّة، وكثرةَ عددِ المومسات، والنتاجّ الأدبي في تلك الفترة الذي أخذ طابعَ الألفاظ المبتذَلة الداعية إلى الرذيلة والفسق. وقد دلّ ذلك كلُّه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه ذلك المجتمع الذي سقطَ بالفعل من الدّاخل قبل سقوطه على أيدي قادة حركة الجهاد الإسلامي من الخارج.

الآثارُ السياسيّة للانحراف الجنسي

الانحرافاتُ الجنسيّة في الأساس ظاهرةٌ اجتماعية، فكان من المتوقّع أن تكون الآثار الاجتماعية لهذه الانحرافات هي الأكبرَ أثرًا في الحركة الصليبيّة، ولكنّ الآثار السياسية لهذه الانحرافات كانت في مقدّمة هذه الآثار، نظرًا للتداعيات الخطيرة التي أحدثتها هذه الانحرافات خاصّةً بين أبناء الطبقة الحاكمة من الملوك والملكات والأمراء والأميرات وغيرهم.

كانت نساءُ الأسرة الحاكمة في مملكة بيت المقدس دومًا سببًا في إشعال الفتنِ والمؤامرات بين الصليبيّين، حيث كان القادة الصليبيّون يتنافسون بضراوة من أجلِ الارتباط بهنّ،

وكانت كلّ جولة من جولات المنافسة تلك تُسفرُ عن خاسر ورابح، وهو الأمرُ الذي كان يولّد الضغائن بينهم[١].

أصبحت الشائعاتُ الجنسيّة سلاحًا قويًّا في الصراع على السلطة في مملكة بيت المقدس الصليبيّة،[٢] من ذلك أنّ اختيار جان دي برين (John of Briene) ملكًا على بيت المقدس، كان نتيجةً لعلاقة غراميّة جمعت بينه وبيت الكونتيسة (بلانش أوف شامباني) وتمّ فضح تلك العلاقة في البلاط الفرنسي، فربّما كانت المسارعةُ بخروجه من البلاط الفرنسي حتى لا ينتشر أمرُ علاقاته النسائيّة من جانب، ومن جانبٍ آخر حتى لا يلحقَ العارُ بالبلاط الفرنسي[٣].

وكانت الانحرافاتُ الجنسيّة سببًا في الثورةِ على حاكم مدينة الرّها (توروس) في أحداث الحملة الصليبيّة الأولى، ذلك أنّ مجرى الحوادث يدلّ على أنّ بلدوين الأول هو المدبّر للفتنة، إذْ أي حقّ يخوّل له أنْ يقف وسط الثوار في الكنيسة، وأنْ يُقسِمَ لتوروس وزوجتِه بالمحافظة عليهما وهُما في طريقهما إلى مدينة (ملطية) التي اخْتاراها منفًى لهما، ولكنّ توروس اُغتيل على يدِ الثوار بعد يومين فقط من الفتنة، وانفرد بلدوين الأول وحدَه بالأمر في مدينة الرّها.[٤] إذْ لما تبيّن لتوروس أنّه أسيرُ قصره؛ حاولَ أن يهرب من النافذة، غير أنّ الرعاع ألقوا القبضَ عليه، ومزّقوه إربًا.[٥] ولا شكّ أنّ الدافع الأساسي

(١) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٦٥).
(٢) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٦).
(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٢١).
(٤) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٠٥).
(٥) رنسيمان (١٩٩٣، ج١/ ص٣٠٩).

لكلّ هذه الأحداث المؤسفة، العلاقة الآثمة التي كانت بين بلدوين الأول وزوجة توروس، كما ذُكر آنفًا.

كانت الانحرافاتُ الجنسيّة سببًا في فشل الحملة الصليبيّة الثانية، فقد وقف ملكُ فرنسا لويس السابع موقفًا معاديًا من عمّ زوجته ريموند أمير أنطاكيا، وكان السبب الذي حدا بلويس السابع أن يفعلَ ذلك، هو ما تحقّقه من علاقة عاطفية آثمة بين زوجته إليانور وعمّها ريموند، وهذا ما جعله يطلبُ منها- فجأة- مغادرةَ أنطاكيا ومرافقتَه للقدس، فمانعت وأظهرت له رغبتَها في الطلاق منه، فلمْ يأبَه بذلك، بل أرغمَها بالقوة على النّزول على طلبه، إذْ حملها معه ليلًا رغم إرادتها، ودونَ أن يعلم ريموند بسفرها، وسارَ الجيش إلى بيت المقدس. وهناك اجتمعَ بالإمبراطور الألماني (كونراد الثالث)، الذي كان سبقَه إليها. فتدارسا الموقفَ في البلاد مع الملك (بلدوين الثالث) ملك بيت المقدس (١١٤٤ – ١١٦٢م/ ٥٣٩- ٥٥٧هـ)، ومع مجلس البارونات، وانتهوا إلى عقد جلسة في عكا، تخلّف عنها صاحب مدينة طرابلس، وأمير مدينة أنطاكيا[١].

أراد ملك فرنسا لويس السابع أن يفعل شيئًا ما يردّ إليه احترامَه، فألقى الحصار على مدينة دمشق، وذلك بمساعدة من فرسان الداوية في القدس مع قوة حُشدت من جميع الأرجاء، ولكن كان يعوزه رضا الربّ، ولهذا لم ينلِ النجاح، فعاد إلى فرنسا[٢] في سنة (١١٤٩م/ ٥٤٤هـ)، وعاد كونراد إلى ألمانيا، وبدلًا من أنْ يستردّ مدينة الرّها من نور الدّين محمود زنكي (١١٤٦- ١١٧٤م/ ٥٤١ – ٥٦٩هـ)، باءت الحملةُ بالفشل.[٣]

(١) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٢٧٥).
(٢) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٨٣).
(٣) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص١٣٨).

ذلك لأنّ حماسة لويس السابع القتالية خفقتْ كثيرًا من هوجاء المغامرات الغراميّة التي اندفعت فيها زوجتُه إليانور دوقة أكوتين، التي أقامت علاقةً إجراميّة مع عمّها ريموند أمير أنطاكيا[١].

من بين الآثار السياسية المهمّة للانحرافات الجنسيّة في عصر الحروب الصليبيّة، ما حدث في عهد الملك (فولك) ملك بيت المقدس. فقد علمَ الملك فولك بالعلاقة الآثمةِ بين زوجته (ميلسند) وقريبها (الكونت هيو)- أو هيج في بعض المصادر- فمضى بثباتٍ لتجْذير سلطتِه الفردية، ولم يأبَه لتخوّفات زوجته ميلسند وقريبها الكونت هيو، ممّا أدّى إلى انقسام بارونات مملكة بيت المقدس، حيث انضمّ قليلٌ من أولئك البارونات إلى جانبِ كونت يافا (هيو) بينما اصطفّ معظمُهم خلفَ ملكهم فولك الأنجوي[٢].

فقد حضرَ (ولتر) صاحبُ قيصرية وابنُ زوجة (هيج) كونت يافا، إلى بيت المقدس، ورُمي هيج بالخيانةِ العظمي، مصرّحًا بذلك على رؤوس الأشهاد وفي حضرة الملك (فولك) الذي قيل إنّ ذلك كان بتدبيرٍ منه، واتّهمه بالتآمر على حياة الملك مع ثُلّة من الأشراف، لكنّ الكونت هيج أنكرَ التّهمة وأنّه راضٍ بما يحكمُ به البلاطُ في هذه الافتراءات التي رُمي بها ظلمًا، فأقرّ رجال البلاط بعقدِ مبارزة بين كلّ مِن هيج وولتر، واتّفقوا على يوم مُعيّن تُقام فيه هذه المبارزة،[٣] فتهرّب هيج من النزالِ خوفًا من مقابلة خصمِه، فما كان من مجلسِ البلاط إلّا أنْ أصدرَ قرارًا باعتبار هيج مذنبًا ومتلبّسًا بالخيانة،

(١) ميخائيل زابوروف (١٩٨٦، ص١٨٥).
(٢) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٦٢).
(٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٣/ ص١١٩ - ١٢٠).

فخشي سوءَ العاقبة وهرب ملتجئًا إلى مدينة عسقلان[1] الفاطميّة، حيث وضع نفسَه بتصرّف قائد موقعِها. في حين أنّ الملك فولك توجّه إلى مدينة يافا، ففتحَ له أهاليها أبوابَها لتأثرهم من سوء تصرّف هيج، واجتمعَ الملك فولك بالحزب الموالي للكونت هيج، وتمّ الاتفاق بينهم جميعًا على إصدار قرارٍ بنفي هيج من كونتيته لمدة ثلاث سنوات، على أن يُضربَ صفحًا عن خيانتِه[2].

وقد تعدّدت التفسيراتُ حول أسباب غياب هيج، فأنصارُ الملك اعتبروا ذلك دليلًا ناصعًا على أنّه مُذنب، لكن ربّما كانت الملكة ميلسند هي مَن وراء غياب حبيبها؛ لأنّها أشفقت عليه مِن الموت، كما لا يستبعد أنْ تكون (إيما) زوجة هيج هي السببَ في غيابه؛ لأنّها أدركت أنّها ستكون الخاسرَ الأكبر بغضّ النظر عمّنْ سيفوز في تلك المبارزة، فهي بلا شكّ ستفقد زوجها أو ابنها. ومهما تكنِ الأسباب والدوافع التي وقفت من وراء غياب هيو، فقد أتبعَ هيو حماقتَه تلك بحماقةٍ أخرى، عندما استعانَ بالفاطميّين ضدّ بني جلدته، ممّا دفع بالقوات الفاطميّة لاستباحة أراضي مملكة بيت المقدس، وهو الأمرُ الذي دفع بالكثيرِ من أنصاره للتخلّي عنه وتسليم مدينة يافا للملك فولك، ولم يكنِ الفاطميون وحدَهم هُمُ الذين استغلوا ثورة هيو الثاني كونت يافا، بل استغلّ إسماعيل بن بوري

(١) تقع مدينة عسقلان في المدخل الجنوبي لبلاد الشام عند خط عرض٣١ شمالًا، وتأتي في الترتيب على الساحل بعد مدينة أرسوف ويافا. وعن عسقلان وموقعها الجغرافي، راجع: ابن شاهين (١٨٩٣، ص١٥٢). المقدسي (١٩٠٩، ص١٩٢). اليعقوبي (١٩٥٧، ص٨٥). كفاح باسم رشق (٢٠١٣، ص١٠ – ١١). وعن عسقلان في عصر الحروب الصليبية، راجع هذه الدراسة: مصطفى عبد العزيز العسقلاني (١٩٩٢).

(٢) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٢٧٠ – ٢٧١).

حاكمُ دمشق تصدّع الجبهة الصليبيّة، فاستعادَ حصن (بانياس) الذي سبق أن سلّمه النزارية للصليبيّين[1].

أذعن الكونت هيو الثاني لحكمِ النفي، وبدأ استعداداتِه للرحيل إلى إيطاليا مع بداية سنة (١١٣٣م/ ٥٢٧هـ)، وقبيل رحيلِه ذهب إلى بيت المقدس لوداع أحبابه وأصدقائه، ولكنّ أحدَ الفرسان الفرنج تربّص به هناك، وانقضّ عليه أثناء انْهماك هيو بلعب النّرد في أحدِ المحالّ بشارع الفرائيين، حيث طعنَه بسيفه عدّة ضربات أصابتْه إصاباتٍ بالغةً في رأسه وبدنِه. ومع أن هيو قد نجا برغم إصابته الخطيرة إلّا أنّ شكوكًا قويّة حامت حول تورّط الملك فولك في تلك المحاولة الفاشلة لاغتيال غريمِه هيو، حيث لمّح بعضُ الخُبثاء الذين سرّبوا تلك الإشاعة إلى «أنّه ما كان لمثل هذه الجريمة أنْ تتمّ من غير علمِ الملك بها»، وبعد محاولة اغتياله الفاشلة، اكتسب هيو تعاطفًا شعبيًّا عارمًا، في حين تدهورتْ شعبية الملك فولك، والذي حاولَ إنقاذ سمعته وتبرئة ساحتِه بتقديم المجرم للمحاكمة على وجهِ السرعة، وتمّت المحاكمة بشفافية عالية، وصدر حكمٌ بإجماع أعضاء المحكمة قضى بإعدام القاتل، وصدّق الملك على الحكم ووجّه بتنفيذه على الفور. وكان الجاني قد كرّر قبيل إعدامِه وفي أثناء محاكمته؛ أنّه نفّذ جريمته بدافعٍ من تلقاء نفسه، وفشل المحقّقون في انتزاع أي اعترافٍ مِن الجاني يفيد أنّه ارتكب جريمتَه بتوجيهٍ من الملك أو بعلمٍ منه.[2]

وبعد شفاء هيو كونت يافا من جراحِه، تركَ بيت المقدس ولجأ إلى صقلية حيث وافتْه المنيّة هناك. وما أنْ علمت الملكة ميلسند بوفاته، حتى ثار ثائرها، وانقلبت إلى لبؤة

---

(١) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٦٣).

(٢) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٦٤).

هائجة لا يقفُ بوجهها شيء، وأخذت تعملُ على الانتقام من خصوم حبيبها، فردًا فردًا، وتهدّدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، فهابوها وتحاشوها حتى إنّ زوجها الملك فولك نفسه، باتَ يشعرُ بأنّ حياته مهدّدة في كلّ آن ومعرّضة للخطر، فخافَ على نفسه ممّا حمل العقلاء في المملكة لتدارك الأمر، فبذلوا جهودَهم للسعي بالتوفيق بينه وبين الملكة، فقبلتْ ميسلند بذلك، ولكن ضمنَ شروط فرضتْها على الملك فولك. ونزل على مطالبِها. وهكذا صارتِ الملكة تبدي رأيها في كلّ أمور الدولة، بحيث لا يجري تقريرُ شيء فيها إلّا بمشورتها وإرادتِها(١).

ومن الآثار السياسية للانحرافاتِ الجنسيّة في عصر الحروب الصليبية، أنّ ريموند الثاني (Raymond II) حاكم مدينة طرابلس، كان متزوّجًا من (هوديرنا)، والتي لم تكنْ على وفاقٍ مع زوجها الذي كان مع كلّ هيامه بها تساوره الشكوك في سلوكِها، خاصّةً بعد أنْ تهامسَ الناس في شرعيّة ابنتها ميلسند، فأقاويلُ الناس وتحريضاتُهم آلمت ريموند الثاني الذي حاول أنْ يحدّ من الحرية الممنوحة لزوجتِه، ممّا فاقم المشكلةَ بين الزوجيْن، وهو الأمرُ الذي استدعى تدخّل أختها الملكة ميلسند وابنها الملك بلدوين الثالث لإذابةِ الخلافات بين الزوجيّن، إلّا أنّ هذه الخلافات تفاقمت، فقامت (هوديرنا) بتصفيةِ زوجها واغتيالِه عن طريق النزارية الإسماعيليّة(٢).

ومن الآثار السياسية للانحرافات الجنسيّة في عصر الحروب الصليبيّة أيضًا، ما حدثَ من اضطرابات سياسيّة في أنطاكيا. فقد تزوّج بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من امرأتين في وقتٍ واحد، وكانت له علاقةٌ آثمة بأخرى اسْمها سيبيل، عُرفتْ بسوء السيرة والخُلق، ورفض بوهيموند أن يتخلّى عنها، ممّا جعل البطرك (إيمري دي ليموج) يوقّع

(١) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص٢٧١).
(٢) محمد المقدّم (٢٠٠٩، ص٢٣٦ - ٢٣٧).

عليه قرارَ الحرمان بتهمة الزواج من امرأتيْن أو ثلاث، وقد أدّى ذلك إلى ثورة بوهيموند ضدّ الكنيسة ورجالها، فحدثَ انشقاقٌ خطير في مدينة أنطاكيا تطوّر إلى حرب أهلية، ممّا أضعف مركز الصليبيّين في شمال الشام(١).

فقد ضاقت طائفةٌ من كبار الشخصيات ذرعًا بما اتّسم به مسلكُ هذا الأمير من الجُنون، واجتمع ملكُ بيت المقدس والبطرك ورجال الكنيسة والأمراء العلمانيّون ليتشاوروا تشاورًا جديًّا فيما ينبغي اتّخاذه من السّبل في هذا الحدث الطارئ الخطير، وتردّدوا كثيرًا في اللّجوء إلى القوة كي لا يستنجدَ بالعدو المسلم، ومن ثمّ رأوا أنْ يتحمّلوا هذا الشرّ حتى لا يقعوا في أمورٍ أشدّ منه خطرًا، عسى أن يلهمَ الربّ هذا الأمير ليعود إلى صوابه ليحيى حياة أفضل. لكنْ سَرعان ما اتّضح للجميع أنّ الشرّ أخذَ في التفاقم، لذا قرّروا بالإجماع أن يذهبَ البطرك المُبجّل- بطرك بيت المقدس- إلى أنطاكيا في محاولةٍ منه- إنْ أمكن- لالتماس أي علاج. وصحبه بعضُ كبار الشخصيات مثل (أرنولد دي تورج) رئيس فرسان الهيكل، وعن طريق الرّسل بين الطرفين طلبوا من بوهيموند طردَ خليلته سيبيل، وردّ امرأته الشرعية، ولكنّ بوهيموند عاد إلى المكابرة ونفى من المدينة وجميع أراضيه أخلصَ نبلائه من أصحاب المكانة السامية، فلجئوا إلى الأمير الأرمني «روبين» (١١٧٥- ١١٨٥م/ ٥٧١-٥٨١هـ) أحد كبار أشراف الأرمن النّبلاء الذي تلقّاهم لقاءً حسنًا، ورحّب بهم أعظمَ ترحيب.(٢) فكانت النتيجة الأخطر لعلاقات بوهيموند الثالث، قيام حربٍ أهلية بين الصليبيّين نتيجة لنزواته(٣).

(١) سعيد عاشور (١٩٨٢، ج٢/ ص٥٥).
(٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٦٥ - ٢٦٨).
(٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١٩).

لم تتوقّف الآثار السياسية للانحرافات الجنسيّة على الصليبيّين المقيمين في بلاد الشام، ولكنِ امتدّت آثارها إلى الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك. فعندما علم الإمبراطور (مانويل كومنين) بما حدثَ بين أندرونيكوس كومنين والملكة (ثيودورا) ملكة بيت المقدس- كما ذُكر آنفًا- من علاقةٍ جنسيّة في بيروت؛ عملَ على القبض على أندرونيكوس، غير أنّ ثيودورا علمتْ بتلك المكيدة؛ فأخبرتْه بذلك، فتخلّيا عمّا كان يملكانه، وتوجّها إلى الحدود الإسلامية حيث وصلا لمدينة دمشق، فأحسن نورُ الدّين محمود (١١٤٦-١١٧٤م/ ٥٤١ - ٥٦٩هـ) استقبالهما، فاستغلّ الملك عموري الأول (١١٣٦ - ١١٧٤م/ ٥٣٠ - ٥٦٩هـ) ملك بيت المقدس ذلك، وأعلن عدمَ أحقيّة ثيودورا في المُلك لكونها آثمة نتيجة للضرر الذي ألحقته بالمملكة الصليبيّة[١].

ولم تتوقّف الآثار السياسية للانحرافات الجنسيّة لأندرونيكوس عند هذا الحدّ، بل عندما أصبح إمبراطورًا لبيزنطة، وتمادى في انحرافاته الجنسيّة بلا أي حدّ، قامت ضده ثورة عارمة في القسطنطينية بسبب هذه الانحرافات. فقد ثارت ضده العامةُ من الناس بقيادة (إسحق) ابن الإمبراطور مانويل، فدخل إسحق إلى مدينة (بوكليون) وآلَى على نفسه إلّا أنْ يذيق أندرونيكوس الموت الزعاف جزاء ما ارتكبه من قتل صاحب القصر وإغراقه، وهو الحاكم الشرعي ابن الإمبراطور مانويل. ورأي إسحق أنه إذا قتل أندرونيكوس فإنّما يكون قتله إيّاه بسبب الشرور والموبقات الجمّة التي اقترفها[٢].

(١) يوحنا كيناموس (١٩٩٧، ج٢٩/ ص٢٤١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٢٠).

See: Lynda Garland (1999, Pp. 207 – 209).

(٢) مجهول (٢٠٠٢، ص٣٧ -٣٨).

أخذوا أندرونيكوس وطافوا به في المدينة، فمنهم مَنْ صفعه، ومنهم مَنْ طعنه بخنجر، وكلّهم ما بين قائل له: «لقد شنقت أبي» وآخر: «لقد اغتصبت زوجتي قهرًا»، وأمّا النساء اللواتي اغتصب بناتهنّ وفجرَ بهنّ، فقد شدَدْنه من لحيته نتفًا وضربًا وشتمًا وتقريعًا، وبهذه الوسيلة المحكمة ثأروا لأنفسهنّ من هذا الفاسق.(١) يقول المؤرخ المجهول مبينًا السبب الرئيس في الثورة على الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس:(٢) «والآن فإني قاصّ عليك ما فعلته النسوة به. لقد رحن يقذفنّ في وجهه بالبوْل والغائط ممّا أحضرنه معهنّ. أمّا النسوة اللائي لم يستطعنَ الوصول إليه فقد تسلّقنَ الأسطح وحملن ما حملته رفقتهُنّ ورُحْنَ يقذفنه به، هذا ما حدث منهنّ بكلّ شارعٍ من شوارع البلد. ولمّا خرجوا به من المدينة تركوه إلى النّسوة يفعلنَ به ما شئن، فانقضَضْن عليه انقضاض الكلاب المسعورة تنهشُ جثّته فمزّقْنَه شرّ مُمزّق. ثمّ حفروا له حفرة في روث البهائم والدواب ودفنوه في هذا المكان الزري».

وذكر المؤرخ ميخائيل الكبير بأنه خرج من الأبواب ليهرب إلى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطَعوا جسمَه بالسكاكين وهو حي، ثمّ وزَعوا لحمه من واحد إلى واحد، وأخيرًا جمعوا لحمَه وأحرقوه وسط الحشود(٣).

الآثارُ العسكرية للانحراف الجنسي

إذا كانت الانحرافات الجنسيّة قد ألقت بظلالها السياسية السيئة على الحركة الصليبيّة، إلّا أنّ الآثار العسكرية لهذه الانحرافات قد ألقتْ بظلالها السيئة على المسلمين، وأتتْ

(١) روبرت دي كلاري (١٩٩٥، ج١٠/ ص٢٢٥).
(٢) مجهول (٢٠٠٢، ص٣٨ – ٣٩).
(٣) ميخائيل السوري الكبير (١٩٩٥، ج٥/ ص٢٩٤).

بنتائج إيجابية لصالح الصليبيّين. وقد تجلّت هذه الآثار العسكرية للانحرافات الجنسيّة في تسبّبها في سقوط مدينة أنطاكيا في يدِ جحافل الصليبيّين في الحملة الصليبيّة الأولى.

كان هناك برجٌ يعرفه الناس ببرج الأختين، يقع في الجانب الغربي من مدينة أنطاكيا، وكان هذا البرج تحت قيادة فيروز الزراد،[١] ولمّا طال مُقام الفرنج على أنطاكيا راسلوا أحدَ المستحفظين للأبراج وهو فيروز الزراد، وبذلوا له مالًا عظيمًا وإقطاعًا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي.[٢] فقال فيروز: «إنني أقوم بحراسة ثلاثة أبراج، وإنني أعده– أي بوهيموند– بها عن طيب خاطر، وسأسلمه إيّاها يوم يشاء وسأحاربُ به فيها»، وبعث فيروز ابنه إلى بوهيموند سرًّا ليكون رهينة عنده تأكيدًا له على أنه سوف يُدخله البلد[٣].

ويقال إن السبب في تعجيل فيروز الزراد بتسليم البرج، يتعلق باكتشافه علاقة آثمة بين زوجته وأحدِ كبار قادة الأتراك في المدينة[٤]. فعلى أثر اكتشاف فيروز الزراد لخيانة زوجته مع أحد كبار الأتراك، أرسل إلى بوهيموند ولده الذي يشاركه أسراره، والذي كان هذا الإثم الذي نزل بأُمّه قد استورى غضبه، وأضرم غيظه، وأمره أبوه أن يطلب من بوهيموند أن يستعدّ لكلّ شيء يستلزمه العمل الذي بين أيديهم استعدادًا دقيقًا، وأن يخبره أنه لن يُقصّر في شيء من جانبه، بل إنه موفٍ بما وعده به، وموعدُهما الليلة التالية[٥].

بناءً على الرّوايات السابقة لسببِ تسليم فيروز الزراد مدينة أنطاكيا للصليبيّين، يمكن القول بأنّ طمع فيروز الزراد في حفنة من الدراهم والدنانير كان هو الهدف الرئيس

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٣٥).
(٢) ابن الأثير (١٩٧٩، ج١٠/ ص٢٧٤).
(٣) مجهول (د.ت، ص٦٦ – ٦٧).
(٤) سعيد برجاوي (١٩٨٤، ص١٣٧).
(٥) وليم الصوري (١٩٩٤، ج١/ ص٣٤٥ – ٣٤٦).

في البداية، لكن يبدو أنه تردّد في التسليم بدافع الخوف من عواقب الفشل، ثمّ حدثت الخيانة الزوجية، فعالج الخيانة بخيانة أكبر، وبدلًا من أن يُنزلَ العقاب بزوجته الخائنة، عاقب كلّ سكان المدينة بتسليمها لجحافل الصليبيّين.

صمّم فيروز على أن يكون انتقامه شديدًا، وأي انتقام أشد وقعًا من أن ييسر للصليبيّين دخول المدينة؟![١] يقول روجر أوف ويندوفر عن استيلاء الصليبيّين على أنطاكيا:[٢] «كانت جُثثهم- أي المسلمين- المرمية بالشوارع من دون دفنٍ تُشكّل منظرًا تعيسًا لِمَنْ ينظر إليها». حتى أصبح من المستحيل السير فيها نظرًا للرائحة المتصاعدة منها، ولم يتمكّن أحدٌ من السير في الشوارع إلّا على جُثث الموتى».[٣] وجرت دماء أهل أنطاكيا مطلولة على شعاف الوادي وفي سراديب الحصون وعلى سفوح الجبال، تُسطّر خديعة فيروز الزراد وخيانته، وبطش المُحتل وقسوته، وطمع بوهيموند في الرياسة دون نظر إلى ما تنطوي عليه الوسائل التي يعمد إليها من روح لا تتّفق وشرف الفروسية[٤].

وإذا كانت خيانة زوجة فيروز الزراد قد صبَّت في صالح الصليبيّين، فقد كانت الانحرافات الجنسيّة من الأسباب المهمّة لفشل الحملة الصليبيّة الثالثة عسكريًّا. فقد مكثَ الملك ريتشارد قلب الأسد في مدينة عسقلان كاسف البال لتفرق الجيش، فبعث الرّسل من ناحيته إلى الفرنسيّين يدعوهم للرجوع إلى المعسكر في عسقلان، حتى يزداد عددُ الجيش، ويقوي بهم ساعدهاً ويشتدّ ترابط رجاله بعضهم ببعض.[٥] يقول أمبرويز

---

(١) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٣٠).

(٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٥٦).

(٣) مجهول (د.ت، ص٧٠).

(٤) حسن حبشي (١٩٥٨، ص١٣٢- ١٣٣).

(٥) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٣٧).

عن سبب تأخير جيش الملك ريتشارد قلب الأسد في التحرّك من عكا:[١] «أمّا الحشد، فبسبب فساده وبسبب النساء، كُله حُبس وأُعيق عن الذّهاب». فقد صُنفت النساء ضمن القوافل والمخيمات التابعة للجيش الصليبي في المقام الأول إلى مجموعاتٍ مختلفة تقدّم خدمات محددةً للصليبيّين الذكور، مثل غسل الملابس أو الطهي أو ممارسة البغايا. ومنذ فترة طويلة، لم تكن هذه الخدمات يُنظر إليها دائمًا في ضوء إيجابي؛ كثيرًا ما يدان البغاء، بسبب خطورته المتأصلة، على أنه يعرّض للخطر نجاح الحملات العسكرية التي يقوم بها الصليبيّون الذكور[٢].

وبينما كان جيش ريتشارد مُقيمًا في الرملة، خيَم عليه الحُزن الشديد– لعدم تمكّنه من دخول القدس– فأخذ عددٌ هائل من أفراده في التسلّل والهرب، وترتّب على هذا التسلل أنْ قلّ عددُ العسكر قلّة ملموسة، وفارق معظم الفرنسيّين غضبًا منهم لسير الأمور عكسَ ما يشتهون، وآثروا البقاءَ في يافا منصرفين إلى اللّهو يصرفون فيه أوقاتَهم.[٣]وترتّب على الانحراف الجنسي أيضًا أن وقع بعض القادة الصليبيّين في الأسْر، فقد أزعج (جوسلين) صاحب مدينة ألبيرة المسلمين بغاراته المستمرّة، فكمنَ له نورُ الدّين محمود (١١٤٦– ١١٧٤م/ ٥٤١ – ٥٦٩هـ) مع مجموعة من جنوده فأسَرَه[٤] وهو يزني بامرأة[٥].

وبشكلٍ عام، كان يُنظرُ إلى المرأة الصليبيّة سلبًا من الناحية الجنسيّة وتصويرها على أنها تهديدٌ محتمَل للأعراف الجنسيّة، ونذر العفّة، وبالتالي الصحة الروحيّة للرجل في الحملة

(١) أمبرويز (١٩٩٨، ج٣٢/ ص٣٥٥).

(2) Cristoph. T. Maier (2004, P. 68).

(٣) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص١٣٣).

(٤) حسن حبشي (١٩٤٨، ص٧٦).

(٥) الذهبي (١٩٩٩، ص٤٥). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦، ص١١٧).

الصليبيّة. وعلاوة على ذلك زعمَ مؤرّخو حوليات القرون الوسطى ورجال الكنيسة أنّ الأنشطة الجنسيّة غير المشروعة داخل الجيوش الصليبيّة، التي يُزعم أنها تحرّض من قبل النساء العازبات، تسبّبت في سحب الله رعايتَه وتأييده من الجيوش الصليبيّة. وبالتالي أدّى ذلك إلى الفشل العسكري[1].

وبحُكم الحرب فقد سُبيتْ بعض النساء الصليبيّات، وقد وصف العماد الأصفهاني السبايا الصليبيّات اللواتي استقلّ بهنّ المسلمون من الناصرة وقيسارية والبلاد المجاورة لطبرية، واستوقفه جَمالهنّ، وما كنّ يتحلّينَ به من صفاتِ حُسْن، فتفنّنَ في الحديث عنهنّ تفنّنًا لعله يشي بنوازع نفسه، كما في قوله: «وجاءونا بكلّ مليحةٍ مليحة، متعبةٍ مُريحة، مقبلات أوايب، طويلات الذّوايب، ثقيلات الرّوادف، خفيفات المعاطف». وتقترب لغةُ العماد من لغة الغزل والتصوير الشعري حين يصوّر جَمال هؤلاء السّبايا وحُسْنهنّ، وكأنّه يعبّر عن افتتانه بهنّ، وذلك في قوله: «... مِن كلّ غانية عانية، ورقيقة رقية، ومصابة مصبِيَة، ومجلوّة مجلوبة، وسالبة مسلوبة، ودمية دامية، وجارية لطيفة بالعنف جارية.. وعذراء مفترعة، وحسناء منتزعة، ومخطفة مختطفة، وقوية مستضعفة.. وغريرة غرّاء، وظبية ظمياء، وغضيضة غضّة، وفضة منفضّة، وخمارة مخمورة، وسحّارة مسحورة، ومخدرة مهتوكة، وموقرة منهوكة».

وكان المسلمون يتسرّون بالسبايا الصليبيّات ويتهادونها فيما بينهم، فقد ذكرَ أسامة بن منقذ أنّه صار إلى دار والدة «عدة من الجواري.. فرأى منهنّ جارية مليحة شابّة» فأهداها إلى صاحب قلعة جعبر فوافقته واتّخذها لنفسه. وتحدّث العماد الأصفهاني عن عددٍ كبير من السبايا الصليبيّات اللواتي سباهنّ المسلمون بعد فتحِ القدس، وتسرَّى بهنّ الجندُ

(1) Cristoph. T. Maier (2004, P.71).

المسلم، وذلك في قوله: «فكم محجوبة هُتكت، ومالكة مُلكت، وعزباء نُكحت، وعزيزةٌ مُنحت، وبخيلة تسمّحت، وحيِيَة توقّحت، ومجدة مزحت، ومصونة ابتُذلت.. وعذراء افترعت»، و«كم تسرّى منهنّ سريّ، وتجرّأ عليهنّ جريّ، وقضى وطرَه عَزب، ونفى نهمَه سغَب، وفثا ثورته شغب»[1].

الآثارُ الدينية للانحراف الجنسي

من بين الآثار التي ترتّبت على الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، العديدُ من الآثار الدينية التي تمثّلت في تعطيل الطقوس الكنسيّة في بعض البلدان بقرارٍ من السلطة الكنسية كردّ فعلٍ منها ضدّ هذه الانحرافات، كذلك ضعف المكانة الدينية لرجال الدّين في نفوس العامة، نظرًا لبعض الانحرافات الجنسيّة التي قام بها بعض رجال الدّين أنفسهم.

قبل اندلاع الحروب الصليبيّة استطاعت البابوية أن تستغلّ حالةَ التردي الأخلاقي في المجتمع الأوروبي، فدفعتهم إلى الانخراط في الحركة الصليبيّة من باب الحصول على الغفران وتكفير الذنوب، فكان هذا من الآثار الدينية الإيجابية التي استفادت منها الكنيسة الغربيّة أحسنَ استفادة. يقول البابا أوربان الثاني معبرًا عن ذلك في مؤتمر كليرمونت: «أنتم يا مَنْ تقهرون الأطفال، وتنهبون النساء الأرامل، وأنتم يا مَنْ غرقتم في خطيئة الزنا، يا مَنْ تسرقون حقوق الآخرين، إذا كنتم حقًّا تريدون أن تحْرصوا على أرواحكم، فاندفعوا بأقصى سرعة ممكنة للدفاع عن الكنيسة الشرقية»[2].

---

(١) شفيق محمد عبد الرحمن (١٩٩٦، ص٣٤٣ – ٣٤٤).

(٢) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠، ص٨٧).

اعتبر رجال الدّين أنّ جريمة الزنا سببٌ لكلّ المصائب التي تعرّضت لها مملكة بيت المقدس،[1] يقول المؤرخ المجهول عن سبب نكبَةِ الصليبيّين في معركة حطّين:[2] «زاد غضب الربّ على المسيحيّين بسبب آثامهم التي زادت زيادة جمّة أسفرتْ عن سرعة قضاءِ صلاح الدّين عليهم، حتى صارت الغلبةُ له عليهم في تلك الساحة- حطّين- بأكملها، وذلك بين الضّحى والعصر». فكان من أهم الآثار الدينية للانحراف الجنسي تفسيرُ الهزائم والنكبات التي تعرّض لها الصليبيّون في بلاد الشام تفسيرًا دينيًّا، وكانت هذه الانحرافات هي الأساس الذي بُني عليه هذا التفسير.

وكان من أهم الآثار الدينية التي ترتّبت على الانحرافات الجنسيّة لرجال الدّين أنفسهم، أنْ تلاشت مكانتُهم الدينية في نفوس عامة الصليبيّين. يقول متى باريس:[3] «إن الكهنة إذا انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنّساء، فإنّ المُحصلة ستكون دمارَ الأرواح».

من الشواهد التاريخية على أثر انحراف رجال الدّين جنسيًّا في انحطاط مكانتهم بين عامّة الصليبيّين. أنه في أول أغسطس سنة (١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ)، تمّ انتخاب أرنولف كبطريرك لبيت المقدس، وهو كاهن كونت نورماندي، وذلك خلافًا لرغبة رجال الدّين الطيّبين، الذين اعترضوا لأنه لم يكنْ مساعدَ شمّاس| وكان من أصل كهنوتي، والأهمّ من ذلك كله، أنه اتُّهِمَ بأنّه كان يداعبُ النساءَ أثناء الرحلة- الحملة الأولى- حتى إنه كان موضوعًا لقصص فاحشة، وقد حطّ مولده المُشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدّين الطيّبين[4].

(١) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٨).

(٢) مجهول (٢٠٠٢، ص٨٨).

(٣) متى باريس (٢٠٠١، ج٤٠/ ص٩٤).

(٤) ريموندداجيل (١٩٩٠، ص٢٥٨ - ٢٥٩).

وقد صوّر وليم الصوري الفساد الأخلاقي الذي دبّ في صفوف رجال الدّين وما تبع ذلك من آثار على الدين، بعد وفاة المندوب البابوي للحملة الصليبيّة الأولى أدهيمار دي مونتيل، فقال عن ذلك:[١] «لقد هوى الدّين القيم وكلُّ معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدّين، فاستشرى الفسادُ في كلّ ناحية، وسار في مسيرات مُحرّمة، منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي الطاهر الذيل والسيرة أديمار أسقف بوي».

ومن الآثار الدينية للانحرافات الجنسيّة للقادة الصليبيّين، أنها رفعت من الحماسة الدينية لدي الأوروبيّين وكانت سببًا في خروج حملات صليبيّة جديدة نحو الشرق العربي. فقد أثبتتِ الأحداث أنّ الأباطرة والملوك وكبار الإقطاعيّين والجيوش الهائلة قد فشلتْ في تخليص الأراضي المقدسة، وذلك بسبب كبريائهم ورذائلهم، فقد سقطت القدسُ برذائل العُظماء.[٢] فخرجت على إثر ذلك حملة الأطفال الصليبيّين (Children's crusade) سنة (١٢١٢م/ ٦٠٩هـ)، والتي كانت من الأحداث المؤسفة في تاريخ الحملات الصليبيّة، فقد زحف أطفالُ فرنسا وألمانيا بقيادة ولدين لم يبلغا سنّ المراهقة، زحفًا عبر أوروبا الجنوبية نحو إيطاليا، على افتراض أنّ براءتهم وطُهرَ حياتهم ستضمنُ لهم النجاح فيما فشل فيه آباؤهم بسبب خطاياهم[٣].

ومن الآثار الدينية الإيجابية للانحرافات الجنسية، اتجاه بعض النساء إلى الدّين وحياة الزهد والرهبنة كردٍّ فعلٍ للخيانات الزوجية المتكررة من أزواجهم. ومن الشواهد

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).

(٢) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ص١٥٩).

(٣) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص ٢٥٦). عن صليبية الأطفال، راجع:

Munro, Dana C. (1914, Vol.19, Pp.516 - 524). Wolff, R. L.; Hazard, H. W. (1969, Pp.325 - 342).

التاريخية لهذا الأثر، أنّ وليم التاسع دوق أكوتين في فرنسا كانت له عشيقة دائمة هي دانجروسا كما ذكر آنفًا، فلم يكن أمام زوجته (فيليبا) سوى اللجوء للكنيسة، وإقناع المبعوث البابوي (جيرارد Girard) للتأثير على زوجها، بيْدَ أنّ وليم التاسع ردَّ بسخرية على المبعوث البابوي الذي كان أصلعًا تمامًا بقوله: «سوف تنمو خصلاتُ الشعر على رأسك قبل أن أُفارق الكونتيسة»، وتحدى التهديدَ بعقوبة الحِرمان الكنسي برسْمِ صورة دانجروسا على درعه قائلًا: «سوف أحملها إلى القتال مثلما حملتُها من الفراش»، فما كان من زوجتِه فيليبا إلّا أن اتّجهت إلى الدّين بشكلٍ مُتزايد علّها تجدُ السلوى والعزاء، وانجذبت مثل غيرها من النساء لآراء وشخصية أحد النُسّاك الجوّالين من بريتاني يدعي (Robert de Arbrissel) روبرت دي أربرسيل الذي أسّس في سنة (١١٠٠م/ ٤٩٤هـ)، في أقصى شمال بواتو قرب الحدود الأنجوية ديرًا فريدًا من نوعه أراد له مؤسّسه أن يكون مختلطًا، تحت إشراف رئيسة للدّير يخضع لها الجميع رهبانًا وراهبات، بدافعٍ من إيمانه أنّ النساء هنَّ الجنس الأفضل والأقدر الذي يعرف كيف يدير أسرة ضخمة، وأنهنّ أكثرُ نجاحًا من الرّجال في إدارة الممتلكات، بسبب خبراتهن التنظيمية التي اكتسبْنَها من تكوين وإدارة الأسرة. وهذا رأي يعكس اعترافًا بالتفوق النسائي، الذي كان جديرًا بأن يجذب فيليبا التعيسة، التي كانت قد أقنعت زوجها أن يمنحه بعض الأراضي شمال بواتو، بهدف تأسيس جماعة دينية تكريسًا لمريم العذراء، وأمسى هذا الديرُ مقصدًا للنساء الأرستقراطيات، والزوجات المقهورات.[1]

وأدّت بعض الانحرافات الجنسيّة أيضًا إلى تعطيل الحياة الدينية في بعض الإمارات الصليبيّة، وزيادة العداء بين السلطة الدينية والسلطة المدنية. فعندما استمرّ بوهيموند

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٨).

الثالث أمير أنطاكيا في ممارسة الخطيئة مع (سيبيلا) صدر قرار الحرمان ضدّه، فلم يكترث بذلك، بل أسرف في ممارسة حياته النجسة وعامَلَ البطرك والأساقفة وغيرهم من كبار الشخصيات الكنسية في تلك الإمارة كما لو كانوا أعداءً له، وأفحش في إيذائهم، فنهَبَ ما تحويه الكنائس والأديرة من الأشياء المقدّسة، وحاصر البطرك ومَنْ لاذوا به من رجال الدّين والكهنوت، ممّا ألجأهم إلى قلعة تابعة للكنيسة فرارًا من بطشه واتّقاء لشرِّه، ثمّ شنَّ عليهم بضعَ هجمات ضارية، كما لو كانت قلعة من قلاع العدو.[١] فقام بطريرك أنطاكيا بحرمان بوهيموند الثالث وحرم القسيس الذي عقد زواجه على تلك الزانية، وحرمَ المدينة كلها لأجله، فأبطل قرع النواقيس، وأوقف تناول القرابين[٢] والصلوات على الأموات قبل دفنهم، فقام بوهيموند الثالث بنهب كنائس الإفرنج والأديرة، وبعد مدّة اجتمع القضاة وجملة من النبلاء برئاسة بطريرك بيت المقدس، حيث توسّطوا مع بطريركهم، فأعاد بوهيموند الثالث كلّ ما خطفه، وثبَتوا له تلك المرأة واصطلحوا.[٣]

هذا، ولم يكن تعطيل الحياة الدينية في أنطاكيا بسبب انحرافِ أميرها الجنسي هي الحالة الوحيدة الفريدة في تاريخ الحروب الصليبيّة، فقد تكرّر ذلك- وبصورة أكبر- مع قائدٍ من قوّاد الحملة الصليبيّة الثالثة هو الملك فيليب أوغسطس ملك فرنسا بسبب انحرافاته الجنسيّة أيضًا.

---

(١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٦٣ - ٢٦٤).

(٢) القربان (Blessed Sacrament): هو الخبز والخمر اللذان تمَ تقديسهما وحُفظا ليُمنحا للمرضى والمحتضرين، ويراد به تعزيز إيمان جميع المؤمنين ومحبتهم في المسيح. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣٧٧).

(٣) ميخائيل السوري الكبير (١٩٩٥، ج٥/ ص٢٨٥).

فقد رفعت (إنجبورج Ingeborg) الدانماركية دعوة إلى البابا أنوسنت الثالث (١١٦١-١٢١٦م/ ٥٥٧-٦١٣هـ) ضدّ زوجها فيليب أوغسطس ملك فرنسا لكي ينصفها منه بسبب زواجه من أخرى تُدْعى (أجنس)، فأمر البابا أنوسنت الثالث الملك فيليب أوغسطس أن ينفصل عنْ أجنس ويعيد ارتباطَه بإنجبورج كزوجة شرعية. وعندما رفض فيليب أن يفعل ذلك، وضع أنوسنت الثالث فرنسا تحت قرار تأديب في سنة (١٢٠٠م/ ٥٩٧هـ)، وكان قرار التأديب (Interdict) هذا له تأثيره على كلّ فرنسا؛ لأنّه تضمّن إغلاق كلّ الكنائس إلّا لإجراء معمودية[١] الأطفال، ومنع إجراء القُدّاس الإلهي إلا بالنسبة للمرضي، ومنعه أيضًا دفن الموتى في مقابر الكنيسة، أمّا الكهنة فلم يكنْ مسموحًا لهم بالوعظ إلّا في الهواء الطلق، فأثار هذا القرار ثورةً عارمة في كلّ أنحاء فرنسا، ممّا أجبر الملك فيليب أوغسطس على الخضوع للبابا إنوسنت الثالث، وصرف أجنس من بيته، وأعاد إنجبورج إلى القصر كزوجة شرعيّة له. وهكذا استخدم البابا إنوسنت الثالث سلطتَه الروحية وأجبر حاكمَ دولة فرنسا بكلّ عظمتها على احترام وطاعة القانون الأخلاقي، وأثبتَ بأنّ الملوك لا يمكن أنْ يستهينوا بشرعيّة الله المقدّسة للزواج[٢].

الآثارُ الاجتماعيّة للانحراف الجنسي

الانحرافات الجنسيّة بكلّ صورها هي ظاهرة اجتماعية في الأساس، فكان من الطبيعي أن يترتّب على هذه الانحرافات العديدُ من الآثار الاجتماعية، وإن كانت هي الأقلّ من

---

(١) المعمودية (Baptism): هي كلمة سريانية الأصل تعني (الغطس) في العهد القديم، والمعمودية والإيمان شرطان متماسكان لا غنى عنهما لحياة الروح والخلاص في المعتقد المسيحي. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٤٧٢).

(٢) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص٢٤٥).

بين الآثار الأخرى لهذه الانحرافات. وفي مقدمة هذه الآثار الاجتماعية للانحرافات الجنسيّة عصر الحروب الصليبية، الأطفالُ غيرُ الشرعيّين الذين هُم نِتاج هذه العلاقات المُحرّمة.

مع أنّ أبناء الزنا من الأسرة المالكة الإنجليزية- وغيرهم من الأسَرِ الأخرى- مثل جيوفري بلانتغنت، ووليم صاحب السيف الطويل، وهُما من أولاد الملك هنري الثاني من خلال اتّصالات قديمة؛ نالا الاعتراف والتّشريف، لكن نُظر إلى أُمّهاتهم نظرةَ سوء وعومِلْنَ بازدراء واسْتهجان؛ لأنهنّ خرقْنَ شريعة الكنيسة وقوانين المجتمع.[1]

في حملةِ «صليبيّة الأطفال» التابعة للطفل الألماني نيقولا، استغلّ القوادون عودةَ الفتيات الصغيرات، فغرّروا بهنّ وأوقعوهن في شرك الرذيلة، ومن عجيب الأمر أنْ نرى تلك الفتيات اللاتي خرجنَ وقد امتلأن حماسةً دينية منقطعةَ النّظير، نراهنّ وقد سقطنَ هذا السقوط الفاجع، وبدلًا من أداء الحجّ في الأراضي المقدسة، صرْنَ يحملن أطفالَ العار على صُدورهن.[2]

إنّ الأطفال غير الشرعيّين في عصر الحروب الصليبيّة كانوا أكثر من ذلك بكثير، على الرغم من عدم تصريح المصادر التاريخية بذلك، فمع انتشار الانحراف الجنسي في كلّ طبقات المجتمع انتشارًا واسعًا، ومع عدم وجود وسائل متقدّمة لمنع حمل النساء، فلا شكّ أن ذلك نتجَ عنه الآلاف من الأطفال غير الشرعيّين وقتذاك. أيضًا إذا كان أبناء الملوك غير الشرعيين قد نالت أمهاتهم معاملة حقيرة كما ذُكر آنفًا، فلا شكّ أيضًا أنّ

---

(١) بلانتغنت (١٩٩٨، ج٣٠/ ص٣٨٠).
(٢) عبد الغني عبد العاطي (١٩٨٣، ص١٧٩).

أبناء السفاح وأمهاتهم من الطبقات الاجتماعية الأخرى قد ناولوا معاملة أسوأ من ذلك بكثير، وصاروا من الطبقات المنبوذة في المجتمع.

ومِن الآثار الاجتماعية التي ترتّبت على الانحراف الجنسي أيضًا، زيادة عدد المطلقات بسبب الخيانة الزوجية خاصّةً في الطبقة العليا من المجتمع. من ذلك ما حدث بين ملك فرنسا لويس السابع وزوجته إليانور دوقة أكوتين، فقد مكث لويس السابع وزوجته إليانور عشرة أيام في مدينة أنطاكيا كان لها أثرُها على مسار التاريخ ومصيرهما الشخصي، فسرعان ما أدّت الأحداث إلى تفاقم الخلاف بين الملك والملكة، فلم يكنِ الملك راضيًا عن درجة الدفء التي من الطبيعي أن تتّسم بها العلاقة بين العمّ وابنة أخيه، وبشكل مفاجئ تمامًا حدثَ صدعٌ في العلاقة الزوجية لا يمكن رأبُه.[١] وفي سنة (١١٥٠م/ ٥٤٥هـ)، جرى طلاق لويس السابع ملك فرنسا من الملكة إليانور، لأنّهما كانا قد ارتبطا أحدهما بالآخر بالدرجة الرابعة من قرابة العَصب.[٢] ومهما كانت الأسباب الحقيقية، فقد تمّ قرار بطلان الزواج بحجّة صلة القرابة، وأُلغي رسميًّا الزواج الذي تمّ في بوردو منذ خمسة عشرة عامًا مضت[٣].

مع انتشار الزنا والدّعارة على نطاق واسع بين مختلف طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام؛ أدّى ذلك إلى تدهور الروابط الأسرية داخل المجتمع الصليبي وإصابته بالوَهَن، وهو ما كان له دورٌ كبير في تسهيل مهمّة المسلمين في استرداد ما اغتصبَه الصليبيون[٤].

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٨٧).
(٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٧١).
(٣) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٩٦).
(٤) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٣٩).

وكان للخيانة الزوجية دورٌ مهمّ في انتشار جريمة القتل بين طبقات المجتمع الصليبي، حيث تسارع كلّ من الأزواج والزوجات في التخلص من الآخر، حتى يخلو له الطريق أمام مصاحبة طرفٍ آخر يقضي معه وقتًا من المتعة، حتى لو أدى ذلك الأمر إلى كوارث اجتماعية. والراجح أن الحرمان العاطفي كان له دوره في انتشار جريمة القتل بين الأزواج، فقد كانت المرأة تلجأ إلى قتل زوجها عندما كانت تعيش في مثل هذه الحالة، كما أنّ الغيرة النسائية كان لها دورها في قتل المرأة زوجَها إذا علمت أنه على علاقةٍ بامرأة أخرى، وأيضًا كان الزوج يقوم بقتل زوجته عندما يعلم أنها على علاقةٍ برجلٍ غيره[١].

لم تكنِ الحروب الصليبيّة مجرَّدَ معارك دمويّة متّصلة، وإنما تخلّلها علاقات إنسانية عديدة نبتت في أوقات السلم، وأوقات السلم هذه كانت أطول من فترات الحروب، وأعطت الفرصة للتدخل والاختلاط الاجتماعي بين الفريقين،[٢] فكانت مدينة عكا- مثلا- تستقبل جميعَ سُفن التجاراً وإليها يقدم جميعُ الحجاج- الصليبيّين- الذين قدموا من أجل المسيح سواءً بالبحر أو البر، ومنها يُقلعون، وقد فسد الهواء هنا بسبب التدفق الهائل للغرباء، ولهذا انتشرت مختلف الأمراض، ونجمَ عنه روائحُ نتِنَة، وفسادٌ للهواء[٣].

كان من أثر الاختلاط بين الفئة الصالحة والفئة الفاسدة في المجتمع الصليبي، أنْ تأثّر الصالحون بغيرهم من الفاسدين. فقد تنامى الشرُّ والدّعارة في مدينة القدْس ذاتها، وتعالى إلى حدّ أنّه لم يبقَ أحدٌ في مشفى القديس يوحنا؛ لأنّ الحجاج لم يعودوا يتلقّون

(١) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص٨٧، ص١٠٣).
(٢) محمود الحويري (١٩٧٩، ص٢٤٢).
(٣) يوناس فوقاس (١٩٩٨، ج/ ٣٤ ص٣٨٣).

أية عناية على أيدي الإسبتارية، وأُرغم الحجاج الجيدون المحترمون على الذهاب إلى المواخير التي كان أصحابها: لصوصًا وقُطاع طُرق، ومحتالين مخادعين، وقومًا منفيّين، وأكثر الناس اقترافًا للآثام.(١)

عندما انتهت الحملة الصليبيّة تطلبت مشكلة مراقبة المومسات حلًّا عاجلًا، فلمّا كانت مدنٌ جديدة كثيرة قد بُنيت، فإنّ السيدات اللواتي اعتدنَ التسكّع في الطرقات، ذهبنَ إلى تلك المدن وزاولنَ مهنتهنّ داخل أسوارها أو خارج أبوابها، فلحقَ العارُ كلّ مَنْ ساعد أولئك النسوة أو قام بحمايتهنّ. لا بدّ من مقاومة هذا البغاء، وقدرت الكنيسة نفسُها الموقف، فرأت أنّه من العبث القضاء على البغاء كليّةً، إذ يكون ضررُ هذا الإجراء أكثرَ من نفعِه. وقد قال القديس أوغسطينوس نفسه: «إذا منعتُمُ البغاء، عملت الملذّات والحرية على فسادِ المجتمع».

وبعد مناقشات طويلة، لجأت السلطاتُ إلى وسائل العصور القديمة، فوضعت العاهرات في بيوتٍ عامّة تحت إشراف الشرطة، ليخفّ الضرر. وأشرفت الكنيسة نفسُها على هذا الأمر في كثير من البلدان، فأُسست دارٌ للبغاء في مدينة أفينون (Avignon) البابوية، وأطلق على تلك الدار اسم "أباى" (Abbaye) تحت رعاية الملكة جوانا (Joanna) ملكة نابولي. وكان على السيدات المستخدمات هناك أنْ يحافظنَ على مواعيد الصلاة ولا يتخلّفْن عن حضور أي قداس، فمهما كانت مهنتهن وضيعةً وفاسدة، يجب أن يبقين مسيحيّات طيّبات.(٢)

---

(١) فيلكس فابري (٢٠٠٠، ج٣٨/ ص١١٤٣).

(٢) ريتشارد لوينسون (١٩٦٥، ص١٩٣).

الآثارُ الأدبيّة للانحراف الجنسي

من الآثار المهمة للانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، الآثار الأدبية التي أُلفت كردٍّ فعلٍ لهذه الانحرافات من شعرٍ ونثرٍ وأغاني شعبية، وقصصٍ أخذت الطابعَ الخيالي في الكثير من الأحوال. وعلى الرغم من أنّ هذا النتاج الأدبي قد أخذ طابع الألفاظ المبتذلة الداعية إلى الرذيلة والفسق، إلّا إنّها أثّرت في الحركة الأدبيّة في أوروبا من خلال القصص التي تناولت هذه الشخصيات الصليبيّة المنحرفة جنسيًّا حتى بعد انتهاء عصر الحروب الصليبية.

عندما ألّف هنري (هيج الثالث) دوق برجنديا أغنية تدعو إلى الفجور والفسق، وشاعتْ هذه الأغنية وجرت على الألسنِ في كلّ الجيش، انزعج الملك ريتشارد قلب الأسد أشدّ الانزعاج، ورأى أن لا بدّ له من إنزال العقاب الصارم بمَنْ يترنّمون بها.(١) وهكذا أثّرت هذه الأغنية في التراث الشعبي لدرجة أنّ كلّ مَنْ كان في جيش الحملة الصليبيّة الثالثة كانوا يترنّمون بها. غير أنّ النصيب الأكبر للآثار الأدبية للانحرافات الجنسيّة في عصر الحروب الصليبيّة كان من نصيب إليانور دوقة أكوتين التي كانت شاعرةً في الأساس.

إنّ وصف إليانور بالعاهرة والزانية، واقتراف زنا المحارم، كما حدث في أنطاكيا ليس مثيرًا للدهشة؛ لأنّها كانت واحدة ضمنَ قلّة من النساء اللاتي اخترقن سياجَ السلوك المحدّد لبني جنسها، ورفضْنَ الالتزام به. فقد كانت تفعل ما يروق لها، بيْدَ أنّ ذلك لم يكن دونَ صراع مرير أو دونَ ثمن. فأبتْ إليانور أن تكون ضحيّة الظروف، لذا ليس ثمّة غرابة أن توصفَ في واحدة من الأغاني الشعبية باعتبارها زانية وأمًّا لطفلٍ غير شرعي

---

(١) مجهول (٢٠٠٠، ج٢/ ص٢٢٦).

من (الأيرل وليم مارشال). وفي قصيدة (روزاموند الجميلة) وصفت إليانور بالقاتلة، بينما تُصور روزاموند الزانية باعتبارها الضحية الحلوة تعيسةَ الحظ.[1] فقد ألهمت إليانور دوقة أكوتين شعراء التروبادور وأشعارهم العذبَة، واستحقّت أنْ تُنعت باسم (زهرة العالم) مرّات عديدة،[2] وذلك على الرغم من دعارتها وانحرافاتها الجنسيّة المتعددة والمتنوعة، إلّا أنّ هذه الانحرافات كانت ملهمةً للشعراء في أوروبا في عصر الحروب الصليبيّة وبعد انتهائها.

في أنشودة تُنسب لشاعر التروبادور(سيركامون Cercamon) يُعتقد أنه ألّفها أثناء الحملة الصليبيّة الثانية، وفي إشارة ضمنية يعتبرها المؤرخون موجّهة إلى إليانور، يقول في سياق استهجانه لسلوك امرأة تنام مع أكثر من رجلٍ "كان من الأفضل لها عدم ارتكاب خطأ سوف يُتحدّث عنه من هنا حتى بواتو". وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي كتب عنها (جان دي سيرس jean de Serres) قوله: «كانت إليانور قد اعتادت مجون المكان والزمان، فاستسلمتْ لملذّات الشرق، حتى فاحت رائحة مُجونها كلّ مكان». فمِن المؤكد أنّ سمعة إليانور بالنسبة للفرنسيّين كانت في الحضيض، ولم يُفلح الزمن في مداواتها، ففي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي يصفها راهبٌ من دير (باربو Barbeau) في سياق سيرة ذاتية متعاطفة مع الملك لويس السابع، باعتبارها «محبّة للرجال، ابنة الشهوة والمفسدة، وعديمة الإنسانية».[3]

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٥٠).

(٢) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١١٤).

(٣) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص ٩١).

لقد اقترن اسم إليانور دوقة أكوتين بفيضٍ من القصص التي تفوق الخيال، فبعد وفاتها بأربعمائة عام، كان لها نصيب في واحدة من مسرحيات الأديب الإنجليزي (وليم شكسبير) عن حياة ووفاة الملك (جون) حيث تدور المسرحية حول المصير المأساوي لأرثر كونت بريتناني. وتُذكر إليانور على لسان (كونستانس) باعتبارها جدّة فاسدة، ويشبّه شكسبير الملكة إليانور بـ (آتي Ate) إلهة الإغريق التي كانت تُحرّض البشر على الشرّ، واعتبار إليانور في دفع ابنها إلى الحرب والتمرد تجسيدًا للحماقة العمياء وضياع القيم الأخلاقية. ويذكر الأديب الإنجليزي وفاتَها في الفصل الرابع وهي في النهاية متآمرة، وقد سببت وفاتها أقلّ قدر من الأسف أو النّدم. وهكذا يرى القارئ بالفعل ثمة شيء رومانسي بصدد إليانور التي تحدّث عنها شكسبير، باعتبارها آفة بشعة، مؤذية للسماء والأرض[١].

---

(١) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص١٤٨).

خاتمةُ الكتاب

أُخذت المرأة بالحماس الذي ألهب القارة الأوروبية في أواخر القرن الحادي عشر، وأفرز الحركة الصليبية. فقد رافقت النساءُ الحملات العسكرية إلى الشرق الإسلامي، إلّا أنّ الأفكار التي كانت سائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى عن المرأة، والتي جعلت منها تجسيدًا للآثام والشهوة والفجور؛ قد رافقت الفرنجة إلى الشرق. فعندما كانت تحلّ بهم مصيبة أو تنزل بهم نازلةٌ يسارعون إلى ردّها إلى آثام النساء وابتذالهنّ، فقد تحمّلت نساء العامة بسبب الأفكار السائدة لدى الفرنجة وزْرَ انتكاساتهم وإخفاقاتهم، باعتبارها التجسيدَ المادي للآثام والرذيلة.

إنّ محاولة البابوية إظهارَ الحملات الصليبيّة التي تمّ تغليفها بإطار ديني بصورةٍ مقدّسة؛ لم تمنعِ الصليبيّين من إظهار سلوكهم البربري، والقيام بأعمال تنطوي على الفسق والفجور. فالعناصر الأوروبية التي شاركت في أعمال هذه الحملات إنّما أتتْ إلى الشرق بما جُبلت عليه من أخلاق وطبائع بعيدة كلّ البعد عن الإطار الديني، فقد فشلت البابوية في إظهار الحركة الصليبيّة كعمل من أعمال الربّ، فغلبت طبائعُ الفرنجة على سلوكياتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وظهرَ حبُّ النفس والأنانية والخضوع للشهوات الجسديّة؛ فمشاعر التّقوى والورع لم تنجحْ في إخفاء التناقض الأخلاقي للفرنجة هذه الحملات.

قامت المرأة الصليبيّة بدور آخر غير المشاركة في القتال إلى جانب الرجل، فقد كانت مجموعات منهنّ تأتي من أوروبا بقصد الترفيه عن الجند المشاركين في الحملات الصليبيّة في صورة البغاء المقدس، أي ممارسة الجنس بين أطراف لا يجمعهم رابطٌ شخصي، ولا تحركهم دوافعُ محدّدة تتعلق بالتّوق الفردي لشخص بعينه، إنما هو ممارسة جنسيّة مكرّسة لخدمة الربّ. وقد رسمت المصادر العربية صورة مثيرة لهؤلاء النسوة، فوصفت حُسْنهن،

وتوقّد الغريزة النوعية فيهنّ، وكيف أنّهن كنّ يبذلنَ أجسادهنّ للجند كنوعٍ من العبادة التي يتقرّبن بها إلى الله. وقد أشارت المصادرُ الغربية إلى هذا الدّور الذي كانت تقومُ به المرأة الصليبيّة في معسكرات الجند، بيدَ أنّه انتقدته وتذمّرت منه بسبب الفساد الذي كانت تشيعه هؤلاءِ النسوة في صفوف المقاتلين الصليبيّين. فقد ألصقت هذه المصادر بهنّ صفةَ الابتذال، وسوءِ الأخلاق، وحمّلتْهنَ مسئولية انعدام العفّة والاتزان والإيمان والإحسان.

كان الصليبيّون عندما ينتصرون على المسلمين يبقون على العاهرات، أمّا إذا ما لحقتْ بهم الهزيمة، فيبادرون إلى طرْدهنّ من صفوف تلك الجيوش. وقد كان الدرس واضحًا، فالمسيحيون متيقنونَ من النصر في الحياة الدنيا والخلاص في الحياة الآخرة، هذا ما داموا يتجنّبون الخطايا الشهوانية. كان التطهيرُ الجنسي هو الخطة الجليّة لتجنّب الهزيمة عن طريق إبعاد العاهرات وربما حتى النساء المتزوّجات عن المعسكر قبيل المعارك الحاسمة، وهذا بالفعل ما قام به القواد الصليبيّون من أجل تحجيم النوازع الجنسيّة لدى الجنود وبالتالي إحراز النصر.

أبرزت الدراسةُ انتشارَ الإباحية، وملابس النساء الخليعة، وحفلات الرقص والمجون، والمحفزات الجنسيّة، وعدم التكافؤ في الزواج، كدوافع اجتماعية أدّت إلى الانحراف الجنسي. وكانت الأسباب الاقتصادية من الأسباب الهامّة للانحراف في عصر الحروب الصليبيّة بدافع ارتفاع نسبة البطالة، واعتياد الأزواج والزوجات على إشعال رغباتهم الجنسيّة المتبادلة من أجل الحصول على المال، حتى أن السلطات الحاكمة كانت تعملُ على تسهيل الدّعارة والانحراف الجنسي بكلّ صوره؛ بدافعِ الرغبة في الحصول على المال. أضف إلى ذلك بعض المجاعات التي تعرّض لها بعضُ الصَليبيّين فكانت الرغبة في الحصول على القوت من الدوافع التي أدّت إلى اضطرار بعض النّسوة للدّعارة.

كانت العملياتُ العسكرية المترتّبة على الوجود الصليبي في بلاد الشام من الأسباب الهامّة غير المباشرة في الانحراف الجنسي في المجتمع الصليبي. فقد أفنتْ أوروبا في هذه المغامرة العسكرية الاستعمارية زهرةَ شبابها من الفرسان والمقاتلين، فترتّب على ذلك ارتفاعُ عدد الإناث بالنسبة لعدد الذكور سواء في أوروبا ذاتها أو في الإمارات الصليبيّة في الشرق العربي الإسلامي، ونظرًا لأن تعاليم الكنيسة لا تبيح تعدّدَ الزوجات؛ فقد لجأت العديد من هؤلاء النسوة من العذارى أو الأرامل إلى سدّ حاجاتهم الجنسيّة خارجَ غطاء الزوجية الذي لم يتوفر للعديد منهنّ بسبب قلّة عدد الرجال.

كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيّين أثرٌ كبيرٌ في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي، فالعديدونَ من الذين شاركوا في الحملات الصليبيّة من العلمانيّين قاموا بارتكاب الفواحش منذ اللّحظات الأولى لوجودهم في بلاد الشام. فقد رصدت الدراسةُ الفضائحَ الجنسيّة للطبقة الحاكمة في المجتمع الصليبي، حيث تناسى أفرادُها منزلتَهم وعلوَّ مكانتهم وانهمكوا في الملذّات، وارتكبوا الموبقات دون خوف من سوء عاقبة ما يفعلون. وتفشّت الدّعارة في المجتمع الكنسي، ولم يخجل رجال الدّين من الإنجاب من الزانيات والمحظيّات، بل وتأجير أماكن العبادة لممارسة الرذيلة مقابلَ رشوة مادية، فكانت حالات الزنا جماعية ومنتشرة في مختلف الأديرة والكنائس. والحقّ أن الانحراف الجنسي انتشر على نطاق واسع بين مختلف طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام وبلا استثناء على مدى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديّين، السادس والسابع الهجريّين.

تفشّى اللّواط داخل المجتمع الصليبي بصورة خطيرة بسبب طبيعة نُزُل الحجّاج الأوربيّين في المدينة، فقد كانت أماكن النوم مشتركة، بحيث كان ينام على السرير الواحد ثلاثةُ أفراد، ممّا ساعد على انحدار الأخلاق ونشر الرذيلة، ومن ثمّ غدت نزلُهم

أو الخانات التي يقيمون فيها مشهورةً بسُوء السّمعة. زدْ على ذلك وجود عددٍ كبير من الشباب العُزاب بعيدًا عن بلادهم لفترات طويلة بلا استقرار؛ ممّا فتح البابَ لانتشار تلك الفاحشة، وكثرة الغلمان اللقطاء من مختلف البلاد والجنسيّات، وعدم تأصل الشعور الديني، ممّا يسّر لمرتكبي تلك الجريمة أمرهم. بالإضافة إلى كثرة الأوروبيّين الوافدين إلى بلاد الشام من الفَسَقة الذين أبعدتْهم الكنيسةُ عن بلادهم تطهيرًا لها مِنهم، وتكفيرًا عن الجُرم الذي ارتكبوه، ومع مجيئهم للإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، وجدوا المناخ مهيئًا لممارسة اللّواط، فانْخرطوا في هذا السلوك الجنسي بلا رادعٍ ولا وازعٍ ديني.

أظهرت الدراسةُ الجانبَ الأخلاقي لدى الصليبيّين ومن خلال مصادرهم التاريخية في المقام الأول، فإشارات تلك المصادر لها أهميةٌ قصوى من خلال أنّها تقرّر واقعًا معاشًا معترَفًا به من جانب الصليبيّين أنفسهم، بعكس روايات المصادر التاريخية العربية التي مِن المتوقّع وجود تحامل مِن جانبها على الصليبيّين من خلال العَداء المشتعل بين الطرفين على مدى قرنيْن كامليْن من الزمان (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي). فقد حرصَ المؤرخون الصليبيّون على ذكر سلوك المسلمين الجنسي واتّهموهم بالانْحلال، غير أنّهم- كصليبيّين- وقعوا في ذات الدائرة، وأشار بعضهم إلى عدّة وقائع في هذا الشأن.

وإجمالًا يمكن القولُ إنّ الدراسة أبرزت صورةَ وتطورَ أخلاقيات الغزاة، فلم يكنْ لديهم ما يمكن وصفُه بقضية صليبيّة حقيقية، فأمام المال والجنس انْهارَ الصليبيّون، وكشفوا- فعلًا لا قولًا- أنّ مَنْ وصفتهم المصادر التاريخية بأنهم جندُ المسيح كانوا أبعدَ ما يكونوا عن ذلك الموقف[1].

---

(١) المادة العلمية في الخاتمة بالرجوع إلى: طه الطراونه (١٩٩٣). شفيق محمد عبد الرحمن (١٩٩٦). عذاري إبراهيم الشعيبي (٢٠١٦). حسن عبد الوهاب (١٩٩٧). محمد مؤنس عوض (٢٠١٥). يوشع براور (٢٠٠١). أسامة بن منقذ (٢٠٠١). علي السيد (١٩٨٠). سعيد عاشور (١٩٨٢). محمد رحيل (٢٠٠٩). أحمد عبد الله (٢٠١٦). حسين عطية (٢٠٠٢).

المصادرُ والمراجع

أولًا: المصادرُ العربيةُ والمعرَّبَة

- ابن الأثير (١٩٧٩): علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر.

- ألبرت فون آخن (٢٠٠٧)، تاريخ الحملة الصليبيّة الأولى/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- الأصفهاني (٢٠٠٣): عماد الدّين الأصفهاني (ت.٥٩٧هـ)، الفتح القسي في الفتح القدسي/ تحقيق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

- أمبرويز (١٩٩٨)، صليبيّة ريتشارد قلب الأسد/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر.

- أولفر أوف بادربورن (١٩٩٨)، الاستيلاء على دمياط/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- باريس (٢٠٠١): متَي باريس (ت. ١٢٧٣م)، التاريخ الكبير/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- بلانتغنت (١٩٩٨)، تواريخ أسرة بلانتغنت/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- بورشارد من دير جبل صهيون (١٩٩٥)، وصف الأرض المقدسة/ ترجمة: سعيد البيشاوي. عمان: دار الشروق.

- ابن جبير (١٩٨١): محمد بن أحمد بن جبير (ت. ٦١٤ أو ٦١٦هـ/ ١٢١٧أو ١٢١٩م)، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف برحلة ابن جبير. بيروت: دار الهلال.

- جان دي جوانفيل (١٩٦٨)، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: دار المعارف.

- بيير دوبوا (١٩٩٩)، استرداد الأرض المقدسة/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- ريموندا جيل (١٩٩٠)، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس/ ترجمة: حسين محمد عطية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- مارينو سانوتو (١٩٩١)، الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة/ ترجمة: سليم رزق الله. بيروت: مؤسسة الريحاني.

- سوخم (١٩٩٩): لودولف فون سوخم (ت. ١٣٥٠م)، وصف الأرض المقدسة/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- فوشيه الشارتري (١٩٩٠)، تاريخ الحملة إلى القدس/ ترجمة: زياد العسلي. عمان: دار الشروق.

- أبو شامة (١٩٩٧): عبد الرحمن بن إسماعيل (ت. ٦٦٥ه)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية/ تحقيق: إبراهيم الزيبق. بيروت: مؤسسة الرسالة.

ـ وليم الصوري (١٩٩٤)، الحروب الصليبيّة/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ فابري (٢٠٠٠): فيلكس فابري (ت. ١٤٨٣م)، رحلات فيلكس فابري/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر.

ـ أوتو أسقف فريزنغ (١٩٩٧)، المدينتان/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ فلهاردون (١٤٠٣هـ): جودفري فلهاردون (ت. ١٢١٢م)، فتح القسطنطينية/ ترجمة: حسن حبشي. جدّة: المجلس العلمي، جامعة الملك عبد العزيز.

ـ يوناس فوقاس (١٩٩٨)، رحلة يوناس فوقاس في الأرض المقدسة/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ يعقوب الفيتري (١٩٩٨)، تاريخ بيت المقدس/ ترجمة: سعيد البيشاوي. عمان: دار الشروق.

ـ روبرت دي كلاري (١٩٩٥)، سقوط القسطنطينية/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ أنَا كومنينا (٢٠٠٤)، ألكسياد/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

نيقولا ماركو بولو (١٩٩٥)، رحلات ماركو بولو/ ترجمة: عبد العزيز جاويد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ مجهول (د. ت)، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس المعروف بالجستا/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: دار الفكر العربي.

ـ مجهول (١٩٩٥)، تاريخ المورة/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ مجهول (١٩٨٩)، تتمة كتاب وليم الصوري والمنسوب خطأ إلى روثلان/ ترجمة: أسامة زكي زيد. الإسكندرية: (د. ن).

ـ مجهول (٢٠٠٠)، الحرب الصليبيّة الثالثة/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ مجهول (٢٠٠٢)، ذيل وليم الصوري/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ ابن منظور (٢٠٠٣): محمد بن مكرم بن منظور (ت. ٧١١هـ)، لسان العرب. القاهرة: دار الحديث.

ـ ابن منقذ (١٩٣٠): أسامة بن مرشد بن منقذ (ت. ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، الاعتبار/ تحقيق: فيليب حتى. الولايات المتحدة الأمريكية: مطبعة جامعة برنستون.

ـ ميخائيل السوري الكبير (١٩٩٥)، روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ فيليب دي نوفار (١٩٩٨)، حروب فردريك الثاني/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ ويندوفر (٢٠٠٠): روجر أوف ويندوفر (ت. ١٢٣٧م)، ورود التاريخ/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

ـ اليعقوبي (١٩٥٧)، البلدان. النجف: المطبعة الحيدارية.

- ابن شاهين (١٨٩٣)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك/ تحقيق: بولس راويس. باريس: المطبعة الجمهورية.

- المقدسي (١٩٠٩)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبعة بريل.

- المقدسي المعروف بالبشاري (١٩٠٤)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ تحقيق: دي جويه. ليدن (د.ن).

- الحميري (١٩٨٠): (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار/ تحقيق: إحسان عباس. بيروت: (د. ن).

- الذهبي (١٩٩٩)، دول الإسلام/ ت. حسن إسماعيل مروة. بيروت: دار صادر.

- القزويني (٢٠٠٣)، آثار البلاد وأخبار العباد. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ثانيًا: المراجعُ العربية والمعرّبة

- أ . ج . كينغ (١٩٩٨)، الإسبتارية في الأرض المقدسة/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبيّة. دمشق: دار الفكر.

- أ . دونالد نيكول (٢٠٠٣)، معجم التراجم البيزنطية/ ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- إبراهيم الحيدري (٢٠١١). النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب. بيروت: دار الساقي.

- أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦)، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام. القاهرة: دار الآفاق العربية.

- أحمد مختار عمر (٢٠٠٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب.

- أسامة زكي زيد (١٩٩٥). "ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري". مجلة كلية الآداب (جامعة طنطا). ع ٨ يناير ١٩٩٥ (ص١٩ – ٦٦).

- اسمت غنيم (١٩٨٢)، الحملة الصليبيّة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.

- اسمت غنيم (١٩٨٣)، المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى. القاهرة: دار المعارف.

- أشرف صالح محمد، عمرو عبد العزيز منير (٢٠١٨). التاريخ الأوروبي في العصر الوسيط: قراءة جديدة. الإسكندرية: دار التعليم الجامعي.

ـ إليانور دوقة أكوتين (٢٠٠٩)، مرآة أوروبا بالقرن الثاني عشر الميلادي. الجيزة: دار عين للدراسات والبحوث.

ـ إمام الشافعي محمد حمودي (٢٠١١)، "الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبيّة". مجلة كلية اللغة العربية في أسيوط (جامعة الأزهر). ع٣٠/ ج١/ ص٥٥٦ – ٧٤٧.

ـ إيرل كيرنز (١٩٩٢)، المسيحية عبر العصور/ ترجمة: عاطف سامي برنابا. القاهرة: دار نوبار.

ـ توماش ماستناك (٢٠٠٣)، السلام الصليبي/ ترجمة: بشير السباعي. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

ـ تيسير بن موسى (د.ت)، نظرة عربية على غزوات الإفرنج. بيروت: الدار العربية للكتاب.

ـ جمال محمد حسن الزنكي (٢٠٠٨). تطلع المرأة الصليبيّة للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبيّة (٥٢٤ – ٥٥٦هـ/ ١١٣٠ – ١١٦١م) في ضوء ما كتبه المؤرخ وليم الصوري. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية (الكويت). الحوليّة (٢٩)، الرسالة (٢٨٦). ديسمبر ٢٠٠٨. (ص٨ – ٩٢).

ـ جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٤)، العدوان الصليبي على بلاد الشام. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

ـ جوزيف نسيم يوسف (١٩٨٨)، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبيّة الأولى. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- جوزيف نسيم يوسف (١٩٩٨)، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤- ١٤٥٣م). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩)، الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبية/ ترجمة: محمد فتحي الشاعر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جوناثان ريلي سميث (٢٠٠٩)، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: قاسم عبده قاسم. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

- حسن حبشي (١٩٤٨). نور الدّين والصليبيون: حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري. القاهرة: دار الفكر العربي.

- حسن حبشي (١٩٥٨)، الحرب الصليبيّة الأولى. القاهرة: دار الفكر العربي.

- حسن عبد الوهاب (٢٠٠٠)، دراسات في تاريخ الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى. الإسكندرية.

- حسن عبد الوهاب حسين (١٩٩٧)، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبيّة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- حسين عطية (٢٠٠١)، "مجلس نابلس ٢٣ يناير ٢٠١١ وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية". حوليّة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج١، ج١، القاهرة.

- حسين عطية (٢٠٠٢)، دراسات في تاريخ الحروب الصليبيّة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- الخوري بولس الفغالي (٢٠٠٩)، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم. بيروت: المكتبة البولسية.

- دندل جبر (١٩٨٧)، الزنا. الزرقاء: مكتبة المنار.
- ريمون ستانبلوي (٢٠٠٤)، مفاتيح أورشليم القدس/ ترجمة: عايدة الباجوري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- ريموند دوبري (١٩٩٨)، قانون ريموند دوبري/ ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٣. دمشق.
- زينب عبد المجيد عبد القوي (٢٠٠٩)، الإنجليز والحروب الصليبية. القاهرة: دار عين للدراسات.
- سامية محمد جابر (٢٠٠٠)، الانحراف الاجتماعي بين نظرية علم الاجتماع والواقع الاجتماعي. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- ستيفن رنسيمان (١٩٩٣)، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني. القاهرة: دار الفكر العربي.
- ستيفن هوارث (٢٠١٣)، فرسان الهيكل/ ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- سعيد أحمد برجاوي (١٩٨٤)، الحروب الصليبيّة في المشرق. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- سعيد عبد الله عاشور (١٩٥٩)، أوروبا العصور الوسطي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- سعيد عبد الله عاشور (١٩٨٢)، الحركة الصليبية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ـ سهيل زكار (١٩٩٥)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر.

ـ شفيق محمد عبد الرحمن (٢٠١٢). "مظاهر العمران الاجتماعي في بلاد الشام من خلال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ". حوليّات آداب عين شمس. مجلد (٤٠)، عدد مارس ٢٠١٢. (ص ١٤١ – ١٧٠).

ـ صبحي حموي اليسوعي (١٩٩٨)، معجم الإيمان المسيحي. بيروت: دار المشرق.

ـ صفاء عثمان محمد إبراهيم (٢٠٠٥)، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني (١١١٨ –١١٣١م/ ٥١٢ – ٥٢٥ه) رسالة ماجستير إشراف: أحمد رمضان. القاهرة: كلية الآداب– جامعة عين شمس.

ـ عادل عبد الحافظ عثمان (١٩٨٩)، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي (١١٥٢ – ١٢٥٠م/ ٥٤٧ – ٦٤٨هـ). القاهرة: مكتبة مدبولي.

ـ عبد السلام الترمانيني (١٩٨٤)، الزواج عند العرب. الكويت: المجلس الوطني للثقافة، سلسلة عالم المعرفة.

ـ عبد الله الربيعي (١٩٩٦)، "الدوافع الدينية للحركة الصليبية"، ضمن ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبيّة. القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب.

ـ عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. بيروت: دار الشروق.

ـ علي السيد علي (١٩٨٠)، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبيّة. (د. م): دار السويدي للنشر والتوزيع.

ـ عَلي محمد محمد الصَّلَّابي (٢٠٠٨)، صلاح الدّين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس. بيروت: دار المعرفة.

ـ فاطمة الزهراء أزرويل (٢٠٠١)، البغاء أو الجسد المستباح. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

ـ فايزة عبد الرحمن حجازي (٢٠١٢). "بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية في بلاد الشام خلال الفترة (٤٩٢ – ٥٨٣هـ/ ١٠٩٩ – ١١٨٧م)". مجلة التربية (جامعة الأزهر). ع١٥١/ ج٢/ ديسمبر ٢٠١٢. (٤٤٣ – ٤٦٠).

ـ قاسم عبده قاسم (١٩٨٣)، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. القاهرة: دار المعارف.

ـ قاسم عبده قاسم (١٩٩٠)، ماهية الحروب الصليبيّة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة، سلسلة عالم المعرفة.

ـ قاسم عبده قاسم (١٩٩٩)، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية. القاهرة: دار عين للدراسات.

ـ قاسم عبده قاسم (٢٠١٠)، الحملة الصليبيّة الأولى نصوص ووثائق تاريخية. القاهرة: دار عين للدراسات.

ـ كفاح باسم رشق (٢٠١٣)، مدينة عسقلان منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن السادس الهجري/ أطروحة ماجستير إشراف: صالح درادكة. عمان: الجامعة الأردنية.

- كلود كاهن (١٩٩٥)، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية/ ترجمة أحمد الشيخ. القاهرة: سينا للنشر.

- مجموعة مؤلفين (٢٠٠٥)، شروحات مجموعة قوانين الكنائس الشرقية/ تقديم: الكاردينال البطريرك مار إغناطيوس موسى الأول داود. بيروت: منشورات المكتبة البولسية.

- محمد حمزة حسين، لبنى رياض عبد المجيد (٢٠١٥) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع.

- محمد عبد الله المقدّم (٢٠٠٩)، الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية. القاهرة: دار العالم العربي.

- محمد فوزي رحيل (٢٠٠٩)، نهاية الصليبيّين. القاهرة: دار عين للدراسات.

- محمد مؤنس عوض (٢٠٠١)، الحروب الصليبيّة (السياسة. المياه. العقيدة). القاهرة: دار عين للدراسات.

- محمد مؤنس عوض (٢٠١٥)، "رفول بنت أبي الجيش (ت. ق١٢م): صفحة من التاريخ النسوي لبلاد الشام عصر الحروب الصليبيّة". مجلة الشرق الأوسط، ع٣٦، مارس ٢٠١٥.

- محمود سعيد عمران (١٩٧٨)، الحملة الصليبيّة الخامسة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- محمود سعيد عمران (١٩٩٨)، حضارة أوروبا في العصور الوسطى. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

ـ محمود محمد الحويري (١٩٧٩)، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد. القاهرة: دار المعارف.

ـ مريم محمد هاشم البغدادي (١٩٨١)، شعراء التروبادور. جدة: دار تهامة.

ـ مصطفى عبد العزيز العسقلاني (١٩٩٢)، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي/ رسالة ماجستير غير منشورة إشراف: محمد محمد مرسي الشيخ. الإسكندرية: كلية الآداب- جامعة الإسكندرية.

ـ معروف الرصافي (١٩٥٣)، ديوان معروف الرصافي/ شرح وتصحيح: مصطفى السقا. القاهرة: دار الفكر العربي.

ـ موريس كين (٢٠٠٧)، حضارة أوروبا العصور الوسطي/ ترجمة: قاسم عبده قاسم. القاهرة: دار عين للدراسات.

ـ ميخائيل زابوروف (١٩٨٦)، الصليبيّون في الشرق/ ترجمة: إلياس شاهين. موسكو: دار التقدم.

ـ ميشيل بالار (٢٠٠٣)، الحملات الصليبيّة والشرق اللاتيني/ ترجمة: بشير السباعي. الجيزة: دار عين للدراسات.

ـ نبيلة إبراهيم مقامي (١٩٩٤)، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة.

ـ نجية إسحاق عبد الله (١٩٨٤)، سيكولوجيا البغاء. القاهرة: مكتبة الخانجي.

ـ نهى فتحي الجوهري (٢٠٠٨)، إمارة طرابلس الصليبيّة في القرن (الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري). القاهرة: دار العالم العربي.

ـ نورمان . ف . كانتور (١٩٨١)، التاريخ الوسيط/ ترجمة: قاسم عبده قاسم. القاهرة: دار المعارف.

ـ يوحنا كيناموس (١٩٩٧)، أعمال يوحنا ومانويل كومينوس/ ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٩. دمشق: دار الفكر.

ـ يوشع براور (١٩٨١)، عالم الصليبيين/ ترجمة: قاسم عبده قاسم. القاهرة: دار المعارف.

ـ يوشع براور (٢٠٠١)، الاستيطان الصليبي في فلسطين/ ترجمة: عبد الحافظ البنا. الجيزة: دار عين للدراسات.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

- Ashraf Salih Mohamed (2016). Sexuality In Medieval Ages: The case of society during Mamlūk sultans' era (1250 - 1517).- Saarbrücken: Noor Publishing.

- August C. Krey (1921). The first crusade: The accounts of eyewitnesses and participants. Princeton.

- Barbara Keesling (2011). Sexual Pleasure: Reaching New Heights of Sexual Arousal and Intimacy, Turner Publishing Company.

- Barber, Malcolm (2014). The Cathars: Christian Dualists in the middle Ages. New York, NY: Routledge.

- Benvenisti, M. (1970). The Crusaders in the Holy Land.- Jerusalem.

- Christopher Tyerman (2006). God's War: A New History of the Crusades.- Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press.

- Costen, Michael D. (1997). The Cathars and the Albigensian Crusade. Manchester and New York: Manchester University Press.

- Cristoph. T. Maier (2004). The roles of women in the crusade movement a survey. Journal of medieval history. The American Historical review. Published by American historical association.

- Cross, Frank Leslie; Livingstone, Elizabeth A. (2005). Oxford Dictionary of the Catholic Church. Oxford, UK: Oxford University Press.

- D. S. Chambers (2005). Popes, Cardinals and War. Published in London.

- Dana Carleton Munro (1906). "The Speech of Pope Urban II. At Clermont, 1095" is an article from The American Historical Review, Volume 11.(2): 231242-. [New York]

- Edgar Erskine Hume (1940). Medical Work of the Knights Hospitallers of St. John of Jerusalem.- Baltimore: The Johns Hopkins University Press.

- Edgington, Susan B.; Albert of Aachen (2007). Historia Ierosolimitana, Oxford University Press.

- Encyclopedia Britannica (1911). Cambridge university press.

- Farhad Daftary (2004) Ismaili Literature: A Bibliography of Sources and Studies. London: I.B.Tauris Publishers.

- Flowers, Ronald B. (1988). The prostitution of women and girls. Jefferson, NC: McFarland.

- Frederick Charles (1879). The military religious orders of the middle Ages: the Hospitallers, the Templars, the Teutonic knights, and others. London: Society for Promoting Christian Knowledge.

- Indrikis Sterns (1982).”Crime and Punishment among the Teutonic Knights”, Speculum 57, no.1 (Jan): 84111-.

- Isa Mahmoud Alazzam (2013). The (Mukus) Taxes in Egypt during the Mameluke Era (648 AH/1250 CE-923 AH /1517). Asian Social Science, Vol. 9, 234 - 242. doi:10.5539/ass.v9n9p234.

- J. D. Mansi, ed. (1961). Sacrorum Conciliorum Nova Amplissima Collectio 53 vols (1759–98. Reprint, Graz: Akademische Druck und Verlagsanstalt.

- Jacques de Vitry (1896) History of Jerusalem, Trans. By Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. London.

- James A. Brundage (1969). Medieval canon law and the crusader, University of Wisconsin Press, Madison.

- James A. Brundage (1985). “Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade” in Peter Edbury ed. Crusade and Settlement University College Cardiff Press; Cardiff. (Pp. 57 – 65).

- Jean-Louis Flandrin (1982). La vie sexuelle des gens mariés dans l 'ancienne société: de la doctrine de l 'Église. à la réalité des comportements.in Communications: Sexualités occidentales, 35. Paris: Seuil, (Pp. 102–15).

- John Norman Davidson Kelly (1996). The Oxford Dictionary of Popes.- Oxford: Oxford University Press.

- Jonathan Riley-Smith (2005). The Crusades: A History, 2nd ed. Yale University Press.

- Kenneth. M. Setton (1969). A history of the crusades. London: The University of Wisconsin press.

- Livre des Assises de Jerusalem (1843), ed. Bugnot (Lois II), R.H.C, Paris.

- Lock, Peter (2006). The Routledge Companion to the Crusades. New York, NY: Routledge.

- Lynda Garland (1999). Byzantine empresses: Women and power in Byzantium, AD 5271204-. New York, Routledge (1999).

- Marwan Nader (2006), Burgesses and Burgess Law in the Latin Kingdoms of Jerusalem and Cyprus (1099–1325), Aldershot, Hampshire. Ashgate Publishing.

- Mary Douglas (1966). Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo. New York: Frederick A. Praeger.

- Munro, Dana C. (1914). The Children's Crusade is an article from The American Historical Review, Volume (19).

- New Catholic Encyclopedia. (No date).- Washington: The Catholic university of American press.

- Nicetas Choniates (1984). O City of Byzantium: Annals of Niketas Choniates.- Trans. Harry J. Magoulias, Detroit: Wayne State UP.

- Nicholson, Helen J. (2004). The Crusades. Westport, Connecticut: Greenwood Press.

- Nicole Bériou, Philippe Josserand et al. (2009), Prier et combattre: Dictionnaire européen des ordres militaires au Moyen Âge, Fayard.

- Norman Daniel (1975). The Arabs and mediaeval Europe, London: Longman.

- Paul Rousset (1945). Les origines et les caractères de la première croisade, Neuchâtel: Éd. de la Baconnière.

- Peter Raedts (1982). "La Croisade des enfants a'-t-elle eu en lieu?" terj. Jacques Bacalu, L'Histoire, 47 (Paris).

- Pierre J. Payer (1980). "Early medieval regulations concerning marital sexual relations". In: Journal of Medieval History vol. 6. (353376-).

- Piers D. Mitchell (2004). Medicine in the Crusades: Warfare, Wounds and the Medieval Surgeon. Cambridge, Cambridge University Press.
- Richard of Holy Trinity (2001). Itinerary of Richard I and others to the Holy Land. (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf) translated by. A Classical Scholar and A Gentleman Well-Read in Medieval History (Cambridge, Ontario: In Parentheses Publications).
- Room, Adrian (1986). A Dictionary of True Etymologies.
- Schwartz, Howard; Loebel-Fried, Caren; Ginsburg, Elliot K. (2007). Tree of Souls: The Mythology of Judaism. Oxford University Press.
- Statt, David A. (2004). A Student's Dictionary of Psychology. Psychology Press.
- Suzanne Helen Corry (1997). Women's Participation in Crusades from the Eleventh To Thirteenth Centuries.- Palmerston North, New Zealand: Massey University.
- The Oxford Dictionary of Byzantium (1991). Edited by Alexander P. Kazhdan, Oxford University Press.
- Theodosios Goudelēs (1993), The Life of Leontios Patriarch of Jerusalem, text, translation, commentary by Dimitris Tsougarakis, New York: Brill Academic Publishers.
- Weber, N. (1907). Albigenses. In The Catholic Encyclopedia. New York: Robert Appleton Company. Retrieved September 15, 2017 from New Advent: http://www.newadvent.org/cathen/01267e.htm.
- William of Tyre (1943). A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. Emily A. Babcock and A.C. Krey.- New York: Columbia University Press.
- William, of Tyre Archbishop of Tyre (2001). A Middle English Chronicle of the First Crusade: The Caxton Eracles (Texts and Studies in Religion) Dana Cushing (ed.) Lewiston, N.Y.: Mellen Press.
- Wolff, R. L.; Hazard, H. W. (ed.) (1969). The later Crusades, (11891311-).- University of Wisconsin Press.
- Zoe OldenBourg (1967). The Crusades London: Weidenfeld & Nicholson.

المحتويات